



المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الحادي والتسعين

١ يوليو سنة ١٩٣٧

٢٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٦

عقل الانسان

بين الكيمياء والكهرباء

— ١ —

لا بد للجسم الحي من اتفاق الطاقة ، في حالتي نومه ويقظته ، وراحته وعمله ، لا يفتيه عنها مغن . فهو بهذا الوصف آلة لا بد لها من الوقود

نعم ان حدود هذا الاتفاق متباينة . فلنرى اذا استيقظ في الصباح ، بعد نوم دام سبع ساعات او ثماني ساعات ، وظل مستلقياً على سريره جسمه وعضلاته في حالة راحة تامة ، وعقله غير مضطرب ولا قلق ، ومعدته خالية لم يدخلها الطعام بعد عشاء الليلة السابقة ، كان اقل ما يكون حاجة الى الطاقة وأقل ما يكون اتفاقاً لها ، ولكن لا بد له من يسير منها على كل حال . ومقدار الطاقة التي يحتاج اليها في هذا الوضع يعدل في المتوسط وحدة حرارية واحدة (Calorie) في الدقيقة وستين وحدة حرارية في الساعة ، وهذه الطاقة تعدل الطاقة المستخرجة من احتراق قطعتين صغيرتين من السكر في ساعة

هذا المقدار من الطاقة ، هو اقل ما يحتاج اليه منها . فهو يكفي لبقاء اعضاء الجسم قائمة بوظائفها ، اذا لم تحملها عبئاً خاصاً بالنهوض والمشي والتمرن الرياضي وغير ذلك من مختلف ضروب الحركة . فمجرد الجلوس في السرير يقتضي زيادة هذا المقدار من الطاقة المستعملة ، خمسة في المائة ، والوقوف عشرة في المائة ، والمشي الخفيف مائتين في المائة

هذا الموضوع اي موضوع ما يحتاج اليه الجسم من الطاقة ، في حالي الراحة والحركة ، كان مداراً لبحوث مستفيضة ، في معمل التغذية التابع لمعهد كارنيجي الاميركي ، وقد عمد الدكتور بنديكت وأعوانه ، الى قياس ما يحتاج اليه الانسان وبعض الحيوانات كذلك ، من الطاقة وهم في احوال وأوضاع مختلفة ، وغرضهم ان يتبينوا العلاقة بين مظاهر النشاط التي يمكن ان تقاس — كمقدار ما يستهلك من الاوكسجين او يزفر من ثاني اكسيد الكربون — ونشاط الجسم نفسه. صنعوا لذلك حجراً محكمة الاقفال لا يدخلها شيء ولا يخرج منها شيء ، ولكنها تصلح مع ذلك لمعيشة بضعة افراد اياماً متوالية ، يأكلون وينامون ويعملون ويلعبون فيها ، والالات تقيس ما يستشقونه وما يزفرونه والحرارة التي تشع من ابدانهم . فوجد الدكتور بنديكت ان ما يستهلكه الجسم من الاوكسجين ، دليل تام على سائر العوامل ، فقصر بحثه عليه ، واستنبط لذلك خوزة محكمة ، وأجهزة اخرى يسهل تنقيها ، لقياس ما يستهلكه الشيوخ من الاوكسجين في دورهم ، والعمال في معاملهم ، والنساء امام لوح الكي او موقد الطهي وقد خرج الدكتور بنديكت من هذه المباحث ، بأن الرجل المعني بعمل كتابي يحتاج الى ٢٥٠٠ وحدة حرارية في النهار، لتجهزه بالطاقة اللازمة لاعمال جسمه الاساسية بحيث يستطيع ان يمضي في عمله ، اما حاجة العمال اليدويين فاكبر . فالفلاح يحتاج الى ٣٥٠٠ وحدة حرارية على المتوسط ، والخطاب الى ٧٠٠٠ ومحترف السباق بالعجلة (الدراجة) الى ١٠٠٠٠ في يوم سباق واذا كانت افعال الجسم تحتاج الى الطاقة هذا الاحتياج الظاهر ، فماذا يقال في افعال العقل ؟ ان العالم الذي يشتغل بحل معضلة رياضية معقدة ، او الطالب الذي يقضي ثلاث ساعات في الاجابة عن اسئلة امتحان صعب ، او السياسي الذي يقضي ساعات في مؤتمر يعالج مشكلات دقيقة تقضي العناية بالمبدأ ويلتزم الحكم فيها تبعة كبيرة — من من هؤلاء لا يخرج من عمله وهو يحس انه مهوك القوى ، خابي النشاط ؟ ليس ثمة ريب في ان افعال العقل ، تورث صاحبه تبعاً كأفعال العضلات فاذا صح ذلك ، فما مقادير الطاقة المختلفة التي يحتاج اليها المرء ، في اعماله العقلية المختلفة ؟ واذا كان الموظف في مكتب هذه المحلة يحتاج الى ٢٥٠٠ وحدة حرارية ، ليتمكن من القيام بالاعمال العادية المطلوبة منه فما المقدار الاضافي من الطاقة الذي يحتاج اليه ، اذا عهد اليه في معالجة مشكلة معقدة مع احد الوكلاء ؟ هذه هي المسألة التي عرض لها الاستاذ بنديكت في التجربة التالية اختار الباحث — وكانت زوجته تساعد — سيدة وستة رجال لتجربة التجارب فيهم . كانت السيدة قد احترفت مراجعة الحسابات . وكان خمسة من الرجال من خريجي الجامعات وكان اثنان منهم من اصحاب المناصب العالية في معاهد التعليم . فالفروض فيهم انهم جميعاً مدرّبون على الاشغال العقلية . وكانوا جميعاً متمعين بالصحة الكاملة

جرى البحث خلال ايام متوالية في الصباح . ففي الساعة ٣٠ : ٨ كانوا يفدون على مقر التجربة من دون ان يتناولوا طعام الفطور ذلك لانه عندما يدخل الطعام المعدة ينشأ التفاعل الكيماوي في الجسم من تلقاء نفسه ، لان عملية الهضم تحتاج الى طاقة . فاجتناباً لذلك قبلوا جميعاً ان يصوموا كل يوم حتى الظهر اي حتى تنتهي تجربة ذلك اليوم عند وصولهم كان كل منهم يلبس تلك الخوذة الخاصة بقياس النشاط الجسماني ، عن طريق الاوكسجين الذي يستهلك وثاني اكسيد الكربون الذي يزفر والحرارة التي تشع . وتبقى الخوذة على رأس كل منهم من ثلاث ساعات الى اربع ساعات متوالية ، ولكن الفترات التي يطلب اليهم فيها بذل نشاط عقلي كانت لا تزيد على ربع ساعة كل مرة بينها فترات للراحة

اما التجربة فكانت كما يلي : يجلس الرجل — او السيدة — في وضع يقتضي من جسمه اقل جهد عضلي ، ويحفظ بهذا الوضع في اثناء التجربة . والغرض من ذلك اجتناب كل ما يتطلب من الجسم اتفاق طاقة خاصة لغرض جسماني . واذ يكون الرجل في هذا الوضع المريح ، ولا شيء يشغل عقله ، يقاس ما يستهلكه من الطاقة . ثم يطلب اليه ان يحل مسألة رياضية . وفي اثناء اشتغاله بحلها يقاس كذلك ما يستهلكه من الطاقة . والمسألة الحسائية الغالبة كانت ضرب عدد مؤلف من رقمين في آخر مؤلف من رقمين ، كضرب ٣٧ في ٢٩

ولم يسمح لاحد باستعمال ورق وقلم ، لان استعمالهما يقتضي استعمال عضلات الاصابع والذراع ، فيختلط النشاط العضلي الناشئ عن الكتابة بالنشاط العقلي الناشئ عن التفكير في حل المسألة ، وتضطرب النتيجة . فاذا حلت المسألة واراد صاحبها ان يعلنها كلاماً ، اضطر الى تحريك الشفتين وعضلات الفكين ، وهذا يقتضي اتفاق الطاقة العضلية كذلك ، ولذلك اتفق المجرّبان مع السيدة والرجال الستة على انه اذا انتهى احدهم من حل المسألة لمس زراً كهربائياً دقيق الاحساس في تناول سبائه بحيث يكون لمس نتيجة لاقل حركة ممكنة من حركات السبابة ، فيعلم المجرّب ان المسألة قد حلت ولا حاجة الى اعلان النتيجة فيكتفي بإشارة كل منهم انه حلها وكلمهم ممن يعتمد عليه ويوثق به

فاذا انقضت تجربة الصباح ، شعر كل من هؤلاء انه متعب معي ، معتقداً ان التحطيط او كنس الشوارع أهون على الجسم من بضع ساعات من النشاط العقلي

ولكن مع ذلك ، لم تدل الاجهزة على ان أجسام هؤلاء القوم انفقت من الطاقة في حالة النشاط العقلي أكثر مما كانت تنفقه في حالة الراحة العقلية الاً يسيراً جداً . اذ لم تبلغ الزيادة في استهلاك الاوكسجين الاً ثلاثة أو أربعة في المائة . يقابل هذا انه في اثناء الاشتغال بالمسألة الحسائية ، زاد نشاط القلب والرئتين ، والاستاذ بنديكت يعتقد ان هذه الزيادة تفسر الزيادة في

المستهلك من الاوكسجين . فانه يقول ، ان تجربته لم تدل على ان النشاط العقلي يقتضي اتفاق طاقة جسمانية ، كما تقتضيه كل حركة من حركات الجسم ، حتى اختلاج الحفن حتى اذا سلمنا بان هذه الزيادة في ما استهلك من الاوكسجين نشأت عن النشاط العقلي ، كانت زيادة لا تذكر لانها تمثل أربع وحدات حرارية في الساعة ، وهو مقدار من الطاقة يستخرجه الجسم من اكل فلفه حبة من الفول السوداني

ولكن اذا حسبنا حساباً لعدد الخلايا التي يشغلها الشغل العقلي الخاص بحل هذه المسألة الحسابية بالقياس الى خلايا الجسم ، كانت الطاقة المستخرجة من فلفه حبة من الفول السوداني شيئاً كبيراً . فقد كتب الفسيولوجي النمساوي الدكتور ارنولد دوريج Durig الى الاساذ بنديكت ، ان عدد الخلايا الدماغية التي شغلها النشاط العقلي في حل هذه المسألة الحسابية لا يزيد وزنها على سبعة جرامات وهو جزء من عشرة آلاف جزء من وزن جسم الانسان اذ حسبنا ان وزنه يبلغ سبعين كيلوغراماً . فاذا كان هذا الجزء الصغير من جسم الانسان يسبب زيادة قدرها ٣-٤ في المائة في نشاطه الحيوي ، فيجب ان يكون نشاط خلايا الدماغ أشد وأعظم من نشاط سائر خلايا الجسم بل يصح ان نقول ونحن واثقين ان النشاط العقلي يقتضي تمثيلاً جسمانياً لان كل ما يمنع وصول مقادير كافية من الدم الى الدماغ وما يحمله من أوكسجين وسكر وغيرها ، يظهر أثره في اضطراب العقل . وقد جرب السرج جوزف باركروفت الانكليزي تجربة بنفسه تدور حول هذا الموضوع فأقام في حجرة محكمة الاقفال عشرين دقيقة بعد ان جعل مقدار ثاني أكسيد الكربون في هوائها اكثر من ٧ في المائة قليلاً اي انه كان في خلال التجربة يستنشق هوائه فيه من هذا الغاز اكثر من المقدار السوي ، فلما لبث حتى ظهرت عليه أعراض الاعياء العقلي اذ أصبح عاجزاً عن حصر فكره او الاصغاء الى حديث ما بغير جهد . واذا تناول صحيفة لمطالعتها عجز عن قراءة أكثر من أربعة أسطر او خمسة ، من خبر تافه ، ثم ينتقل الى غيره من دون ان يتم مطالعة خبر ما . وقد لازمه هذا العجز يومين بعد التجربة . وهو على حد قوله ، ضعف يصيب قوى الدماغ العليا . وجرب تجربة أخرى جعل فيها مقدار ثاني أكسيد الكربون في الهواء اكثر من عشرة في المائة ، ولم يلبث في الحجرة أكثر من خمس دقائق وخرج وهو يكاد لا يعي . والنتيجة التي خلص اليها باركروفت ان الافكار والقدرة على حل المعادلات الرياضية العالية او تقدير الموسيقى الممتازة جميعها مرتبطة بنموذج طبيعي كيميائي يتشوش اذا كان في محيط تنابته اضطرابات عنيفة

هذا النموذج الطبيعي الكيميائي يتصف بخواص كهربائية . ففي الدماغ مناطق معرضة تعرضاً مستمراً لتغير مستواها الكهربائي . فاذا اختلف المستوى الكهربائي بين مناطق مختلفة من الدماغ

افضى ذلك الى تيارات كهربائية. وقد تمكن العلماء من عهد قريب ان يتبينوا طبيعة هذه التيارات فأسفر ما تبينوه عن ان طاقة الدماغ دائماً التغير

اكتشفت ظاهرة النشاط الكهربائي في أدمغة الحيوانات سنة ١٨٧٥ ولكن دراستها دراسة منتظمة ترتد الى سنة ١٩٢٩. ففي تلك السنة أخذ العالم الألماني هانس برجر — وهو من المتوفرين على دراسة الاعصاب في جامعة يينا — سلكين ووضعهما على صدغي رجل ووصلهما بأنبوب مفرغ يقوي التيارات الكهربائية الضعيفة ويضخمها، فوجد ان التيارات المنطلقة من الجمجمة بعد تضخيمها يمكن ان تدون بريشة على لوحة مناسبة، فتبدو لها حركة موجية منتظمة معقدة، فيها أمواج متشابهة ارتفاعاً وسعة تتوالى عشرأ في كل ثانية فدعاها برجر «أمواج ألفا» وثمة أمواج أسرع توالياً وأقل اتساقاً دعاها «أمواج بيتا» ووجد غيره نبضات أخرى، غير منتظمة الطول والاتساق

الموضوع لا يزال جديداً، واذا كان هناك نموذج منتظم لحركة الدماغ الكهربائية، فهذا النموذج معقد جداً. ولكن اكتشاف جهاز يمكن الباحثين من قياس الاستجابة لحركة الدماغ في حالي الراحة والنشاط شجع على البحث، ولذلك قلما نفتح مجلة علمية الا نرى فيها نبأ خطوة جديدة او تحقيق جديد في هذا الموضوع من أدريان في جامعة كمبريدج او من فيشر وكورنومر في جامعة برلين، او من جامعات برون وهارفرد في اميركا. وهذا على سبيل التمثيل فقط والراجع عند الباحثين ان هذه التيارات التي تضخم وتدون صورة أمواجها، تنشأ في قشرة الدماغ، وهي المادة السنجابية، التي تتركز فيها اعمال التفكير المبدع. هذه المادة السنجابية قوامها اجسام الخلايا العصبية، وقد استغرق نشؤها من الاجهزة العصبية البسيطة في الحيوانات الدنيئة عشرين مليوناً من السنين على رأي جدرسن هريك الاستاذ بجامعة شيكاغو. ان مراتب تطورها معروفة بوجه عام. ولكن كيف تم فيها عجائب التفكير المبدع، في العلوم والفلسفة وغيرها، لا يزال محجباً بستائر الجهل. الا ان الاجهزة الجديدة — ولا سيما جهاز برجر — قد تقضي الى تقدم خطير في فسيولوجية الجهاز العصبي، على نحو ما تم من التقدم في دراسة التشريح بعد اكتشاف المجهر (الميكروسكوب)

على ان بين هذا الجهاز (واسمه العلمي «الكترولونسيغالوجراف» اي بصورة الدماغ الكهربائية) يختلف اختلافاً اساسياً عن المجهر. فالمجهر لا يمكن الباحث الا من دراسة مجموعة صغيرة من الخلايا منتزعة من النسيج ومصبوغة بصنع قد يطفى شرارة الحياة فيها، ولكن بصورة الدماغ الكهربائية تمكن الباحث من تناول العضو او الكائن الحي جملة واحدة من دون ان تعرقل عمله المألوف واساليب حياته السوية. بل لا يلزم في استعمالها ثقب الجلد. وقد اصبحت الاجهزة

الحديثة دقيقة الاحساس ، بحيث اذا وضعت قطبيها الكهربائيين على منطقتين مختلفتين من فروة الرأس استطعت ان تبين تياراً كهربائياً جارياً في الدماغ من منطقة مستواها الكهربائي عالٍ الى اخرى مستواها الكهربائي منخفض . والتجربة تتم من دون ازعاج من تجرب فيه . بل انه اذا ازعج ظهرت آثار ازعاجه في صورة التيار الكهربائي الذي يتبينه هذا الجهاز ويصوره

وقد صنعت حجرة خاصة في احد معامل جامعة هارفرد لذلك . وضع فيها مقعد وثير ، يستلقي عليه المرء ، ولا تجرب التجربة فيه الا بعد ان يستلقي مرة او مرتين على هذا المقعد ويتعرف ما حواله حتى اذا جربت التجربة كان مستريح الجسم والبال من كل ناحية . وهذا ضروري ، لان صورة التيار الكهربائي الصادر من دماغه والملتقط من فروته ، يختلف في النوم عنه في اليقظة ، وفي الاضطراب او انشغال البال عنه في الراحة . فاذا استلقي المرء على هذا المقعد وضع القطبان الكهربائيان ملاسين لفروته ، ويمتد منهما سلكان الى سلسلة من مضخات التيار ، ثم يحرك التيار المضخم ابرة في جهاز خاص ترسم على شريط مناسب ، امواجاً

في بدء التجربة يؤمر بأن يستلقي ويغض عينيه وان لا يشغل عقله بشيء معين فترسم الريشة على الشريط ، امواجاً من انتظام معين ، ثم يؤمر بان يضرب رقم ١٨ في ١٢ مثلاً فلا يكاد يشرع في ذلك حتى يتغير انتظام الامواج ، هنا الامواج اقصر واسرع توالياً ، فكان حشد الدماغ لقدرته الواعية عند التفكير في معضلة معروضة عليه أثرت في التيار الصادر منه وقد دامت هذه الحالة بضع ثوان ، ثم اخذت صورة الامواج تعود الى ما كانت عليه في حالة الراحة . وبعد قليل اضطربت الابة ثانية فقصرت الامواج واسرع توالها كأن الدماغ عاد الى نشاطه . والواقع انه عاد الى نشاطه . ذلك ان الرجل الذي اجريت عليه هذه التجربة سئل في ذلك فقال انه بعد ان ضرب العددين ، استراح الى امام العمل ، ثم عاد فاضرب اذ خطر له ان الجواب قد يكون خاطئاً فأعاد الكرة على عملية الضرب

وقد استعمل هذا الاسلوب للبحث في حالات مختلفة من حالات الوعي ، والنتائج العامة التي خلص اليها الباحثون ، ان انتظام « امواج الفا » ينقطع عندما يشتغل الدماغ بحل مسألة معينة وعندما يؤمر المرء بان يتنبه وعند ما يفتح عينيه او تكون الحجرة مضاءة

وقد جربت تجارب اخرى ظهر منها ان « امواج الفا » تكون اشد وضوحاً عند ما يكون احد القطبين على الفذال امام المركز الخاص من الدماغ الذي يتأثر برسائل عصب البصر ، فكان « امواج الفا » هذه متصلة اتصالاً لم يفهم بعد بالبصر

١ للبحث تنمة نتناول فيها ما يتعلق بظواهرات الدماغ الكهربائية . خلال النوم وتأثير الغدد العن ومفرزاتها

أنصبر منه أجل الرقي غباراً ؟

خطرة شعرية فلسفية للمرحوم

الركنور يعقوب صروف

ما الحياة ؟ ان كان الاحياء قبلما ولدوا والى اين يمضون بعد ما يموتون ؟ وما الحكمة في هذا الخلق ؟ لماذا يولد مائة طفل فلا يبلغ العشرين ثلاثون منهم ولا يبلغ الخمسين عشرة ولماذا تبيض السمكة مليون بيضة فلا يبلغ الا اثنان من اولادها اشدها وتثمر الشجرة الوفاً من الاثمار فلما ينفق لاحدى بزورها ان تثبت وتختلف نسلاً . وعلى م تظهر الازهار والرياحين في الغابات والادغال حيث لا تراها عين انسان ولا يتمتع بها ذوق حيوان

يحبيك العالم الطبيعي بسلسلة من العلل والمعلولات مفادها ان كل حلقة من حلقات الوجود متصلة بغيرها وان الغرض منها ترقية الاحياء بنوع عام . يقول لك ان قوى الطبيعة وميكروباتها تجتمع على عناصر الجماد فتحللها وتركبها وتجعلها غذاء للنبات فينمو بها ويصير غذاء للحيوان . وكلما سقطت ورقة او نبتت شجرة اقبلت عليها الميكروبات فحللتها وأعادتھا الى التراب غذاء لما خلفها . وكلما مات حيوان انحل جسمه وعاد الى الارض والهواء غذاء للنبات وان لم يمت أكله غيره من الحيوان غذاء له . وانواع النبات والحيوان ترتقي جيلاً بعد جيل وقرناً بعد آخر بحسب النواميس الطبيعية القاضية ببقاء الاصلح للبقاء . والانسان غير مستثنى من ذلك بل تجري عليه نواميس الطبيعة كما تجري على غيره . يولد معرّضاً للآفات الطبيعية فتتغلب عليه أو يتغلب عليها ويموت من غير نسل او يتخلف نسلاً وتتوالى الاعقاب والاحقاب والارتقاء مستمر وما الفرد سوى دقيقة في جسم هذا الوجود يقوم به جزء من أجزاء هذا الرقي . هذه خلاصة أقوال العلماء الطبيعيين .

فهل كشفت الغطاء عن سر الوجود وازاحة السار عن معنى الحياة ؟

وقف كاتب هذه السطور عند هذا الحد وأطلق للخيال العنان فلم ير أمامه الا ظلاماً

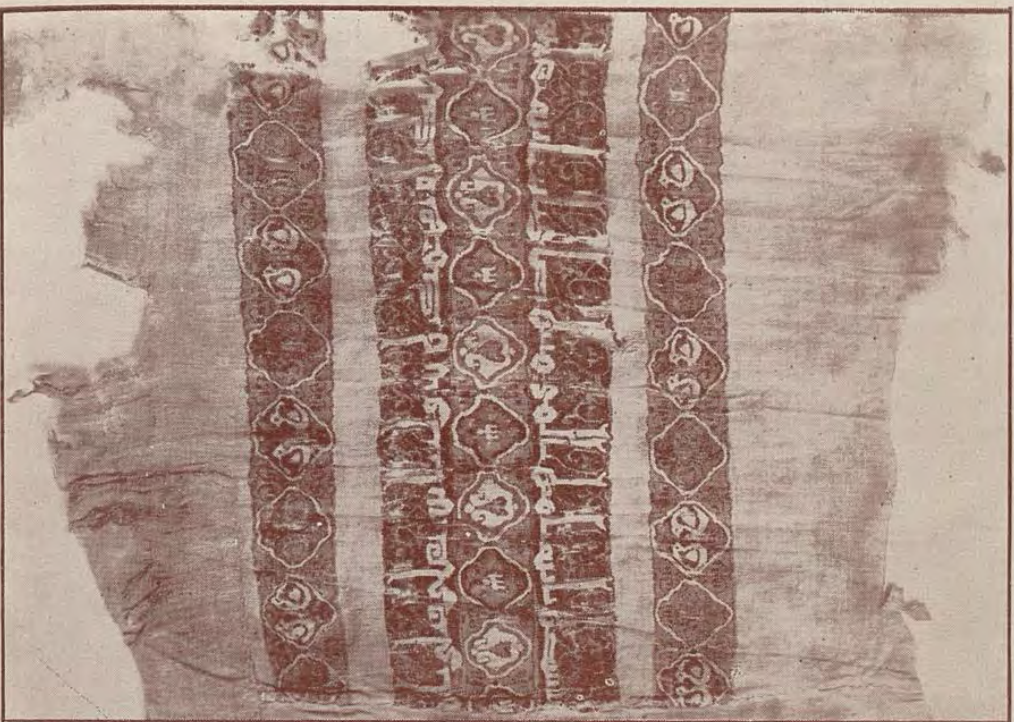
دامساً فارتد على نفسه وهو يقول

عفت اليراع سامة وفرارا	من بادرات تلجم الأفكار
وخرجت في ليل كان نجومه	احقاق فصفور أصابت نارا
جبت الجزيرة لا أرى لي مؤنساً	والنيل حولي لا يزال أوارا
حتى بدا نور الصباح فشتمته	نور الهدى فأتيت محضارا
وطلبت عن هذا الوجود وسره	كشفاً يزيح عن الوجود ستارا
فأجاني سر الوجود صحيفة	طويت فقلت انشر امننت عثارا

فقتشت عن سر الوجود وقصده
طالعت ما كتبوا فما من مقنع
اسماك هذا النيل لا تحصى وفي
عاشت وماتت بين حب او قلبي
حرباً وسلاماً واعتداء واحتكا
وطوائف الاحياء يعي وصفها
من مثل مكروب حقير لا يرى
والنيل قل ما شئت في تعظيمه
لو الف نيل جمعت ما ماثلت
ببحر خضم والحلائق ملئه
كانت كذلك في العصور الغابرات المبقيات على الصفا آثارا
منها تولدت الصخور وطالما
والطير في انواعها وضروبها
اسراها تغدو وتقطع رحلاً
ونبات هذي الارض من أرز الى
فعلى م هذا الخلق ان كان الفناء مصيره والناس فيه توارى ؟

فأجاني ركز خفي قائلاً
هذي الحلائق كلهن دقائق
والفرد فيها ليس من مجموعها
ورقي هذا السكون يستدعي — اندثار دقائق ونفاية وبوارا
هذي تعاليم الفلاسفة الاولى
جعلوا دجى الليل البهيم نهارا

أتموت في سبل الرقي ضحية ؟
نور الحلائق مصدر النور الذي
ان لم تر عقل ابن آدم لم يجد
فاهد ايا نور البصائر معشراً
انضوا عوامل عقلم فتعلمت
ظلمهم ونور العقل قصر عن هدى
وانصير من اجل الرقي غبارا ؟
بهدي السكواك في السماء مدارا
نور الهدى بل زاد عنك نفارا
تخذوا الحقيقة خلة وشعارا
واستوقفوا المبغى فزاد فرارا
وبغير نورك لا نشيم منارا



قطعة من السكمان باسم الخليفة الفاطمي المنتصر بالله ٤٢٧-٤٨٧ هـ
(١٠٣٥-١٠٩٠ م) من خانات مدينة الأسكندر - بحيرة طاب - جزيرة رودس



قطعة من نسيج غليظ أبيض عاليها بالأسود رسم ثنائي من عهد
أحمد بن طولون (١٢٥٥-١٢٨٨ م)

المنسوجات الأثرية

في مصر القديمة

ملخص بحث بالفرنسية للاستاذ جاستون فييت

مدير دار الآثار العربية بالقاهرة

نقله محمد عبد العزيز خريج معهد الآثار الإسلامية بالجامعة المصرية

لم يحاول العرب ، منذ ان استقر بهم المقام في مصر ، تغيير مجرى الحياة في البلاد الا قليلاً ولم يكن ما احدثوه فيها من التغيير الا وليد الظروف التي احاطت بهم ، بل ولم يأت هذا التغيير ، دفعة واحدة وانما كان تدريجياً طبعاً لما اقتضته طبيعة الاشياء من ضرورة اجراء بعض التغييرات التي كان لا بد لهم من ادخالها

ولقد رأوا بشاغب نظرهم ، وحسن تقديرهم الامور انه اجدى عليهم ان يثبتوا اركان النظم البيزنطية التي كانت سائدة في جميع نواحي الحياة تقريباً وقت الفتح من ان يكذبوا اذهانهم في استنباط نظام جديد ولهذا فالفتح العربي لمصر لم يقطع في الواقع ، سلسلة التقدم في حياتها الاقتصادية وانهضتها الصناعية ، بل لقد احتفظت مصر تحت ظل العرب بملك المكانة التي احرزتها من وراء موقعها الجغرافي الفذ ومما كان لها من منتجات خاصة اكسبتها شهرة عالمية وكفلت لها مقاماً ممتازاً بين الامم القديمة وقديماً ازدهرت صناعة النسيج في مصر ، وعرف العرب المنسوجات المصرية واعجبوا بها ، وكانت لها في آدابهم شهرة واسعة ، بل واتخذوها رمزاً لدقة الصنع ونقاء البياض

ويحدثنا المقرئ ، فيما يحدثنا به ، عن تلك الهدية الثمينة التي بعث بها المقوقس الى النبي صلى الله عليه وسلم فاذا من بينها قميص منسوج في مصر وقد استعمل فيما بعد في تكفين جثته الطاهرة وعلى الرغم من ان صناعة النسيج من أهم الصناعات التي يتجلى فيها الترف بكل معناه ، فلم يحاول الاسلام قط العمل على الخط من شأنها او الرخوع بها الى حالتها الاولى من البداءة ، بل ان التقاليد الاسلامية نفسها كانت في الواقع اكبر معين على بلوغ تلك الصناعة تحت ظل المسلمين درجة من الكمال فلما تجدها ممثلة في احية اخرى من نواحي الفن الاسلامي . اذ كاد الخلفاء جميعاً ان يضمنوا لمصر احتكار نسيج كسوة الكعبة الشريفة مما عاون على تطور هذه الصناعة ، وكان من شأنه ان يكفل لها اضطراد التقدم والرقي

ولقد استمر صناع النسيج المصريون في العصر الاسلامي على ما كانوا عليه من قبل من استلهمهم المندنيات القديمة في هذا الفن شأنهم . في ذلك كشأنهم في جميع الفنون الاخرى . ذلك لأن العرب لم تكن لهم تقاليد فنية في هذا المجال ، وكان كل ما عرفوه في فارس والشام من تلك التقاليد معروفاً فعلاً لدى المصريين ، اذ كان الفن القبطي — والاسلام لم يغير فيه من شيء — مشرباً بالكثير من تلك التأثيرات الفنية ولا سيما الساسانية منها

على ان مصر وان كانت قد استعارت من فنون الامم الاخرى الشيء الكثير ، فان هذا ما منعها قط من ان تهضم ما استعارته ، وتمثله جيداً ، ثم تخرجه لنا فنساً مصرياً خالصاً يهرك بروايتها ويستحوذ عليك بجماله ويرغمك على ان تقر له بمصريته . فللاقمشة الأثرية المنسوجة في مصر مميزات عامة ولها طابع خاص بها ناطق باتمائها الى اصل واحد . حتى انه ليكاد يصبح من اليسير علينا بعد خبرة قصيرة ان نتعرف عليها بسهولة وان لا نخلط بينها وبين الاقمشة الفارسية او اليمنية او الاندلسية ولكن اذا التبس علينا الامر ، وعجزنا عن التمييز فتمهلاً ملجأً أمين لنا يهديننا سواء السبيل هو تلك الكتابات التقليدية ذات الصبغ التي لا تكاد تختلف في قطعة عن الاخرى ، والتي تفشي لنا سر اصلها ، وتهديننا الى مكان صنعها ، ثم استقصاء تلك الاشكال الزخرفية المختلفة التي كانت شائعة في عصر دون سواء . فالكتابة من ناحية والزخارف من ناحية اخرى هما في الواقع الهاديان لنا في دراسة هذه الاقمشة التاريخية

ولعل اول ما يصادفنا من الصعوبات في بحثنا هذا هو التعرف بسهولة على الاقمشة التي ترجع في تاريخها الى القرنين الاولين من الهجرة ، وترتيبها ترتيباً علمياً صحيحاً . وليس هناك من شك في ان ذلك راجع الى ما يميز به الشرق منذ القدم من حبه للترف والابهة ، والى ما عرف عن الاسلام من التسامح في كل ما يتصل بمباهج الحياة ومتعها ما دامت لا تتعارض مع احكام الدين في شيء ، فهو عند ما اشرق بنوره على الوجود ، لم يحاول اضعاف حب الترف في النفوس او القضاء عليه بل لقد احتضن الفنون وشجعها وبعث فيها من لديه روحاً جديدة تجلت لنا فيما بعد في أبهى الصور وأجملها . على اننا يجب ان لا ننسى أن للدين الجديد — مهما بلغ من تسامحه — تقاليده الخاصة ، ولعنتقيه اذواقهم ، وان التطور من الذوق القديم الى الذوق الجديد امرٌ يفترق الى زمن ليس بالقصير ، ومن هنا نشأت صعوبة التمييز بين الاقمشة القبطية التي نسجت قبل الفتح الاسلامي وبين تلك التي اخرجتها لنا المصانع في القرنين الاولين بعد الفتح وكثيراً ما تقع بين ايدينا قطع ليس لها في الواقع قيمة فنية حقيقية وانما يكاد ينحصر شأنها فيما تحتويه من كتابة ليس من اليسير قراءتها واليها تتجه جميع مجهوداتنا

حقاً ان هذه الكتابات لتتجمع بين النقيضين : لها مساوئ لا تنكر ، ولها مزايا لا يستهان بها .

فظالما استعصت علينا وقاومت كل محاولة لقراءتها بسرعة ، ودفعتنا الى تلمس المعنى الذي تخفيه وراء حروفها المعقدة تلمساً ، ولكنها بعد ان تستنزف من مجهودنا قدراً ليس بالقليل ، تأخذها الشفقة علينا ، فتكشف لنا عن مكنون سرها ، وتميط اللثام عن احاجيها ، فاذا هي تقدم لنا من المعلومات القيمة ما يثلج صدورنا ، وينسينا ما لاقيناه في سبيل قراءتها من صعب . قد تكشف لنا عن اسم خليفة او وزير او أمير او مصنع او تاريخ او عن هذه مجتمعة . ولا اخالك تنكر ما لهذه الامور الجوهرية من القيمة التاريخية العظيمة ، او تستصغر شأن تلك السجلات الصادقة التي تطلعا على الكثير من اسرار صناعة النسيج في مصر ، في العصور الوسطى ، والتي تحقق لنا الى حد كبير ، ما نقله الينا مؤرخو المسلمين من صناعة النسيج ومراكرها ، وعناية الامراء بها

ولقد كان لتلك الكتابات في بادىء الامر معنى اقتصادي ، اذ كان الغرض الاول منها ضبط ما تخرجه المصانع المختلفة ، وتحقيق رقابة الحكومة على تلك الصناعة ، ثم صار لها فيما بعد معنى سياسي ، اذ اصبحت كتابة الاسم على الاقمشة ، من شعار الخلافة كذكر الاسم في الخطبة وكتابته على السكة . على ان هذه الكتابات ايضاً كان مبناها ومغزاها ، قد تطورت في شكلها بمضي الزمن تطوراً مدهشاً ، ففقدت معانيها الاقتصادية ، والسياسية ، وصارت ترسم بدافع التجميل ، أي أنها اصبحت عاملاً هاماً من عوامل الجمال الفني فحسب ، تعامل معاملة الزخارف المختلفة ، شأنها في ذلك شأن الزخارف الحيوانية الساسانية ، التي كانت رمز في اول امرها الى معاني خاصة ، ثم فقدت هذه المعاني عندما صار الصنّاع من الفرس يشتغلون للامراء المسلمين ، وأخذوا يختارون من بين تلك الزخارف الحيوانية ، ما نال رضاء هؤلاء الامراء ، وصاروا يكررونها دون نظر الى ما كانت تؤديه من معنى سابق . وشأن الكتابة الكوفية ، عندما اعتبرها فانوا العرب عنصراً من عناصر الزخرفة ، وأخذوا يستعملونها دون ادراك لمعناها

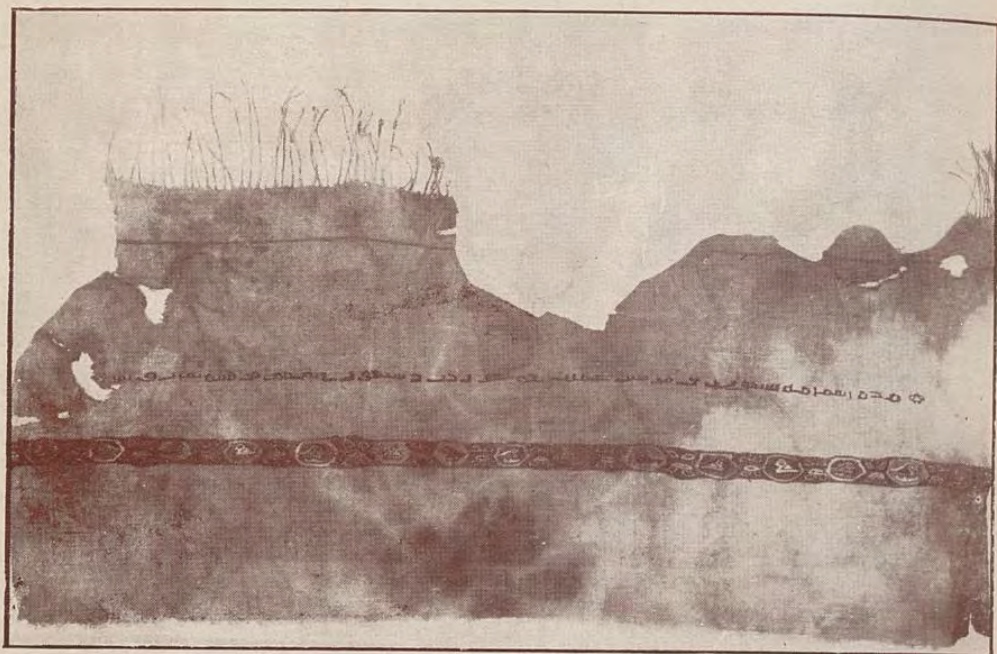
ولقد عظم شأنها من هذه الناحية شيئاً فشيئاً ، حتى وصلت الى درجة عظيمة من الاتقان ، وصارت تجلي على الناظر صوراً من الفخامة والبهاء ما كانت لها من قبل ، مما يدل دلالة واضحة على مدى تلك القدرة الفنية العظيمة ، التي بلغها العرب في هذا المجال . فكمن قطع قد سحرنا ببجمال كتابتها ، وبهرتنا بتناسق حروفها ، حتى انه ليخيل الينا ، ونحن نحيل النظر فيها ، كأنما حروفها تسير ، محتالة فخورة عليها سماء الوقار والجلال ، في موكب حافل يبعث الروعة في النفوس ، وكأنما سيقانها ، وأقواسها ، قد رسمتها يد فنان ماهر أطلقت له الحرية ليتسخر ويتفنن وما كان المعاصرون أنفسهم أقل تأثراً ببجالتها منا نحن الآن ، فالقواطم — ويعتبر عهدهم بحق العصر الذهبي للفن الاسلامي في مصر — قد أعجبوا بهذه الكتابات أيما إعجاب ، وقد كانت لها في أعينهم مكانة سامية لا تنكر ، الأمر الذي جعلهم ينسجونها على أقمشتهم ، على نفس

النسق الذي كان متبعاً في عهد العباسيين من قبلهم . ولقد كانت تنسج الكتابات التاريخية في أول الأمر بحروف صغيرة جداً ، بحريز أحمر أو أزرق أو أسود ، حتى إذا جاء الربع الثالث من القرن التاسع الميلادي ، كبر حجم الحروف قليلاً ، وازدادت سيقانها طولاً ، وبدأت الكتابة أشد وضوحاً عما كانت عليه قبلاً . واستمرت الكتابة تكبر حتى بدت في الربع الأول من القرن العاشر في أكبر حجم لها ، وصار لها مظهر نفخ عظيم ، يكاد يخرجها عن دائرة الكتابة ليدخلها في دائرة الزخرفة . وامتازت بميزة جديدة هي وجود سطرين من الكتابة أحدهما عكس الآخر

وتعتبر دار الآثار العربية في الوقت الحاضر أغنى متاحف العالم في المنسوجات ، ومجموعاتها القيمة تكون سلسلة تاريخية متماسكة الحلقات تمكن الباحث من دراسة الأقمشة الإسلامية ، وتطلعهُ على مدى التطور فيها ، وتحدد له التوجيه الفني للذوق الإسلامي في تلك الصناعة ، ولعل أول ما يستوقف النظر من هذه المجموعة ، هو تلك القطعة التي تعتبر أقدم المنسوجات الإسلامية المؤرخة جميعاً ، اذ منسوج عليها بالخط الكوفي البسيط بحريز احمر : « هذه الهامة لسموئل ابن موسى عملت في شهر رجب من الشهور المحمدية من سنة ثمان وثمانين » (٧٠٧ م) وتحت هذه الكتابة شريط من زخارف ، به جامات داخلها طيور تقليدية

فاذا تجاوز الدولة الأموية الى العصر الأول من الدولة العباسية ، وجد تلك القطعة المنسوجة بفسطاط مصر برسم الخليفة العباسي الأمين بن هارون الرشيد ، الذي تولى الخلافة بين سنة ١٩٣ — ١٩٨ هـ (٨٠٩ — ٨١٣ م) والتي جمعت بين الزخرفة الهندسية الدقيقة ، ذات اللون الرمادي ، الناشئة عن تقاطع خطوط مستقيمة ، تختلف عنها جامات مرتبة بانسجام غاية في الدقة والمهارة ، وبين الكتابة التاريخية الهامة التي نصها : « بسم الله بركة من الله لعبد الله الأمين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بصنعه في طراز العامة بمصر على يد الفضل ابن الربيع مولى أمير المؤمنين » . فاذا انتهى بعد ذلك الى منتصف القرن الثالث ، شاهد ميلاد فن جديد ، يخالف كل الخالفة للفنون التي تقدمت عليه ، ذلك هو الفن الطولوني ، الذي هو في الحقيقة فن عراقي الاصل ، زرعه أحمد بن طولون في هذه البلاد عندما ولي أمرها

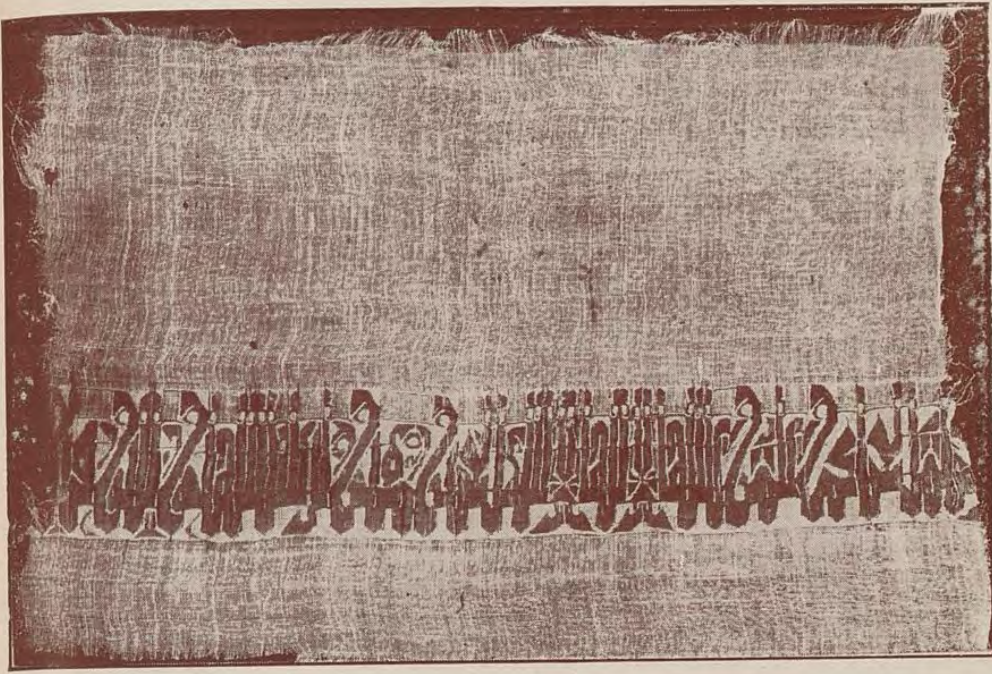
ولئن كانت الزخرفة تعين حقاً على تأريخ الآثار الفنية ، وارجاعها الى عصر من العصور ، فلما ذلك يتجلى لك بوضوح في الأقمشة الطولونية ، اذ الكثير من تلك الأقمشة يحوي زخارف تشبه تمام الشبه الزخارف التي نشاهدها على الآثار الجصية والخشبية للعصر الطولوني وأنه ليدهشك حقاً ، ان ترى العناصر الزخرفية التي على الجص أو الخشب من جدائل أو زخارف حلزونية او غيرها ، ممثلة على الأقمشة أدق تمثيل وأحسنه ، بل ان مهارة النساج في



قطعة نسيج ابيض قائم منسوج عليها بالخط الكوفي البسيط بحريز احر (هذه العمامة لسمويل بن موسى عملت في شهر رجب من الشهور الحمدية من سنة ثمانين وثمانين « ٧٠٧ م



عباءة تتويج صنعت في صقلية في سنة ٥٢٨ هـ (١١٢٣ م) للملك روجر الثاني وترى عليها في الوسط رسم نخلة بكتنفها من كل جانب صورة أسد يصرع جلا وينهباً للفتك به وهي مطرزة بخيوط ذهبية ومحلاة بالآلي



قطعة من كتان ابيض عليها «الامام الحاكم بامر الله لا اله الا الله الخير معين ان شاء الله والتوفيق بالله»



قطعة من الكتان ذات الوان كثيرة متوافقة يمتزج اللون الازرق والاسمر الزاهيان بالاصفر الصافي والاسود والاخضر الناضر وفي الوسط جامات بيضاوية الشكل ، بها صور ارباب بيض على ارضية حمراء
(القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي)



استعمال الألوان المتعددة ، يجعل تلك الزخارف تبدو لك كأنها مخزومة أو محفورة !
والواقع ان تلك الاقشمة الطولونية ، او بعبارة أخرى جميع آثار الفن الطولوني ، لتحديثك
بنفسها عما كان عليه الفن في ذلك الوقت من القوة والفضامة ، وتدل على ان فنانى هذا العصر
لم يتحروا الدقة والاناقة في آثارهم بقدر ما تحروا القوة في التعبير
واذا كان العصر الطولوني قد شاهد المحاولة الاولى لاجتراح فن اسلامي خالص في البلاد ،
فان العصر الفاطمي قد امتاز عليه بظهور ذلك الفن فعلاً في ايامه ، ووضوح شخصيته ، وليس
هناك من شك في ان الفن الفاطمي قد تفرد بأشكال زخرفية تبدو كأنها قد اخترعت لأول مرة
أو على الأقل قد رتبت ترتيباً جديداً ، أو نسقت تنسيقاً لم يسبقها اليه فن من الفنون السابقة
عليه ، والواقع ان هذا العصر هو العصر الذي ارتفع بالفن المصري الاسلامي الى الاوج ،
وبلغت فيه البلاد من سمو الذوق ، ورفي الفن ، مبلغاً يعد بحق موضع الفخر
والاقشمة الفاطمية بزخارفها المدهشة ، والوانها الساحرة ، تدلنا دلالة واضحة على مدى
ما بلغه فنانون العصر الفاطمي من الخبرة الواسعة بالاوزاع الزخرفية المختلفة ، والمقدرة الفائقة على
تكوين الألوان ، وتركيبها ، ومزجها ، حتى انك لا تدري — وانت تتأمل هذه الاقشمة —
أوضاع السحر فيها جمال الزخرفة البالغ حد الاتقان أم الائتلاف والتناسق المدهش بين الألوان ؟
ولقد يخيل للانسان ، وهو يحيل النظر بين تلك القطع الفنية الرائعة ، كأنما هو يقرأ قصيدة
من روائع الشعر العربي ، يحلو عليه فيها الشاعر صوراً من الحياة شتى ، بعضها آخذ برقاب بعض ،
جاشت بها نفس الشاعر ، وبعثتها قريحته الواقدة . هذه الصور التي تجعلك تهيم في بيداء الخيال ،
وتذوق لذة روحية محببة الى النفس ، والتي لا تكاد تتبين فيها اثر العلاقة بينها وبين موضوع
القصيدة ، لا تلبث ان تراها تتداعى ، واحدة بعد اخرى ، عندما يقطع الشاعر هذه السلسلة من
المنابر الجميلة ، ليدخل بك على موضوعه . كذلك الحال في تلك الاقشمة ذات الزخارف الرائعة
فهي تجذبك لأول وهلة بجماها ، وتسحرك بالوانها ، فاذا حللتها بدت لك أقل روعة من ذي
قبل ، وأكثر تقليداً مما تظن . على ان ذلك كله لا يطن في جماها ، ولا ينقص من قيمتها كأثر
فني خالد ، إذ هي قوية التأثير فينا ، لا قبل لنا بدفع ما تبعه في نفوسنا من تلك اللذة العجيبة
ولقد بلغ نساحو هذا العصر في رسم الحيوانات درجة من الاتقان لم يبلغها الحفارون على
الحشب او البرنز ولم يصل اليها مزخرفو الخزف . اذ كانت تنسج تلك الحيوانات بخفة ورشاقة
غاية في الدهشة ، وكما فقدت الحروف الهجائية شخصيتها بتوالي الزمن ، واصبحت خطأ متعرجاً
لا يمت بأي صلة الى الاصل الذي اشتقت منه ، كذلك هذه الحيوانات ، أخذت تفقد منذ منتصف
القرن العاشر صورتها الاصلية ، وأصبحت زخرفة لا هيئة لها ولا اسلوب . والاقشمة الفاطمية ،

على الرغم من اختلاف مظهرها العام، مميزات خاصة، تجعلنا لا نخطئ في التعرف عليها
فالكتابات التي عليها، كانت في بادئ الامر بحروف كوفية ذات سيقان طويلة، ثم اصبحنا
نرى الجمع بين هذه الحروف والحروف الصغيرة. ثم صرنا نرى شطرين من الكتابة، احدها
عكس الآخر، او كتابة صغيرة، تزينا فروع نباتية. ومن ثم فقد وجد للكوفي المشجر
ميدان جديد، يبدي فيه جماله ورونقه، وهو هنا يختلف عن الكوفي المشجر الذي رآه على الابنية
اما الزخارف، فقد كانت تتحول من حسن الى احسن، حتى بلغت من الاتقان درجة
لاتبارى. وقد كانت تبدو في اشربة موازية للكتابات، بها معينات او جامات من اشكال مختلفة
داخلها حيوان واحد، او حيوانان متقابلان، او مول احدهما ظهره للآخر. ويلاحظ انه
منذ القرن العاشر، ازدادت هذه الاشربة اتساعاً، وكثر عددها عن ذي قبل

والواقع ان الاقشة الفاطمية قد اشتهرت شهرة عظيمة، وذاع صيتها، وهي لا رب
تستحق هذه الشهرة عن جدارة واستحقاق، فالنساج المصريون، قد تفتنوا في نسجها وزخرفتها
مما يترك الانسان في حيرة من أمره لا يدري اي الاشياء أحق بالثناء والاعجاب، أهو نسجها
الدقيق، ومهارة النساج في ذلك؟ أم عبقرية الرسام فيما ابدعه، أم هذه الاشياء كلها مجتمعة؟
ولعل أجمل الاقشة الفاطمية وأهمها هي ما ترجع في تاريخها الى القرن الحادي عشر، لان
تلك الفترة، هي الفترة التي برهنت مصر فيها فعلاً، على ان فنانها كانوا عباقرة حقاً، بما اتجهوه
من تلك القطع الرائعة، ذات السجر الحلال. اما في نهاية هذا القرن، في الفترة التي وقعت فيها
مصر تحت سيطرة الوزير الارمني بدر الجمالي وابنه الافضل شاهنشاه، فقد بدأ اتجاه جديد
في الزخرفة، بلغ اقصى ارتقائه في النصف الاول من القرن الثاني عشر، ذلك انه حل محل
الجامات التي كانت سائدة من قبل، شبكة من الاشربة، متداخلة بعضها في بعض، تبدو كأنها
مرصعة بحشوات صغيرة، على هيئة معينات. ومن بواعث الدهش في هذه الزخرفة أنها تلوح كأنها
بارزة وما هي ببارزة، إنما هو اللعب بالالوان، والمقدرة الفائقة على مزجها، وتوزيع الضوء بينها
تسرى كيف قدر لهذا الفن الذي اكتمل نموه، وبلغ اوجبه، أن يضمحل؟ وهل ذلك
راجع الى انه أخذ يرقى في سلم التطور والرقى حتى غرق في بحر لجي من الافراط والتكلف؟
أم هو راجع الى ان الفنانين أنفسهم قد ركبتهم روح من التقشف فهجروا تلك الطراوة المدهشة
في الفن؟ أم ان هناك عوامل أخرى غير هذه قد عجبت باضمحلاله؟

الواقع أن وقوف تقدم هذا الفن فجأة، يحمل على الكثير من التفكير، ويدعو الى البحث
وراء الاسباب المعقدة التي كان من أثرها ان وصلت به الى ذلك الدرك
أليكون ذلك راجعاً الى الفوضى التي سادت في مصر في أواخر عهد الفاطميين، والتي كانت

نتيجة للنزاع المتواصل بين الوزراء المتنافسين ، والصراع الدائم بين فرق الجند المختلفة ؟ لقد كانت مصر في حالة من الضعف أطمعت فيها الاجانب ، فتدخل نور الدين والفرنجية تدخلاً فعلياً في شؤونها ، وانتهى الأمر أخيراً بسقوط الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية . وكان من أثر ذلك كله ان تأخرت البلاد ، فمدينة تينيس مثلاً قد نهبت بين سنتي ١١٥٠ — ١١٩٠ م وهجرت سنة ١١٩٤ م ثم اضمحلت سنة ١٢٢٧ م ، ودمياط قد احتلت مرتين وقضي على ما فيها من المصانع ، وكلتا المدينتين — كما تعلم — من المراكز الرئيسية لصناعة النسيج في مصر في العصور الوسطى . أم هو ناشئ عما كان بين الدولة المغلوبة والدولة الغالبة من الفروق التي لا سييل الى انكارها ؟

لقد كان هم صلاح الدين الايوبي موزعاً بين الحروب وما يتصل بها من بناء القلاع والحصون ، وبين انشاء المدارس الدينية لاعلاء شأن المذهب السني ، ورفعها الى المكانة السامية التي كانت له من قبل ، والقضاء على المذهب الشيعي وتطهير البلاد من اتباعه . ثم هو الى جانب هذا ، من غلاة السنيين ، عرف بالتمسك الشديد بأهداب الدين ، والوقوف عند حدوده ، زاهد في الحياة ونعيمها ، كاره للترف وأسبابه ، ما أثر عنه انه لبس الحرير قط ، بل كان يتخذ ملابسه من الكتان او القطن او الصوف ، وتلك حالة تناقض من غير شك ، ما كان عليه الخلفاء الفاطميون من الاقبال على الحياة ، والتمتع بكل أنواع الملذات فيها

أم هو بسبب تلك النهضة الفنية في صناعة النسيج ، التي قامت في المدن الايطالية ، والتي تجلت في ذلك الفيض العظيم من المنسوجات الفاخرة — التي لا تقل جمالاً واتقاناً عما كانت تخرجه المصانع المصرية من قبل — الذي غمرت به اسواق الشرق ، فجعل حكومة الايوبيين ترى انه من العبث العمل على انهاض مصانع النسيج التي شاخت واضمحلت لكي تنافس بها تلك المصانع الفنية ولا يجب ان نفعل هنا ، ما كان لمصر من الفضل الاكبر في نهوض صناعة النسيج ، وتقديمها في تلك المدن الايطالية . ففي مصر وصلت تلك الصناعة الى ذروة الرقي — كما رأيت — ومنها انبعثت تلك النهضة الى صقلية ، حيث كان النساج المصريون يديرون المصانع في عاصمة تلك الجزيرة ، وما زلنا نذكر مهارتهم ، وحذقهم ، كلما رأينا ، او تذكرنا ، عباءة التتويج التي صنعت هناك خصيصاً للملك روجر الثاني ، والتي توارثها من بعده ، اباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وكانوا يلبسونها في حفلات التتويج ، والتي عليها كتابة كوفية منسوجة بخطوط ذهبية نصها : « مما عمل بالخزانة الملكية المعمورة بالسعد والجلال والكمال والطول والافضال والقبول والاقبال والسماحة والجلال والفخر والجمال وبلوغ الاماني والآمال وطيب الايام والليال بلا زوال ولا انقفال بالرز والدعاية والحفظ والحماية والسعد والسلامة والنصر والكفاية

بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة^(١). ومهما بالغنا في وصف دقة صنع هذه العبادة وقوة تعبير زخرفتها وتناسق ألوانها، فإن الألفاظ عاجزة عن أن تعطيك فكرة واضحة عن جمالها وبهائها ومن صقلية سرت تلك النهضة إلى لوكا، وفلورنسة، والبندقية. فأخرجت مصانع تلك البلاد، في أول الأمر، اقشعة قريية الشبه جداً من المنسوجات المصرية لا تكاد تختلف عنها أم هو ناتج عما عرف عن الخلفاء الفاطميين من التسامح إزاء المسيحية — ومعظم الصناع كانوا مسيحيين — فازدهر فن النسيج، وارتقى حتى بلغ أوجهه، في القرن الحادي عشر الميلادي، ثم اضمحل عندما ضعف هؤلاء الخلفاء، ومات عندما زال سلطانهم؟

هذه العوامل المختلفة، قد يكون واحد منها، أو تكون جميعها أو بعضها سبباً فيما أصاب صناعة النسيج في مصر من الانحلال. ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن المصنوع هنا هو صناعة النسيج بصفة عامة بل المراد هو النسيج الذي يتجلى فيه الفن بجماله وإن كان الأيوبيون لم يبذلوا جهدهم، لكي يمنعوا تدهور هذا الفن، فإن الذنب في الحقيقة واقع على الظروف التي أحاطت بهم. وليس من العدل في شيء أن تهمهم بعدائهم للفن، لأن عمائرهم المنبثة في سوريا، وأخشابهم الأثرية ذات الزخارف الباهرة، وأوانهم النحاسية ذات النقوش الرائعة، تشهد بما كان لهم من فن راق وذوق سام.

على أن هذا لا يمنعنا من أن نأسف على اضمحلال صناعة النسيج في هذه البلاد، ذلك لأن الاقشعة هي، في الحقيقة، المادة التي استطعنا أن نكتشف فيها بهاء الزخرفة الإسلامية وروعتها وأمكننا الوقوف منها على ناحية العبقرية في الفن الإسلامي، فلقد كان محذوراً على الفنان المسلم أن يرسم لنا بريشته الصور المجسمة، ذات الأبعاد الثلاثة، ولكنه، بفضل حذقه ومهارته، وقدرته على اللعب بالألوان، أمكنه أن يخرج لنا صوراً على الاقشعة، تكاد لا تشك قط في أنها مجسمة. ثم أن قوة هذه الألوان والأصباغ ودقة الزخارف، وجمال الأشكال، التي تشبع في نفس المتأمل لها نوعاً من الغبطة والانشراح، لا يكاد يحسه وهو يشاهد تحفاً فنية إسلامية من مادة أخرى، خير شاهد على حيوية الفن الإسلامي وسموه، وأقوى حجة دامغة، ضد أولئك الذين يرمونه بالجمود والركاكة وأخيراً إذا علمت أنه من أخص خصائص الفنان المصري المسلم «الهرب من الفراغ» أي أنه لا يسعى لإظهار جمال زخارفه بإيجاد فراغ بينها، بل يابجأ غالباً إلى زيادة هذه الزخارف والتكثير منها، حتى لا يترك مكاناً خالياً، وإن هذا المبدأ لا يلقى إعجاباً من رجال الفن الغربيين لعدم اتفاقه مع المبادئ العامة لفن الزخرفة، وأما لا نجد هذا المبدأ ممثلاً في الكثير من هذه الاقشعة الأثرية، استطعت أن تدرك في يسر السري في مقام هذه الاقشعة من الناحية الفنية

(١) انظر الجزء الثامن من Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe

فولتير

« انا متقلب كالصل ، نشيط
كالضفوف ، دؤوب كالسنجاب »

للطبيب اميل لرفنج
نقلها : كامل محمود حبيب

في حجرة جميلة الاثاث ، فاخرة الرياش ، في دار في ناحية من باريس ، جلست سيدة قد دبت اليها الشيخوخة فبدت غصوناً في وجهها ، غير أنها مازالت في قوة الشباب ونشاطه ، جلست تنظر الى الشمس وتبسم لها وتصطلي بدفئها وجاء الظهر ، ميعاد زيارة القس اليومية ، وهو شاعر على علم بفن الموسيقى ثم هو يفقه النساء . دخل وإلى جانبه صبي عليه سمات الفطنة والذكاء كان قد نشر القس بعض شعره على عيني السيدة بالأمس . وراح القس يتحدث : إن أول ما بدا من عبقرية هذا الطفل حين جاء احد رجال القصر يطلب الى الاستاذ ان يكتب له نصيدة يقدمها هو الى ولي العهد ، وكان الاستاذ غائباً فجلس التلميذ الى نفسه حيناً ثم قدم له نصيدة في عشرين بيتاً . ثم تناولها القس لينشرها أمام السيدة

ووقف الصبي بازاء السيدة متردداً ، ثم أنزع عنه اضطرابه ، فقبل يدها في احترام . لقد قبلها مولير ، وهي ما تزال تحمل نسبات فينوس ، منذ نصف قرن . وابتسمت السيدة في رضا وبشاشة . وتصرم عام ، وفضت الوصية ، فاذا السيدة توصي بألفي فرنك للصبي يشتري بها كتباً . هذه هي نينون دي لانكلو ، سيدة في الرابعة والثمانين وهذا الصبي هو فولتير في العاشرة من عمره . جلس الاديب وهو في الحادية والعشرين في ندي وهو في غيظ وسخط على كل ما يجيء به الملك والحاشية ولا سيما دوق اورليان الوصي ، وجلس اليه ضابط من عيون اورليان يستدرجه في خداع ومكر ، فاندفع الاديب يتهدم ويتهدم ، وراح يفيض في ثورة وحماسة يصف بعض ما نشره بالفرنسية حيناً وباللاتينية حيناً آخر ، غفلاً من الامضاء . وأبلغ الجاسوس ما سمع ، وترامى الى الوصي الخبر ، ومضت أيام فاذا فولتير في سجن الباستيل وحيداً لا يرافقه سوى كتابين هو ميروس ، ومنديلين وغطاء وياقطين وزجاجة عطر . ولبت في سجنه احد عشر شهراً لا يرى المداد ولا الورق ، فكان يكتب اشعاره بين أسطر الكتاب بقطعة من رصاص

ازدهمت الكوميدي فرنسيس بالناس، وقد انقسم رجال الدولة والشعب الى حزينين يتفاخران وفيهم الأمل والحدق. إن «أوديس»^(١) التي ألفها فولتير الصغير ستبدو أمام الناس، ودوقة ماين واتباعها يأملون أن يروا الوصي وابنته، اللذين يعيشان كما يعيش الرجل وزوجه، يستشعران قوة الصدمة فيما يرون فيهويان وقد جلتها الفضيحة وأذاها العار، مثلما هبط الزوجان الملوكان في هملت. ولكن أورليان لم يرَ فيما أمامه ما يؤلمه فابتسم في رقة وإلى جانبه ابنته في كبريائها وصلفها، وقد حفت بها وصيقاتها الثلاثون، ما تستطيع أن نخفي بعض ما بدا عليها من جدِّ واهتمام. وحين بدا نجاح الرواية اندفعا يصفقان مع الناس، وفولتير ينظر من خلف السجف وفي نفسه الطرب والنشوة لما لاقى من انتصار ثم انطلق ليرى...

وهذأت العاصفة، وظهر هو في مقصورة المارشال، فعلى هتاف من جوانب المسرح ينادي زوجة المارشال الجميلة أن «قبله... قبله» فما استطاعت هي إلا أن تنزل عند رأي الجمهور المأمجج * * * تلاقي فولتير وشاب من النبلاء في مقصورة أديان ليكوفور في ليلة من ليالي الشتاء، ولشد ما آلم الشاب أن يرى هذا الأديب الوضع يرافق السيدة، فراح يتندر عليه أمامها «ما اسمك الحقيقي؟ أهو مسيو دي فولتير أم مسيو أرويه فقط» فأجابه فولتير «وماذا يعنيك؟ إن اسمي يتبدى معي ثم يطير عني إلى غيري أما أنت فاسمك ينتهي عندك!» فثار به النيل ورفع عصاه، غير أن فولتير سل سيفه. ومضت أيام، وبينما فولتير يدلف من قصر مضيفه الدوق الذي حباه بفضل وكرمه سنوات عدة، وجد نفسه بين جماعة من سفلة القوم وأراذلهم، ينالون عليه ضرباً ولطماً، والنيل الشاب على خطوات ينظر ويسم. ووجد هو مهرباً فطار إلى الدوق يطلب إليه المعونة فأبى

وترأى لفولتير أن ذكاءه وعبقريته قد رفاه إلى أن أصبح صديق العطاء والنبلاء، ثم هو في رعاية المرأة التي كانت الحاكم الحقيقي لفرنسا، وقد اندفع في حياة سياسية عالية خلق لها، فمزَّ عليه أن يكون هو هو ثم يجرَّح فلا ينتقم. والآن، وهو يعمل طول يومه محصناً، راح يدعو النيل الشاب إلى المبارزة، وينال من كرامته تحت سمع الناس وبصرهم، ويثلم شرفه كلما وقع عليه نظره، غير أن أقارب الشاب من الكرادلة والأمرأه أرادوا أن يقفوا سداً في وجه هذه المبارزة، فقبضوا على الأديب السفیه ونفوه فانطلق إلى انكلترا * * *

ظل فولتير في باريس زماناً يتوارى عن الأنظار، ثم ضاق بهذه الحياة المقيدة فانطلق من مكانه يطير ويقع أنى شاء ثم استقرَّ به المقام في دار تاجر قمح، وهنا... في هذه الدار كان يلتقي كل من يهفو نحوه. وجاءت إليه دوقة سانت بيير وصديقتها ترافقها سيدة عليها مسححة من جمال

(١) أوديس: أحد ملوك طيبة اليونانية قيل أنه قتل والده وتزوج أمه

غير أنها جذابة آسرة ! لها أنف كبير ، وفم صغير جميل ، وذقن لطيف ، وعينان خضراوان صافيتان ، وجبهة بيضاء ناصعة تتدلى عليها خصل من الشعر الاسود الفاحم قزيبدها رونقاً وجمالاً ! ثم هي على جانب كبير من التربية والتعليم والتجربة . ورأى الشاعر كل ذلك — لأول مرة — فراحه ما رأى ! وهي ... هي المركزة دي شاتيلي تعز بما هي عليه من علم وذكاء . وحين جلسوا للغداء راح الشاعر يقرأ هذه الانشودة :

يا للسماء ! إنني أسمعها تردد هتاف الترحيب ،

وكذلك ماريان الطاهية ،

لأن دوقه سانت بيير ،

ودوقه دي شاتيلي ، وفور كالييه ،

هنا يتناولون الغداء في كوخى الصغير ،

وظلت إميلي المقدسة — منذ الليلة — صديقة الشاعر سبع عشرة سنة . لقد كانت خليلته أولاً ثم صديقه ومحاميته . وقضى هو هذه السنين الطوال إلى جانبها على حدود اللورين ليستطيع في عهد اضطهاده — أن يفر متى حزب الامر

* * *

في حجرة مقفلة في قلعة في كليف شاب ضعيف في الثامنة والعشرين ، تلفف في ملابس الصيد البروسية واستلقى على فراشه تعركه الحمى وهو ينتظر وصول استاذِه منذ سنوات اربع . لقد ارسل اليه سيلاً من الخطابات بعضها نثراً وبعضها شعراً ، تحمل نقشات صدره وآلامه وآماله وتحمل إعجابه وحبه ، فهو يقارن بينه وبين أبولو وسقراط وشيشرون وبلينيوس وأجربيا . غير ان هذا الفرنسي لم يأن له ان يأتي . ولعل كلمات التملق هي التي حالت بينه وبين أن يحضر ! لظالما أراد ان يكشف له عن بعض ما في قلبه فدعاه تراجان وفرجيل وطيّطس واغسطس . وحين تلاقيا كانت الحمى تريد ان تصرع الفتى الألماني

وزت به نزوات العاطفة الجامحة حين رأى أستاذَه فراح يفيض عن نفسه آثار الحمى ، لقد سخرنا معاً مما كانا يزعمانه من اختلافات بينهما ، ووجدنا لذة عقلية في تلاقيهما . هذان هما فردريك وفولتير

* * *

على مائدة ريشيليو ، صديق شاعرنا وشبيهه في الهكم والذكاء والدهاء ، جلسوا يبحثون في شجاعة وصراحة ما بلغت إليه فتاة اورليان من مجد . واطمأن الجميع إلى ان فولتير وحده هو الذي يستطيع أن يتناول هذا الامر بقلبه ، فأجاب وهو يبسم « ان فتاة الحان التي تقرأ من حانها تموت حرقاً لجديرة بلاذع الهجو ! » ولكنهم مضوا يقنعونه ، وبعد لأي ، انسحب هو وكتب المقاطع الاربعة الاولى ، ثم نشرها على اعين الجميع فتهنؤوا له هتاف الاستحسان والاعجاب

وكانت هذه فاتحة «لابوسيل» إحدى رواياته الجريئة التي عالج فيها التاريخ والدين كأنما يعالج طليماً ، وظلت على السنين تحمل أفكاره الحرة ونهكماته المرة ، ثم أخفى اسمه ، غير أنها طارت في نواحي باريس موسومة باسم فولتير

* * *

في قصر فرساي وفولتير في الخمسين يهيم بما يشغل الناس ، وعلى مسرح القصر الصغير تحت عيني الملك والملكة وولي العهد والامراء والنبلاء والكرادلة ، راح فولتير — وقد ألقى إليه قياد المسرح — ينبث هنا وهناك بين الموسيقيين ومحترفي الرقص والرسمين ينثر الكلمات والاوامر في نشاط وبقظة. لقد رفعت سيدة وضيفة المولد الى هذا المنصب حين شففتها مؤلفاته حباً : هي السيدة ده بومبادور . وأصبح هو شاعر الدولة في ربوع القصر . وصدر الامر الملكي

« فرساي في اول ابريل سنة ١٧٤٣ »

إن الرغبة السامية ... رغبة جلالة الملك قد رأت أن تمن على السيد أرويه دي فولتير بلقب «السيد» ، حين لم يجد من يستحق هذا اللقب سواء ، لما بدا لها من ذكائه ونشاطه وقدرته على العمل ، ولما رأت من عبقريته في العلوم والآداب التي انكب على دراستها فبث فيها من روحه العالية وفاق غيره « وابتسم فولتير وهو يدس في جيبه التي جنيته ، راتبه السنوي ، ثم انطلق يترنم :

سيدي هنري الرابع ، وسيدتي زاير ،

وسيدتي أليزير الاميركية ،

كل اولئك لا يساؤون عندي نظرة ملكية واحدة :

إن لي ألف عدو يحسدوني على مجدي الضئيل

وبرغمهم هطلت عليّ ألقاب الشرف والثروة كال مطر

كل هذا جزاء أضحوكة (لافوار)

* * *

على مائدة الملكة الخضراء في فوتينبلو جلست صديقة فولتير المريضة دي شاتيلي تلعب ، فخرست اربعائة جنيه ، ثم امدّها هو بمائتين خسرتها هي الاخرى ، واستطاع خادم ان يقترض لها مائتين آخر بأرباح مضاعفة فخرستها ايضاً و ... لقد خسرت في هذه الجلسة اربعة وثمانين ألف فرنك وفولتير الى جانبها يحذّرها ، ثم نادى شجاعته وصراحته فقال لها : انهم يخدعونها ويغشونها ... أف يكون ذلك حقاً وهي تلعب على المائدة الملكية . وفي هذه الليلة ارغما على ان يطيرا بعيداً خشية الفضيحة

واسكنته دوفة عجوز من صديقاته قلعة على بضعة اميال من باريس ، وأمضته الوحدة وهو يعيش في حجرة نائية منفردة ، قضى فيها ثلاثة اشهر لا يرى الحلاء ولا يخرج الا عند الثانية

بعد الظهر ليتناول الغداء في حجرة نوم الدوقة ثم ليقرأ لها ما كتبه في يومه . في هذه العزلة استطاع ان يكتب خمسا من رواياته القصيرة

* * *

في حديقة قلعة كوميرسي حيث ضيوف ملك بولانده الذين شغلوا بعض مناصب الدولة حيناً من الزمان ، جلست المركيزة في كبريائها وجمالها وقد بلغت الاربعين وقد نقضت يدها من حب فولتير منذ سنوات عشر لانه خطا الى الشيخوخة خطي فساحاً غير انها ما برحت صديقه الوفية . لقد جذبها فتى في الثلاثين فراحت تزين له وتبرج تريد ان توقعه في حباتها . انه هو الميسو دي سانت لامير الذي احبته خلية الملك

في الرابعة والخمسين من عمر فولتير ، وفي امسية هادئة انطلق من حجرته قبيل العشاء ، ودخل على غير ميعاد حجرة صاحبه ، فوجدها الى هذا الشاب في حالة تبعث في النفس الشك والريبة ، فاضطرب واستشعر لدع الخيانة في قلبه ، وأصر على ان يبرح الليلة ، غير ان خادم فولتير — وقد اوحى اليه السيدة بأمر — ارتد يقول لسيدم ان العربة لا تستطيع السير . وتحدثت هي الى فولتير — والليل ساج — حديثاً ظل في طي الكتمان حيناً من الدهر ، والمركيزة تخفي صاحبها في قصرها . قال فولتير « افتردين ان اصدقك بعد الذي رأيت ؟ لقد بذلت صحي وسعادتي في سبيل رفاهيتك ثم تخونين عهدي ! » قالت « اني احبك حباً شديداً ، غير اني قد سمعتك تشكو تهدم قوتك ثم قلت انك لا تستطيع ان تقيدني دون ان يكون في ذلك مضرتك ، فلماذا ثور حين اريد ان ارفع عنك بعض ما يثقلك ؟ » قال « هذا حق ، ولكن حذار ان يحدث هذا مرة اخرى تحت عيني ! »

وفي الليلة التالية بدا خصمه امامه يعتذر ويسأله الصفح ، فقال له « يا بني ، لقد بلغت من الكبر عتياً ، وانت ما تزال في سن السعادة والمرح ، تستطيع ان تعشق وان تستميل قلوب النساء ! انهن هذه الفترة الذهبية من العمر . أما انا فارجل حطمت الايام ، لا حول لي ولا قوة ، فما اصلاح لما نصلح انت له ! » وعلى مائدة خلية الملك تناولوا جميعاً طعام العشاء ، في الليلة الثالثة وانقضت اشهر بدت ، بعدها ، سمات الحمل على المركيزة ، وجلسوا جميعاً يتشاورون في امر الطفل وهل تستطيع هي ان تعلن امر زواجها من هذا الشاب ليكون اب الطفل الجديد ؟ فأجاب فولتير في غيظ « لا بأس . فسنضم هذا الطفل الى مؤلفات السيدة العديدة ! »

* * *

لازمت المركيزة فراشها وفولتير الى جانبها يمرضها ، ورفض دعوة ملك بروسيا الملحة ليكون في جوار صاحبه يسهر عليها ويعنى بأمرها وهي تضع ابن غريمه ، وحين وضعته تألق البشر في وجوه من في القصر . وبعد اسبوع هاجمتها الحمى فمضت بحياتها . وظل الزوج الحبيب واقفاً بازائها ،

أما فولتير فأطلق ذاهلاً في هدوء الى الطبق الاسفل . وفي نهاية السلم سقط فشج رأسه ،
واندفع غريمه يعينه ، وحين افاق نظر الى الشاب في سكون وقال « لقد قتلها ! »

* * *

استعار الرجل الفرنسي وهو في بوتسدام من آخر من برلين قطعتين من الماس يزين بهما وهو
يمثل دور شيشرون في احدي رواياته امام الملك فردريك ! وبعد ان صاحب فولتير الملك ثلاثة
اشهر قلده منصباً في البلاط الملكي البروسي براتب سنوي قدره عشرون الف فرنك . ولما كان فولتير
لا يطمئن الى ما يربحه من كتبه العديدة التي نشر كثيراً منها لا يحمل اسماً ، كما يطمئن إلى ما يملك
هو ، ثم هو يريد ان يكون دائماً في بحبوحة من العيش ، فقد ارسل يهودياً الى درسدن يشتري
له اوراقاً مالية سكسونية بمبلغ اربعين الف فرنك ، وكانت هذه الصفقات حراماً على البروسين
فحنق الملك على فولتير حين تراحى اليه الخبر

وقدّم للمحاكمة ، وراح فولتير يدفع عن شرفه ونبالته التهمة ببراهين وأدلة بدت فيها
عبقريّة الرجل نائرة لا هداً ، قوية لا تضعف . وانهى الامر بوساطة ذوي الرأي والجاه ،
غير ان الحادثة كشفت امام الملك ناحية من نواحي الرجل السامية

ثم ... ثم اندفع بها جهم مويرتيس مواطنه وزميله في « سان سوسي » دون ان يصرح باسمه فيما يكتب ،
فغضب عليه الملك غضباً شديداً ، وأمره ان يحرق هذه الرسالة في الطرق على اعين الناس ،
فأبى فولتير وقدم استغفاه من وظيفته ورد كل ما حباه به الملك مع ايات من الشعر :

لقد تقبلتها في سرور وطرب ،

والآن أردّها في اسى وحزن ،

كهاشق أناني ، سلّطت عليه الخواطر السود ،

فرد الى الفتاة التي أحب رسمها

غير أن الملك لم يتركه يفلت ، فردّ اليه ما أرسله في نفس الليلة ، ومضت أسابيع تخللها
مخاصمات ومصالحات ، ثم جرى الحديث بين الملك وفولتير أثناء احتفال باهر ، قال الملك : « مسيو
دي فولتير ، انني أرى رغبتك في السفر ملحة ! » قال « سيدي ، بالرغم مني ما أريد ، لأنها
صحتي . . . » قال الملك اذن أتمنى لك سفرأ سعيداً ! »

وغادر فولتير فما رأى أحدهما الا آخر بعد ، وجاءته الخطابات تترى تحمل في ثناياها شتى
ألوان التقدير والاعجاب ، فما انقطع سيلها الا بعد أربع وعشرين سنة ، حين مات الشاعر

* * *

لقد جاوز الستين وهو يعيش الى جانب جنيف عيشة أغنياء النبلاء ، وقصره الصغير يعج
بالضيوف من مختلف الامصار ليروه وليسمعوا منه . وأصبح يملك عربة ، وله خدم وطاه من
باريس وسكرتير ولقد نجحت رواياته على مسرحه الخاص نجاحاً باهراً ، أثار حقد مواطنيه من النبلاء

هنا على حدود وطنه ، الذي اضطهده وشتت شمله لأنه عرف كيف يفكر بعقل الفيلسوف
 عاش أكثر من عشرين عاماً ، يتنقل في هذه الناحية في حذاء وجوارب سود ، وسترة فضفاضة
 من الحرير ، وقبعة من المخمل او في شعر مستعار ، ثم هو يعمل في نشاط ، ويطالع في نشاط ،
 ويستقبل ضيوفه من العطاء والعظيمة . واتخذ الحديقة فاشترى ضيعة في سويسرا وأخرى في
 فرنسا ليستطيع ان يفر من واحدة الى أخرى متى حمل على ذلك

وحين كبرت سنه لم يستطع ان يشبع منهم ضيوفه من المفكرين والفلاسفة ، فبذل قصارى
 جهده في العناية بأمر الفلاح ، وأصاخ الى صيحاته الحزينة المكفوفة ، فاستطاع أن يحصل من
 مجلس المدينة في جنيف على تصريح يخول له زرع المستنقعات التي تحيط بضيعة ليحفظ على
 الناس صحتهم ، واستطاع أيضاً ان يرفع نير استعباد المزارعين عن صغار الفلاحين

وهو الآن يعمل ما يعمل الفلاح الصغير فهو يحرث ويبذر في حقله المسمى حقل دي فولتير
 وظل يقوم عليه بنفسه حتى جاوز الثمانين وانطفأت منته ، وكان فولتير أيضاً كريم النفس ،
 سخياً اليد ، يساعد المعوزين والفقراء من أبناء مقاطعته ، ولقد شجع صناعة الساعات الدقيقة ،
 وهو اول من أدخل صناعة نسج الحرير ، فحوّل مسرحه الى بيت لدود القز
 في هذه الآونة أيضاً دأب اشهرأ ليطلق سراح اسيرة في تولوز كان قد اتهمها القضاة
 بالتعصبون باطلاً ، فهاجم ما فشا في القضاء الفرنسي من فساد ، وما ساد من استعباد
 لقد كان العدل هدف فولتير الاعلى

* * *

وفي عصر يوم من ايام فبراير وقفت عربة على باب باريس الغربي ، وسأل ضابط : او يكون
 على ظهر هذه العربة ما يحرم دخوله ؟ فأجاب رجلهم في صوت يضطرب « لا اعتقد ، ليس
 هنا سواي ! » وحقق فيه ضابط ثم أقسم « والله انه هو فولتير ! »

لقد جاء يزور باريس للمرة الاولى والاخيرة منذ عشرات من السنين . وتوارى وراء المسرح
 والروايات واعماله العديدة يتخذ من كل ذلك سبباً يفتح امامه ما استغلق ، ولكنه كان يريد أن
 يجد فرصة يزور فيها باريس ، وكانت باريس تمنى لو اتيح لها ان تراه . وكان هو قد هاجم كلا
 من البلاط والكنيسة فأَمْضَاهَا ، فالاول يريد أن يبعده عن باريس والثانية تريد ان تستدرجه
 عليه يؤمن ، ولكنه وجد ترحيباً من الاكاديمية ومن الزعماء السياسيين ومن زعماء المسرح ،
 فكان يزوره نيف وثلاثمائة شخص في اليوم الواحد. ولقد ابتدأ هو فزار المرأة التي كانت أولى
 من أحب ، والتي لم يرها منذ ستين عاماً . ولقد اثرت في نفسه هذه الزيارة وأثرت في نفسها هي
 ايضاً ، حتى انها ردت اليه في اليوم الثاني صورته حين كان شاباً

* * *

لاول مرة في مدى سبعين سنة ، وفولتير تتناهبه الاسقام والمخطاط القوة ، وقع مع قس

في نقاش ديني ، غير ان واحداً لم يعرف ما استقر عليه رأي فولتير . وجعلت الكنيسة تتلفه حتى اقر بأنه يريد أن يموت على المذهب الكاثوليكي ثم قال « ... واني لارجو ان يغفر لي الله وأن تسامحني الكنيسة فيما فرط مني نحوها » لقد انتهى فولتير الى هذه الخاطرة حين أدخل في روعه أن جثته — إن لم يفعل — ستلقى في العراء . ولكنه حين جاء القس يلقنه بعض الطقوس الدينية أوقفه قائلاً « تذكر ان دمي لا يزال ملوناً ، ويجب علينا ألا نخلط به دم الله ! » وراح يصدهجيات السكمان وهو يقول في غضب : انه لن يذعن كما اذعن اولاً . وعلى حين فجأة ارتدت اليه صحته . لقد كانت خطواته في الأكاديمية موفقة ، وعلى المسرح الباريسي لاقى احتفاء لم يفز به من قبل شاعر . وحين اضطره اصدقائه ان يبدو امام الناس ، اطل من مقصورة في المسرح ثم اتحن بحجي الجمهور ، ثم رفع رأسه وقد اغرورقت عيناه بالعبرات وقد ظلت طول عمره قوية صافية . وحين ارتد الى داره جلس يتحدث نفسه وهو يتسم (انك لم تحب الفرنسين ، لقد رحبوا بروسو في مثل هذه الحماسة والاندفاع في يوم ، وفي اليوم التالي أمر بقبض عليه !) ثم اشترى داراً في باريس وعزم على ألا يرحها حتى يمحن حينه ولكنه اسرع نحو النهاية فاحطت قوته على حين بغتة ووافته المنية بعد اسبوعين

* * *

وأبت عليه الكنيسة قبراً ، وأخذ الطبيب ، وهو يشرحه ، رأسه الشاذ القوي ، وأخذ صديق قلبه . وفي المساء كانت جثته في ملابسها وقبعها وقد لسفت في رفق ، تبدو كرجل نائم ، وأبعدت على مركب . وحرمت الكنيسة الموتورة على الاكاديمية ان تقرأ شيئاً مما كتب الميت الجاحد ، وحرمت على الصحف ان تنشر كلمة عنه ، وأبعد رئيس دير لانه لم يستطع ان يمنع نقل الجثة ، ودفن الميت سرّاً الى جانب احد ذوي قريبه

وفي سنة ١٧٩٠ اي بعد اثنتي عشرة سنة احضر رفات فولتير ، مع اول نسبات الثورة ، الى باريس في حفل حاشد ودفن في الباثيون . وملئت الحجرة التي لبث فيها زماناً سجيناً في الباستيل ، بالزهر والقشود ودوت بالاغاني والموسيقى . وفي وسط المشاعل والموسيقى بين مئات الآلاف من الناس مرت العربة تحمل رفات الرجل العظيم ونثرت عليه آخر كلمات التقدير « لقد نفت هذا الشاعر المفكر والمؤرخ في الانسانية من روحه السامية فتأهبت للحرية »

* * *

وتحطم التابوت الرصاصي في الباثيون ، حطمه جماعة من الشبان المعارضين في احدى ليالي مايو بعد أربع وعشرين سنة ، وجمعوا عظامه وأودعوها حقيية ، وحفروا لها حفرة في دار مهجورة على حدود العاصمة ، وهكذا ضاع رفات هذا الرجل العظيم في التراب

* * *

وليس يعرف احد الآن اين وقعت عظام فولتير

الفكر واللغة

لجورجي شاهين عطية^(١)

سمعنا منذ مدة لحاضرة مدير هذا المعهد العلميّ الزاهر المسيو غرانجوان محاضرة نفيسة بالفرنسية موضوعها « الفكر واللغة » تناول فيها بالبحث المشبّع قضية العلاقة بين ما لكل امة من الطرق في التفكير ، وما في لغتها من أساليب خاصة في التعبير ، مورداً على ذلك الامثلة العديدة من كثير لغات الشرق والغرب . وقد رأيت الآن ، وقد أتيت لي فرصة التحدث اليكم ان اطرق هذا الموضوع نفسه ، مقتصرأ في البحث فيه على ما يتعلق بلغتنا العربية خاصّة ، فإيّن ما بين أوضاع هذه اللغة وتعاييرها وطرق التفكير عند العرب الاقدمين من العلاقة ، ثم اتطرق الى ابضاح ما يجب التقيد به من العلاقة بين طريق تفكيرنا في هذا العصر وما يراه صوغه من الاوضاع والتراكيب الحديثة

﴿ لغة كل قوم تصوّر افكارهم ﴾ معلوم ان لغة كل امة هي ما تتخذة للتعبير عن افكارها ، فلا يرسم بها الاّ صور ما يجري في اذهانها ، ويجول في خواطرها . والذي يؤثّر في تكوين عقلية الامة وطرق تفكيرها عاملان : البيئة الطبيعية ، وزيد بها ما يحيط بذلك الامة من جبال وبحار وانهار وصحارى وما اشبه ، والبيئة الاجتماعية ، وزيد بها ما لها من نظام أسرة ودين وطرق معيشة ونحو ذلك . على اننا اذا حاولنا تطبيق هذه القاعدة على لغتنا العربية بالنسبة لينا وجدناها تنطبق عليها في بعض الشيء ولا تنطبق في البعض الآخر . فاعتنا تصوّر ما في افكارنا في ما تعمّده من ذلك تعمّداً ، واما في ما نستعمله كل حين من التراكيب المجازية فانها لا تبسط الاّ صوراً تمثّل احوالاً غير احوالنا ، وتشير الى عصور غير العصر الذي نعيش فيه . وسنرى الآن ما في بعض تلك التعابير من تصوير لاحوال قدماء العرب الطبيعية ، ثم لاحوالهم الاجتماعية ﴿ تصوير احوال القدماء الطبيعية ﴾ يقول الواحد منا اذا سمر : « وقد قرّت عيني ، وثلج

(١) نص المحاضرة التي القاها على جمهور من الادباء بالسكينة العلمانية في بيروت

صدري» ومعنى قربت بردت ومعنى ثلج صار بارداً كالثلج، وإذا بحثنا في سبب اختيار البرد للتعبير عن السرور نجد في حالة العرب ومعيشتهم في بلاد حارة يؤذيهم هجيرها، وتؤلمهم رمضاؤها، مما جعلهم يتصورون البرد أفضل وسيلة من وسائل النعيم. وبديهي أنهم لو كانوا عائشين في بلاد باردة لما كان للبرد عندهم هذا المعنى المستحب، ولا كانوا يدعون على من يريدون له السوء بقولهم: «أسخن الله عينه»

ونقول في الدعاء بالخير: «سقياً لفلان، وسقي الله أيام الصبا» وما كان هذا الدعاء بالسقي إلا لقلة المطر وندرة الأنهار والينابيع في شبه جزيرة العرب بحيث كان السقي أهم ما يمكن تمنيه من الخير. وهذا ما جعلهم يدعون المطر بالغيث لأنه يغيثهم أي يعينهم في الضيق، وبالرحمة من باب المجاز المرسل لأنهم يعدونه رحمة من الله

ومن هذا القبيل قولنا: «رعاكم الله، وسقياً لكم ورعياً» فضرورة الرعي لمواشيهم لم تكن تقل عندهم عن ضرورة السقي. فالماء والكلاء أشد العناصر ضرورة لحياتهم وحياة أنعامهم، ولم يكن همهم التنقل من مكان إلى آخر إلا للبحث عنها وعن المواضع التي يكثران فيها

ويدخل في هذا الباب قولنا مثلاً: من أهم واجبات الشبان الذود عن حياض الوطن. فالحياض هي مجتمعات الماء، وقد كان لكل قبيلة حياض خاصة تستقي منها وتوردها مواشها، ولما كانت تلك الحياض من أهم الأشياء كلها إذ عليها تتوقف صيانة حياتها وحياة سائمتها كان من الطبيعي أن يستमित جميع أفراد القبيلة في الذود عنها، وإن يبذلوا دماءهم لمنع كل اعتداء عليها ونقول: «ان هذه القصيدة من عفو الساعة» أي مما قاله الشاعر ارتجاءً بدون أن يجهد

قريحته. وأصل هذا من عفو الماء وهو ما فضل عن الشاربة وأخذ من غير كلفة ولا مزاحمة وكثيراً ما نقرأ في الصحف العبارة الآتية: «يتمموا البلدة الفلانية في الحيل انتجاعاً للصحة» والانتجاع هو طلب الكلاء والبحث عنه في مواضعه

ومثل هذا قولنا: «ان فلاناً من رواد اللهو» والرواد جمع رائد وهو الذي يسير امام القوم يبحث لهم عن مواضع الكلاء والماء

ونقول في قوم ضعف أمرهم: «قد ذهبت ريح القوم» وفي من ابتدأ أمره في الظهور: «قد هبت ريح فلان» وما كان دخول الريح في مثل هذه المواضع إلا لما لها من الأثر في إقامة البدوي وتقلاته في الصحراء

ونقول في الأمر الصعب المنال: «هذا أمرٌ دونه خرط القتاد» والقتاد شجر ينمو في الصحراء له شوكة كالإبر، والخرط من خرط الفصن إذا ترع ورقه اجتذاباً بأن يقبض على أعلاه ويمسك يده عليه إلى أسفله

ونقول في من يطعن على قوم : « هو يفتح أنثى » والأُنثى شجر عظيم من الطرفاء
و« هو يقرع مرّوهم » والمرّو حجارة بيض تقتدح منها النار
ونقول في من نشاوره في امر : « استورينا زئد فلان » والزئد هو حجرٌ تقتدح منه
النار ، واستيراء الزئد استخراج النار منه

ففي كل ما تقدّم تذكيرٌ بأحوال العرب في شبه جزيرتهم ليست مما نألفه ولا مما يعرفه أهل زماننا
﴿ تصوير أحوال القدماء الاجتماعية ﴾ أما ما يمثل أحوالهم الاجتماعية في كلامنا فهو كثيرٌ
من ذلك قولنا : « إن الازمة ضاربة أطنابها في هذه الايام » والاطناب ما تشدُّ به الخيمة من
الجبال ، والمراد بضرب الأطناب نصب الخيام للإقامة

ومنه قولنا « ان الكسل سبب الفقر » والسبب هو الجبل الذي توصل به أطناب الخيمة بأوتادها
ومنه قولنا في العزم على الأمر : « ضرب فلانٌ أطنابه على هذا الأمر ، وألقى له
جرانه » والجران مقدّم عنق البعير ، يقال ألقى البعير جرائه اذا برك ومدّ عنقه على الارض
كناية عن تمكّنه في البروك

وكثيراً ما ترد في كلامنا هذه الجملة او ما شاكلها : « قرأت هذا الفصل برمته » أي
كله . ومعنى الرمة الجبل البالي . قيل ان رجلاً دفع الى آخر بعيراً بجبل في عنقه ، فصار يقال
لكل من دفع شيئاً الى آخر بجملته : أعطاه إياه برمته

ونقول : « حدا بي الى فعل هذا الامر أو حدا بي اليه كذا » أي دفعني اليه ، وأصله من
حدا الناقة أو حدا بها أي غنى لها وساقها

ونقول في من يسير في أمره على غير هدًى : « هو يخبط خبط عشواء » أي ناقةٍ عشواء
وهي التي في بصرها عشا لا تبصر ما أمامها ، فهي تخبط بيديها كل شيء اذا مشت لا تتوقى شيئاً
ونقول : « العجلة تنتج الندامة » وهذا من نتجت الناقة أي وضعت

ونقول في من يقصده الناس للاستفادة من علمه او جدواه : « إن دار فلان محطُّ الرحال »
والرحل ما يُوضع على البعير ليركب عليه مثل السرج للفرس

ونقول في من لا يكتم سرّه : « هو لا يكظم على جرّة » والجرّة ما يفيض به البعير من
كرشيه فيمضغه ثانية

ونقول في من هو خبيرٌ بالامور : « هو جذها المحكك » والجذد أصل الشجرة يُنصب
للإبل لتحتك به الجربى

وكثيراً ما نقرأ هذه الجملة : « بات القوم كأن على رؤوسهم الطير » اي ساكتين هيمه . وأصل
المنعني في هذا ان الغراب يقع على رأس البعير فيلتقط منه القراد فلا يتحرك البعير لئلا ينقر عنه الغراب

ونقول: «قبض فلان» على أزمة الأمور» و«انقادت إليه الأمور بأعنتها» والازمة جمع زمام وهو الخيط الذي يُشدُّ إلى طرفه مقود البعير وقد يسمى به المقود نفسه، والأعنة جمع عنان وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة
ونقول في من يطمع في غير مطمع: «هو يكدم في غير مكدم» والسكدم العض بأذن الفم، وأصله في الدابة تكدم الحشيش
ونقول في من كثر رزقه: درت عليه أخلاف الرزق» والخلف للناقة كالضرع للشاة
ونقول: «فعل فلان هذا الأمر اعتباطاً» أي بدون موجب. وهذا من اعتباط الذبيحة أي نحرها لغير علة

ونقول: «ورطت فلاناً في الأمر» أي أوقعته فيه، وهذا من الورطة وهي الوحل ترتطم فيه الدواب

هذا نثر يسير من التعابير التي ليست في الواقع إلا صوراً لحياة الاعرابي بين إبله وشاته. ولا يقل عنها ما نستعمله من التعابير التي تتمثل بها سائر مظاهر حياته
فن ذلك قولنا: «أحرز فلان القدح المسعلى» أي سبق أقرانه. والقدح أحد قداح الميسر وهي سهام لا فصل لها ولا ريش، والميسر قمار العرب بهذه القداح، كانوا يشترون جزوراً ناقةً أو بعيراً، فينحرونها ويقسمونها ثمانية وعشرين قسماً ويتساهمون عليها بعشرة قداح فيفرضون في أحدها فرضاً واحداً، وفي الثاني فرضين، وهلم جرا إلى السابع فيفرضون فيه سبعة فروض ومجموع ذلك ثمانية وعشرون، ويضيفون إليها ثلاثة قداح لا حز فيها، ويجعلون الكل في خريطة وهي وعاء من جلد ويضعونها في يد رجل عدل يسمونه الجليل أو المفيض ليحيل يده في الخريطة ويخرج منها قدحاً للرجل منهم. فان خرج له قدح من ذوات الفروض أخذ نصيبه من الاقسام بعدد الفروض التي فيه، وان خرج له قدح من الثلاثة التي لا يفرض فيها غرم ثمن الجزور. والقدح المسعلى هو ذو الانصبه السبعة

ومن هذا قولنا في من فاز في أمر: «قد فلج سهمه» أي غلب واستظهر ومنه قولنا: «أجال القوم قداح الرأي» أي تشاوروا وهو من إجاله القداح في الخريطة على ما تقدم بيانه

ونقول: «أعط القوس باريها» أي سلم الأمر إلى من هو أهله
ونقول: «رमित عن قوس فلان وزعت عن قوسه» أي شاورته وعملت برأيه
«ورمى القوم عن قوس واحد» أي اتفقوا في الرأي والعمل
ونقول: «إن هذا الأمر على قاب قوسين مني» دلالة على شدة قربه وقاب القوس ما بين

المقبض والسسية فليسكل قوس قابان ، والسسية ما عطف من طرفها ، وفي القول قاب قوسين
قلب فالمراد قابا قوس

ونقول في نقاد الصبر : لم يبقَ في فوس الاصطبار منزع ، وقد نفدت السهام حتى الاهزع
والمنزع سهم في السكناة ، والاهزع آخر سهم من سهامها
ويرد في كلامنا كثيراً « سنوح الفرصة » وهذا من سنوح الصيد وهو ان يمر عن يمين
الصيد الى يساره فهو السامح ، فان مر عن اليسار الى اليمين فهو البارح . وكانت العرب
تسمي بالسامح وتنشاءم بالبارح

ونقول في اختلاط الامر : « اختلط الحابل بالنابل » والحابل صاحب الحباله وهي شبكة
الصائد ، والنابل صاحب النبل ، وذلك ان يجتمع القناصون فيختلط اصحاب النبالة باصحاب
الحبال فلا يصاد شيء

ونقول في من وقع الخلاف بينهم وتفرقت وحدتهم : تصدعت عصا القوم ، وانشقت العصا
بينهم ، والعصا آلة الدفاع عن النفس عند الاعراب فهي رمز القوة عندهم

ونقول « قشرت لفلان العصا » اي اطلعته على ما في سري من محبة او عداوة
ونقول : « جاءت هذه المصيبة على فلان ثالثة الاناثي » اي كمل بها الشر كله فلم يبق منه
غاية . وهذا من الانثية وهي الحجرة من حجارة الموقد ، كان يوضع حجر في كل من الجانبين
فاذا وُضع الثالث كمل الموقد الذي توضع عليه القدر

ونقول في تهديئة اضغان القوم : « فأننا ما جاش من قدرهم » اي سكتناه وكسرنا حدته
ونقول في من يوقد نار الفتنة : « إن فلاناً يوقد في الحظر الرطب » والحظر شجر شائك
يعمل منه الحظائر ، والحظر الرطب اذا أوقد انتشر منه دخان كثير حتى ينال اذاه كل أحد
ونقول في من يحسن التصرف بالأموال : انه يعرف من اين تؤكل الكتف . قالوا تؤكل
الكتف من أسفلها لأن المرققة تجري بين لحم الكتف والعظم ، فاذا أخذت من اعلى جرت
المرقة على الاكل وانصبت ، واذا أخذت من أسفلها انتشرت عن عظمها وبقيت المرققة مكانها

﴿ كيف رسخت هذه التعابير في صلب اللغة ﴾ كل هذه التعابير يستعملها الادباء ويستعملون
اكثر منها في منظومهم ومنثورهم وقل منهم من يظن لما فيها من تصوير احوال العرب الاقدمين
في مختلف ضروب معيشتهم ولعمري ان هذا مظهر غريب في هذه اللغة لا نظن ان له مثيلاً في
غيرها من لغات العالم . ولا مجال للعجب من رسوخ هذه التراكيب وامثالها في صلب اللغة بحيث
صارت جزءاً متمماً لها لا يستغني عنه كاتب ولا شاعر في التعبير عن افكاره فان الادب في هذه
اللغة بعد دخول الامة في عهد الحضارة ظل كما كان وهي في عهد البداوة ، وظل الشعراء في

دمشق وبغداد والاندلس يفتتحون قصائدهم بالبكاء على الاطلال ووصف النوق والحيام كما كان يفعل اسلافهم من سكان البادية في حين هم عائشون بين القصور والحدائق لا نوق لديهم ولا اطلال ، وقد بلغ من تشددهم في المحافظة على هذه الاساليب انهم كانوا يحذرون على الشاعر ان يركب في طريقه الى محبوبته فرساً او برذوناً لمجرد ان الجاهلين لم يركبوا اليها الاّ الناقة. وان كان قد قام من عاب عليهم هذه الخطة ودعاهم الى نبذها كما فعل في اوائل العصر العباسي الشاعر ابو نواس القائل

عاج الشقيّ على رسم اسائه وعجت أسأل عن خسارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسدٍ لا درّ درك قل لي من بنو اسدٍ
لا جف دمع الذي يبكي على حجرٍ ولا صفا قلب من يصبو الى وتدٍ

فان هذه الدعوة لم تصادف آذاناً صاغية وظلّ الشعراء يقفون على الاطلال ويصفون النياق حتى اتنا نقرأ في اواخر القرن الماضي لعلامتنا المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي اي بعد مرور اكثر من الف سنة على عهد ابي نواس قوله في مستهل احدى قصائده :

لمن طللٌ بوادي الرمل بادٍ نخطُّ به الرياح بلا مدادٍ
وقفت بناقتي فيه فكنا ثلاثة أرسم ، في ظلّ وادٍ

فهل نعجب بعد هذا من رسوخ هذه التراكيب في صلب اللغة وهذه حال الادب والادباء. أما في هذا العصر عصر السيارة والطيارة فقد تغيرت الحالة ولم يعد شعراؤنا يتحدثون الاّ عن الزمان الذي يعيشون فيه ولا يصفون من الاشياء الاّ ما يقع تحت حسهم بدلاً عما كان يألفه اهل القرون الخوالي . وهذا ما يبشر بهضة جديدة في ادبنا الحديث يتحفز بها لجارة آداب الشعوب الراقية . بيد انه اذا امكن تحرير الادب من قيود الاساليب القديمة فليس من الممكن ولا من الضروري تنقية اللغة من التراكيب التي في معانيها الاصلية دلالة على احوال القدماء ، ذلك بأن هذه التراكيب قد رسخت في الاستعمال وتداولتها الالسن والاقلام بمعانيها المجازية أما معانيها الاصلية فقد غابت عن الاذهان بقاءً ولم يبق لها عند الناس الاّ هذه المعاني الاصلاحية

﴿التجديد في اللغة﴾ على اتنا قد اخذنا نشعر بمظهر من مظاهر التجديد في اللغة في ما نقرأه على صفحات بعض الصحف من تراكيب مجازية مبنية على صور من حياتنا اليومية ، وهذه التراكيب تشيع تدريجاً في الاستعمال بحيث لا تلبث ان تجري مجرى المثل . من ذلك قولهم في

من يثير فتنة ليحجر نفسه مغماً : « هو يصطاد في الماء العكر » وقولهم في العزم على ازالة التباس : « اتقا زيد وضع النقاط على الحروف » . فهذه استعارات لا بأس بها ومزيها فائقة في ان التشبيه به فيها معروف ومألوف لدى القارئ . ومعلوم ان الاستعارة مبنية على التشبيه ، والاصل في التشبيه ان يكون التشبيه به معروفاً عند المخاطب ليقس عليه التشبيه الذي يحمله او يحول شيئاً من صفاته بيد ان اهم مظهر للتجديد هو في ما نراه من الاهتمام بوضع ألفاظ للدلالة على ما اوجدته الحضارة الحديثة من ادوات وما تستلزمه من معان . وهذه مهمة قد تألفت لها في السنوات الاخيرة مجامع لغوية في عدد من الاقطار العربية تضم فريقاً من علماء اللغة الذين يشار اليهم بالبنان وفي مقدمتها المجمع اللغوي المصري . ولا اريد الا ان البحث في ما قامت به هذه المجامع من اعمال وما اتخذته من قرارات ولكني اريد توجيه الانتباه الى قضية هي بمنزلة الاساس من العمل الذي اتخذته على عاتقها واغفالها يؤدي الى ضياع الفائدة المتوخاة منه . تلك هي قضية العلاقة بين الفكر واللفظ في ما يراد الاتيان به من الاوضاع . وأعني بذلك ان يكون المعنى المراد اتخاذ الاسم منه عن اقرب ما يخطر بالبال عند تصور المسمى اذا كان المقصود الوضع بطريق الاشتقاق ، او ان تكون العلاقة بين المعنى الموضوع له اللفظ والمعنى المراد استعماله فيه قرينة لطيفة ، اذا كان المقصود الوضع بطريق المجاز . وترى العرب قد راعوا بالبداهة هذه القاعدة في ما وضعوه من الالفاظ تمام المراعاة . ففي ما اشتقوه من الاسماء للسيف مثلاً قد وضوا له الحذم والبار والبنار والصارم والقاضب والقضيب والغضب والحسام والجراز من خذم وبرز وصرم وقضب وعضب وحسم وجرز وكلها بمعنى قطع والقطع هو اول معنى يتبادر الى الذهن عند رؤية السيف او تناوله . وكذلك ما وضعوه بطريق المجاز فقد راعوا فيه قرب العلاقة ولفظها كما في تسمية اللحميتين المتدليتين في جانبي الحلق باللوزتين ، وتسمية داخل الفم بالغاراي الكهف وما اشبه . اما اوضاع المجمع اللغوي المصري فانتا لم نر في كثير منها هذه المراعاة ، كما في تسمية قطار الركاب مثلاً « بالوقوف » عللوا ذلك بحجة بطئه وكثرة وقوفه في المحطات . فان هذا المعنى ليس مما يتبادر الى الذهن عند رؤية هذا القطار منطلقاً وما من احد يركبه بقصد كثرة الوقوف في المحطات

ومثل ذلك اقتراح تسمية المعكرونة « بالدؤ ويداء » فانه اذا صح وجود جامع بين هذين الشيئين من جهة الهيئة فان هذه التسمية مستنكرة من جهة انها مبنية على تشبيه طعام مستطاب يستمرئه الناس بحشرات قدرة تنفزز النفس عند تصورها وهي مما تأكله الحنازير . اولا يرى المجمع ان استعمال لفظة « الاطرية » في هذا المعنى وافي بالغرض . قال في القاموس : « الاطرية طعام كالحيوط من الدقيق » فان قيل ان هذا الاستعمال يحتاج فيه الى شيء من التوسع قلنا ان التوسع

لا بد منه في مثل هذا المقام كما نفعل في استعمالنا لفظة الحساء فان ما نعرفه الآن بهذا الاسم يختلف كثيراً عما كان معروفاً منه عند العرب. فلمهم ايجاد الفاظ يرضى عن استعمالها الذوق السليم وكما يجب مراعاة الذوق من جهة المعنى يجب مراعاته من جهة اللفظ ايضاً. فمن المحال ارغام جمهور الكتاب والمتأديين على استعمال ألفاظ غير مأنوسة او كريهة في السمع كما هي الحال في الارزيز والطرطران والطرز. والغريب في اللفظة الاخيرة ان ارباب المعجمات قد اختلفوا في تفسيرها. قال صاحب القاموس الطزر النبات الصيفي بلغة بعضهم، ومثله قال صاحب اللسان. اما في المخصص فقد جاء ان الطزر البيت الصيفي واتفق الجميع على ان اللفظة فارسية معربة. ولكن مع عجمة هذه اللفظة والاختلاف في تفسيرها لم ير المجمع بأساً من تقريرها المدلول كلمة « فيلا ». ولا أعلم ما الذي أخرج المجمع فأحوجه الى ركوب هذا المركب الذي اقل ما فيه ابدال كلمة عجمية بكلمة عجمية وقد كان له غنى عن ذلك في لفظة « دارة ». قال في القاموس: « الدارة المحل يجمع البناء والعرصة وهي أخص من الدار. ولم يذكر صاحب القاموس ما تميز به الدارة عن الدار. ولكن دارات العرب مشهورة، وقد كانت مواقعها خارج المدن. وتفزل الشعراء بها دليل على انها كانت على جانب من الأناقة. وكل هذا ينطبق على تحديد كلمة « فيلا » جاء في تفسير هذه اللفظة في معجم لاروس une maison de campagne élégante فهل من حرج بعد هذا في تخصيص لفظة دارة لهذا المعنى لا سيما وفيها ما فيها من اللطف والرشاقة ان اهم شرط في حياة ما يوضع من الالفاظ الحديثة هو ان يراعى فيه ذوق العصر الذي نحن عائشون فيه. وإن قريشاً لم تغلب لغتها على سائر اللغات في شبه الجزيرة لكونها أفصح العرب فالنبي إنما استرضع في بني سعد، بل ان لغتها تغلبت لانها كانت أعلم العرب باختيار الفصح من الالفاظ اي انها كانت اصحهم ذوقاً فكانت تنقي من الفاظ العرب عند اجتماعهم في مكة ألفتها وقعا على الآذان. وبهذا استظهرت لغتها على غيرها من لغات القبائل وتمت بها الوحدة المنشودة. فالواجب السير على هذه الخطة عند وضع الالفاظ الحديثة ليكون العمل مثمراً

وأختم كلامي الآن بشكركم أيها الحضور الكرام على ما أوليتموني من فضل اصفاكم، والدعاء للعاملين في سد حاجات هذه اللغة بالتوفيق في مسعاهم، لتظل هذه اللغة الشريفة متابعة سيرتها الاولى في خدمة الحضارة والعمران، قائمة بالغرض الذي يطلب منها على تقلبات العصور والازمان

حشرة سان يوزى

وصولها الى مصر في ابريل الماضي

للككتور محمد منير برهت

وكيل المحجر الزراعي المركزي بوزارة الزراعة



﴿ تمهيد ﴾ ترتد تسمية هذه الحشرات بالقشرية الى الغلف التي تغطي معظمها . وقد تكون هذه الغلف قطنية او قرنية او جلدية او دقيقية او شمعية وتختلف شكلاً وحجماً ولوناً والحشرات القشرية انواع كثيرة تنقسم تبعاً لتركيب غلفها الى حشرات ذات قشور صلبة وحشرات قطنية وبق دقيقي وحشرات رخوة او جلدية

لا تلبث هذه الحشرات عقب تولدها بالتفريخ بأيام قلائل حتى تكون مغطاة دائماً بالقشرة المميزة لنوعها ويختلف عدد سلاطاتها السنوية ووقت تفريخها وخواص اطوارها الاخرى باختلاف نوعها وموسم ظهورها وموطنها . فبعض الحشرات القشرية يقتصر في تغذيه على نبات واحد في حين ان البعض الآخر يتغذى باصناف من النباتات عديدة . والحشرات القشرية تصيب جذور النباتات وسوقها الاصلية وفروعها واغصانها وأوراقها وثمارها . وتمتص العصارة من انساج النبات بأجزاء الفم وهي شبيهة بالابر وبعضها يفرز مادة عسلية كالندى تجتذب النمل والنحل والزناير وغيرها وقد ينمو بعض الفطر على هذه المادة العسلية فيبدو الجزء المصاب من النبات مغطى بمسحوق اسود يشبه « الهباب »

﴿ توزيعها الجغرافي ﴾ موطن حشرة سان يوزى (Aspidiotus perniciosus comst.) الصين . وهي تنك بالحوخ الصيني المعروف بالزهر في منطقة التلال الفاصلة الصين الاصلية عن منغوليا ومنشوريا . وقد استورد المستر م . لك الذي كان قاطناً في سان يوزى بولاية كاليفورنيا في سنة ١٨٧٠ بعضاً من الشجر المصاب من هذا الحوخ فأدخل تلك الآفة الخطيرة في الولايات المتحدة الاميركية . وفي سنة ١٨٨٠ عثر كومستك على تلك الآفة ووصفها وما لبثت طويلاً حتى عم

انتشارها في تلك المنطقة من كاليفورنيا ثم تفتشت في جميع الولايات المتحدة الاميركية . وبعد سنين قلائل من استقرارها وشيوعها تعذر استئصالها لتأخر القيام به . ثم نقلت على بعض شجيرات الفاكهة من الولايات المتحدة الى جزائر هاواي وشيلي واستراليا . وبعدئذ تسربت الى بلاد المكسيك والارجنتين . وهي الآن منتشرة في جهات عديدة من اليابان وزيلندة الجديدة وتسمانيا وجنوب افريقيا واوربا الوسطى ورومانيا واسبانيا والبرتغال علاوة على ما ذكر . وفي اوائل سنة ١٩٣٢ عثر عليها باسواق الفاكهة في باريس على تفاح اميركي . وفي ٨ مارس من تلك السنة نفسها صدر قرار وزاري فرنسي بمنع دخول جميع الثمار المصابة بهذه الحشرة فلم يعثر عليها بعدئذ في فرنسا . وفي اوائل ابريل سنة ١٩٣٧ عثر عليها لأول مرة على تفاح استرالي وصل الى جمرک بور سعيد لبيعه في مصر . وفي اواخر ابريل من السنة نفسها عثر عليها ايضا على شحنة كبيرة من التفاح الاميركي بجمرك الاسكندرية . أما الشحنات المشار اليها فقد حجزت في جمرک بور سعيد والاسكندرية

هذا وحشرة سان يوزي ليست من حشرات مصر ولم توجد بها مطلقاً
﴿ أطوارها ﴾ ان هذه الحشرة بفض الطرف عن غرابية أطوارها التي هي أشبه شيء بقصة خيالية توالد فتكثر بسرعة مذهشة . فقد أحصي النسل الناشء عن أنثاها الواحدة فإذا هو زهاء ٤٠٠.٨٠٠ر٣٢١٦ حشرة في الموسم الواحد اذا ما صادفها أحوال جوية ملائمة ولم تهلك أية حشرة منها

وصغار الحشرات تولد احياء . وقد يصل العدد المتولد من الحشرة الواحدة الى ٤٠٠ أحياناً . أما عدد أجيالها فأربعة في السنة غالباً . وهذه الحشرة وان كانت تشاهد بجميع أطوارها المختلفة على النباتات في فصل الخريف إلا ان معظمها ينعدم في الشتاء سوى القليل من صغارها التي تمضي الشتاء وهي مستكنة . فإذا ما جاء الربيع شرعت في امتصاص العصارة وكبرت في حجمها حتى يتكامل نموها وعندئذ تبدأ أنثاها في وضع صغارها بمعدل ٩ او ١٠ كل يوم مدى ستة أسابيع . وقبل توقف الامهات عن الولادة بأسبوع تشرع صغارها التي ولدت في الاسبوع الاول وتكامل نموها في الولادة وهكذا . هذا والصغار بعد ولادتها بساعات تبدأ في امتصاص العصارة ثم تشرع في افراز كتلة من الألياف القطنية أو الشمعية لا تلبث حتى يتدخل بعضها في بعض فينشأ عنها الغلاف القشري للحشرات

والغطاء في أول الأمر أبيض مستدير في وسطه تنوء صغير ثم يسود خلال أسبوعين أو ثلاثة وأخيراً يصير ذا لون سنجابي . والاناث وحدها تفقد أعينها أثناء الانسلاخ الاول في حين أنها والذكور معاً تفقد فيه أرجلها وقرون استشعارها . وهذه الذكور ذات أعين أرجوانية

اللون كبيرة وهي تتحول بالتدريج بعد انسلاخين آخرين الى حشرات كاملة لها أجنحة رفاق
لونها برتقالي . أما الاناث فتظل كل واحدة منها مستديرة الشكل منبسطة وتزاوج مع الذكور
بعد انسلاخها الثاني

﴿ وصفها ﴾ الحشرة الاثوية البالغة تكون مستديرة تقريباً ومحدبة قليلاً وفي حجم رأس
الدبوس قائمة اللون في صغرها سنجابية عند بلوغها ذات حلقة سوداء في وسطها تحيط بها قناة
سنجابية فاتحة اللون . اما الحشرة الذكرية فقائمة اللون سنجابية تضرب الى السواد وأصغر
من الانثى كثيراً وطولها ضعف عرضها

وحشرة سان يوزي ويقال لها ايضاً حشرة الصين القشرية عبارة عن قشرة وحشرة حقيقية .
فالقشرة ضئيلة الحجم غير ظاهرة ولكن يسهل تمييزها على انساج النبات الطرية بوجود بقع
محول قواعدها . اما الحشرة نفسها فقد توجد تحت هذه القشرة الواقية لها وقد لا توجد وهي
رخوة الجسم صفراء كالليمون . وانماها مستديرة تقريباً بينما الذكر اكثر استطالة منها واطوار هذه الحشرة
تستري النظر لان الذكر منها وهو في طور الشرنقة يختلف كثيراً بعد الانسلاخ الاول عنه في
الانثى . فالذكور لها عين ارجوانية كبيرة في حين ان الاناث ليس لها عين مطلقاً وهذا ما قد
اصطلح عليه ريلي « بالطور السابق الشرنقة » الذي توجد فيه وسائل للاجنحة بينما تكون
الانثى قصيرة غليظة . اما الطور التالي المعروف بالشرنقة الحقيقية فتستطيل فيه قرون الاستشعار
والارجل . اما الحشرات الكاملة فتخرج من تحت قشورها متراجعة الى الخلف وفي حالة الاصابة
الشديدة تكون الاجزاء المصابة مغلقة تماماً بقشور متضامة تعيش تحتها الحشرات

﴿ النباتات التي تمولها ﴾ جميع الحشرات القشرية تلحق الضرر بالنباتات على نمط واحد هو
امتصاص العصارة وتجريد انساج النبات من الغذاء . وهناك تأثير فسيولوجي ينشأ عن مواد تفرزها
الحشرات القشرية في النباتات لكنه قليل الشأن لان الشجرة التي لم تضعف جداً لفقدان
الغذاء تدعش ثانية متى ابيدت الحشرات . وقد تغطي القشور الشجرة المصابة اذا تركت
وشأنها بغير علاج سنة او سنتين فاذا ما مضى عليها سنتان اُخريان ماتت او صارت عديمة الفائدة
وتوجد حشرة سان يوزي على اي جزء من النبات وفي حالة اصابة الثمار بها تشاهد عادة مجتمعة
حول عنق كل ثمرة وتسبب عليها بضعاً حمراً صغيراً وكذلك الحال في اللحاء الداخلي للشجرة
المصابة حيث يكون في الغالب مصطبغاً باللون الارجواني في مواضع يجمع هذه الحشرات
وسرعة توالد هذه الحشرة مع سهولة « تأقلمها » تجعلها شديدة الخطر وهي تعيش في مختلف
الاجواء حارة وباردة رطبة وجافة وغذاؤها يختلف باختلاف موطنها ولكنه ينحصر في شجر
الفاكهة والزينة وفي الاعشاب

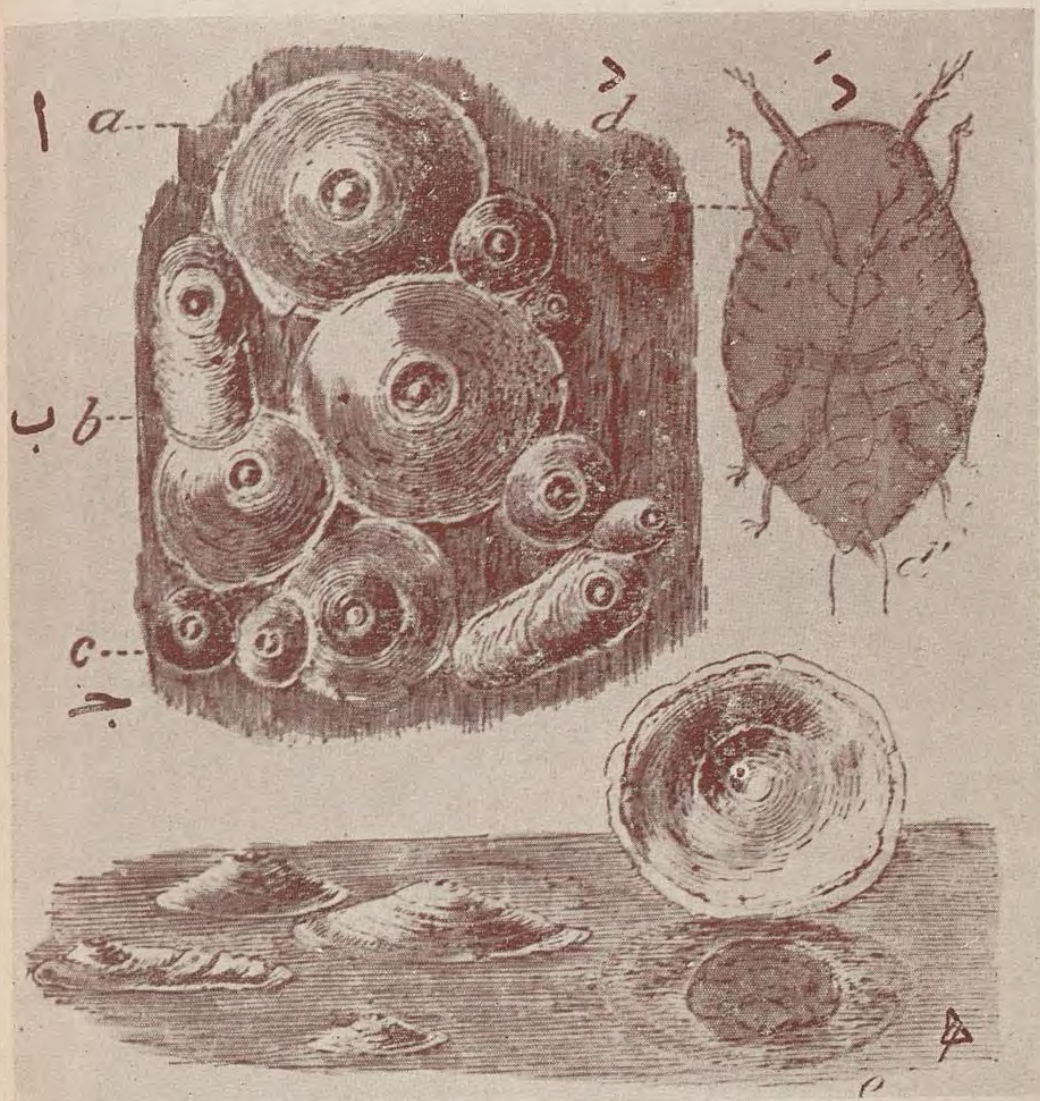
كانت حشرة سان يوزي في اول الامر آفة شجر الفاكهة ولا سيما الخوخ الذي ما زال عرضة للاصابة الشديدة بها . وكذلك صنف الكمثرى المعروف بالدوشس Duchess والصنف الآخر المعروف بالبارتلت Bartlett تشتد اصابتهما بها بينما صنف الكمثرى المسمى كيفر Kieffer بظل منيعاً . اما البرقوق المعروف بالبلو دامسون Blue Damson فاكثراً قابلية للاصابة بها من اضافة الاخرى . والسفرجل والتفاح عرضة للاصابة بها ولكن صنف التفاح المعروف بين ديفس ويلوترانسبيرانت Ben Davis & Yellow Transparent اكثراً عرضة للاصابة من اضافة الاخرى العادية . اما شجيرات الريدس Current bushes فاذا ما اصابها هذه الحشرة تلفت او ماتت . وقد يصاب بها الكريز الحلو . اما اضافة الحمضة فنيعة تقريباً . وكروم العنب لا تصاب عادة لكنها قد تصاب اذا ما غرست بجوار اشجار اصابها شديدة . وتوت امريكا المعروف باسم مالك لورا اورانتيا Maclura aurantiaca واسمه الانجليزي اوسج اورنج Osage orange اذا ما غرس كسياج نباتي اصاب اصابة شديدة واتخذته الحشرات القشرية مكاناً آميناً لا يضارع لتوالدها — وأصناف الورد العديدة عرضة للاصابة عادة اما الاشجار الآتية وهي الاجاس المسمى (Pyrus aucuparia Mountain Ash) وشجر لسان العصفور الابيض المسمى (Fraxinus alba) or F. americana White Ash وشجر اليبلاق المسمى Lilac (Syringa vulgaris) وزهاء مائة نوع آخر من اشجار الغابات عرضة للاصابة بها

﴿ وسائل انتشارها ﴾ (١) مجرد زحفها على الفروع المتعانقة (٢) بواسطة الرياح الشديدة (٣) بحملها على اقدام الحيوانات وأجسامها ولا سيما الطيور والحشرات التي تفوقها حجماً (٤) على شجيرات الغرس المصابة (٥) بالشحنات الزراعية المصابة المستوردة من الخارج ﴿ طرق مقاومتها ﴾ من المعلوم ان اباددة بويضات الحشرات بالرش اصعب من اباددة الحشرات نفسها التي لا بد لها من استنشاق الهواء حتى ولو كانت الاخيرة في حالة كمون جزئي . وقد اشرت الى ان حشرة سان يوزي لا تقضي فصل الشتاء في طور البيضة فالحشرات الصغيرة تكمن في فصل الشتاء تحت قشورها . ولما كانت حشرة سان يوزي القشرية لم يعثر عليها مطلقاً في مصر فانه اذا اتفق وتسربت الى داخلية القطر من النطاق الجركي بسبب ما فلا بد من اتخاذ الوسائل الفعالة الآتية لمقاومتها : —

١ — ان يكون رجال الحجر الزراعي بالجمارك على حذر من ان تتسرب حشرات اخرى الى داخلية القطر

٢ — الامتناع عن شراء شجيرات الفاكهة من المشاتل المصابة

٣ — علاج شجيرات الغرس المصابة بالمشاتل في كل سنة حتى تستأصل الحشرات القشرية



حشرة سان يوزي القشرية « ا » الحشرة الانثوية البالغة « ب » الحشرة الذكرية « ج » الحشرات
الصغار « د » اليرقة عقب تولدها « د » اليرقة نفسها مكبرة كثيراً « ه » قشرة مرفوعة ليشاهد جسم
الحشرة الانثوية تحنها . وهي جميعاً مكبرة كثيراً أخذاً عن (كوينتانس)

- ٤ — تقليم النباتات المصابة التي يمكن انقاذها في البساتين وحرق مخلفات التقليم
٥ — قلع جميع الاشجار المصابة التي لا يرجى نفعها وحرقها
٦ — احكام رش الاشجار المصابة في فصل الشتاء بمحلول الجير والكبريت او ببعض المستحلبات الزيتية

٧ — الاستمرار في الرش سنة فسنة طالما عثر على اي اثر للحشرة القشرية

٨ — عمل الترتيب اللازم لمكافحة هذه الحشرة بالوسائل البيولوجية

﴿الرش﴾ الطريقة الشائعة المعول عليها لمقاومة الحشرات القشرية هي الرش . وقد وجد ان الرش بالمواد المناسبة في الوقت اللازم اذا اجري كما يجب مرة في السنة كان كفيلاً بقمع الحشرة ومنع ضررها . اما المواد المجربة والمعتبرة خير المواد لرش حشرة سان يوزي القشرية فهي مخلوط الجير والكبريت وكذا بعض المستحلبات الزيتية . اما المواد الأخرى كالصودا الكاوية وزيت السمك والصابون والكبروسين النقي ومستحلباته ومنتجات البترول المنوعة والمستحضرات المعروفة بمبيدات الحشرات القشرية فهي أقل تأثيراً مما تقدم

﴿العلاج بالغمس﴾ تستعمل هذه الطريقة فقط في علاج شتلات الغرس . فالغمس في المواد الموافقة اذا توافرت فيه جميع الشروط اللازمة يقتل أية حشرة قشرية قد تكون على الشتلات وقت العلاج من دون ان يلحق بها أي ضرب . والمحلول الذي يستعمل هنا هو بوجه عام المحلول المستعمل في الرش الا أنه يكون عادة اكثر تركيزاً والشائع هو استعمال محلول الجير والكبريت والزيت القابلة للذوبان ومستحلب الكبروسين والارجح منها هو الاول فهو أقل خطراً وفعله يضارع فعل أي واحد منها . ولا بد من تخفيف المستحضرات التجارية لمحلول الجير والكبريت بنسبة جزء واحد منه الى كل سبعة أجزاء من الماء . ومدة الغمس هي دقيقة واحدة وبعدئذ توضع الشتلات المعالجة على مسطح منحدر بحيث تكون قمتها الى اسفل ليصفي عنها السائل . وينبغي ان لا تنفس الجذور لكيلا يلحقها تلف ولا ضرر اذا تصادف وقوع بعض السائل على الجذور الكبيرة ويراعى ان تكون الشتلات المعالجة في حالة كمن تام . ويلزم عند استعمال الزيوت القابلة للذوبان ان تخفف كما لو اريد استعمالها في عملية الرش — اي تخفف بنسبة جزء واحد من الزيت لكل خمسة عشر جزء من الماء . اما عند استعمال مستحلب الكبروسين فيجب تخفيفه بنسبة جزء واحد من المستحلب لكل سبعة أجزاء من الماء

﴿التدخين﴾ يحسن تدخين شجيرات الفاكهة قبل نقلها من المشتل الى محلها الدائم بالبستان . والعادة ان يستعمل غاز الحامض الهيدروسيانيك بالنسبة الآتية لكل مائة قدم مكعبة من الفراغ

سيانيد الصوديوم (٩٥ ٪ نقاوة) اوقية
حامض الكبريتيك النقي اوقية
ماء اوقيتان

ولا بد من استمرار عملية التدخين مدة تتباين من نصف ساعة الى ثلاثة ارباع ساعة ويجب ملاحظة عدم التدخين وشجيرات الفا كهة مبتلة لان وجود الرطوبة يجعلها عرضة للتلوث — كذلك يتحتم اجراء التدخين في صناديق او غرف محكمة الاغلاق — هذا وقد دلت التجارب على ان التدخين اذا جرى بدقة واتبعت فيه الشروط السابقة لا بد من ان يقتل الحشرات القشرية التي على شجيرات الفا كهة المعالجة بدون احداث اي ضرر بها

﴿ الوسائل البيولوجية ﴾ تظل حشرة سان يوزي القشرية مغلوطة على امرها في موطنها الاصلي (الصين) بواسطة الحشرة الاسيوية المسماة *Chilocorus simulis* Rossi وكثير من الحنافس التي بالولايات المتحدة الاميركية تقتذي بحشرة سان يوزي القشرية واكثرها نشاطاً الحنافس المعروفة باسم *Chilocorus bivulnerus* Mulds والنوع الصغير جداً الاسود اللون المسمى *Microwisea misella* Lec. وكل من الحشرات الكاملة واليرقات للحنافس المشار اليها تقتذي بحشرة سان يوزي القشرية. وفي ولاية ماستشوستس من الولايات المتحدة الاميركية قامت حشرة *Prosaltella perniciosi* Tower بالتغذي متطفلة على حشرة سان يوزي القشرية فكان له من اعظم الازر في تلاشها. هذا وقد ربي الدكتور هاورد الحشرات الطفيلية الآتية اخذاً من حشرة سان يوزي القشرية وهي : —

<i>Physeus varicornius</i> How.,	— ٥	<i>Aphelinus fuscipennis</i> How.,	— ١
<i>Prosaltella surantii</i> How.,	— ٦	<i>Aphelinus mytilaspidis</i> Le B.,	— ٢
<i>Alberus elisiocampae</i> Ashm.,	— ٧	<i>Aspidiophagus citrinus</i> How.,	— ٣
<i>Rhopoides citrinus</i> How.,	— ٨	<i>Anaphes gracilis</i> How.,	— ٤

هذا وبعض الطيور الصغيرة قد تقتذي بحشرة سان يوزي من وقت الى آخر ثم ان حشرة سان يوزي القشرية وكثيراً من الحشرات القشرية الاخرى عرضة للاصابة بأنواع الفطر . وقد قام الفطر المعروف باسم *Sphaerostile coccophila* بما كان له الاثر الجليل في عرقلة انتشار حشرة سان يوزي القشرية بولايات فلوريدا وجورجيا والولايات الاخرى التي تحيط بخليج المكسيك ولا يخفى ان الرطوبة من اهم ضروريات نشأة هذا الفطر وتطفله

كيمياء الفيتامينات

التمهيد لصنعها بالتركيب الكيميائي

ومكانة الضوء والاشعة التي فوق البنفسجي في ذلك

هذه العوامل الخفية في مواد الغذاء، التي تحول دون بعض الامراض، وتشفى بعضها، وتحصن الجسم فلا تتأله العدوى من دون كفاح، لقد عرفناها بتأثيرها، وتبينها في الاغذية التي تكثر فيها، فما هي على حقيقتها، والى اي المركبات الكيميائية تمت بصلة، وهل من المنعزل عنها ومعرفة قوامها ثم تركيبها بحيث تؤخذ في كل بلادها ما تبين الاقليم واختلاف الغذاء وتطبخ لكل حلق سوائه في زيت السمك كانت ام في غيره من مواد الغذاء النيئة والمطهية؟ من اوقع المشاهد في النفس في تاريخ العلم الحديث تسابق العلماء وتنافس المعامل في حل مشكلة علمية عند ما تتضح لهم عناصر تلك المشكلة، بل وقبل ان تتضح. لذلك قضى العلماء نحو عشرين سنة من ١٩٠٨ الى ١٩٣٠ وكانهم يتلمسون في شكل الفيتامين طريقهم في الظلام. فعجزوا عن عزل الفيتامين وصنعه بالتركيب الكيميائي. ثم اعلن خلال بضعة اسابيع في سنة ١٩٣١ ان فيتامين D قد استحضرت بلورات نقية في لندن وجوتنجن وهولنده وايقانسفيل بأمركا كان الطريق الى النجاح طريقاً وعراً. اتاحت الفرصة في غير منعطف واحد من منعطفاته لكشف السر، ولكن ما كان معروفاً عن الفيتامين، لم يكن وافياً، فضيقت الفرصة، وظلت المشكلة قائمة. ففي سنة ١٩٠٨ وضع احد الباحثين ثمانية جراء كلاب في حجرة مظلمة فأصابت بالكساح، حالة ان جراء اخرى تركت طليقة فلم تصب بها، مع ان الطائفتين كانتا تتغذيان بغذاء واحد. وأثبت باحث آخر سنة ١٩١٢ ان جراء الكلاب تصاب بالكساح اذا حرمت من ضوء الشمس. ولاحظ هري ستينبوك احد مساعدي ماكولم الأول عند ما كان في وسكنسن^(١) ماغزاً يمثل الجير ويبنيه في عظامه مدى اسابيع وهو يمرح في ضوء الشمس، ثم جعل يفقد هذا الجير عند ما حبس في حجرة مظلمة مع ان غذاءه كان واحداً في الحالين. ولكنه لم يمرض في البحث لان الكلاب التي جرب فيها امتحان هذه المشاهدة لم تسفر عن نتيجة فانصرف عن

هذا الموضوع الى آخر . وفي سنة ١٩٠٨ لاحظ هولدتشنسكي احد اطباء برلين ان الكساح اقل في الفصول المشمسة منه في الفصول الغائمة الماطرة

فقال هولدتشنسكي : لعل ضوء الشمس هو العامل الفعال في توليد الفيتامين ، وقد تمكن فعلاً من شفاء اطفال المان مصابين بالكساح ، بتعريضهم لاشعة منبعتة من مصباح بخار الزئبق ثم ثبت لباحثة تشغل بمعهد لستر بلندن ، ان المادة المقاومة للكساح في زيت السمك هي نفس المادة التي تولد بفعل الضوء . ونشرت بحثها في سنة ١٩٢٢ فاذا فيه وصف تجارب جربها فشفت جرذاناً مصابة بالكساح ، بتغذيتها باكباد الجرذان بعد تعريضها للاشعة المنبعتة من مصباح بخار الزئبق . ولكنها لم تتابع البحث فوفقت عند هذا الحد . وفي السنة التالية (١٩٢٣) تمكن ثلاثة من الاطباء الداعين الى عبادة ضوء الشمس من الناحية الصحية ، من كشف فعل ضوء الشمس الفسيولوجي ، كل على حدة ، وهم الفرد هس بنيويورك وغولدبلات بلندن وستينوك بماديسن وسكنصن . فقد وجه ثلاثهم الاشعة التي فوق البنفسجي الى مواد غذائية لا تحتوي الا على يسير من فيتامين D فكثر هذا الفيتامين فيها

وكانت طريقة ستينوك غاية في البساطة . فقد ربى هو ومعاونته بلاك جرذاناً في حجرة مظلمة ، وغذاها بطعام يسبب الكساح وكان طعاماً مركباً وفقاً لوصفة وضعها ماكولم الخبير العالمي في هذا الموضوع ، فظهرت اعراض الداء على الجرذان . فعرض ستينوك عندئذ عناصر الغذاء للضوء ، ثم غذى بها الجرذان المسجونة في الحجرة المظلمة والمصابة بالكساح ، فشفيت منه . فحرب هذا الاسلوب في اطعمة اخرى ، ليس فيها فيتامين (د) او هو يسير جداً فيها ، فصح . فسجل طريقة هذه في سجل «البانتة» الاميركي واستخرج امتيازاً باستعمالها ، وغرضه على ما قال وقاية الجمهور من استعمال الشركات المختلفة لهذه الطريقة استعمالاً قد لا يكون صحيحاً ولا سليماً . وكان رقم هذا الامتياز ١٦٨٠٦٨١٨ فحوّله عند الفوز به الى جامعة وسكنصن ، مبيحاً لاحدى هيئاتها الرسمية الاتفاق مع الشركات التي تبغي استعمالها ، اتفاقاً يضمن استعمالها الصحيح . وما يجنى من هذا الاتفاق يتفق على تشجيع المباحث العلمية في الجامعة نفسها

وعلى الرغم من كل هذا ، وجه اعتراض شديد لحصر ثمار البحث العلمي المجرد ، وتكليفها بامتيازات خاصة ، لان هذه الثمار يجب ان تباح للناس

واذن فالضوء قد ركب في هذه المواد شيئاً جديداً فيها . فظن ستينوك ان «الكولوليسترول» Cholesterol هو موطن هذا التركيب . والكولوليسترول مادة توجد في جميع الخلايا الحية . فلما أخذ الكولوليسترول وعرض للاشعة التي فوق البنفسجي ظهر انه لا يشفي الحيوانات المصابة بالكساح . فانصرف ستينوك عن هذا البحث الى آخر وهو سبب فقر الدم في الجرذان وشفائهم.

ولكن غيره والى البحث . وفي سنة ١٩٢٦ أذيع من ثلاثة معامل في انكلترا والمانيا وأميركا ان المادة التي يحولها الضوء الى فيتامين هي المادة المعروفة باسم ارجستيرول « Ergosterol » وكان من المتداول بين العلماء ان مادة « الارجستيرول » هذه توجد في انساج النبات والحيوان في مقادير بسيرة جداً هي أقل من واحد في المائة . وهذه المادة ليست دهناً كما ظن أولاً بل من طائفة من المواد العضوية تعرف باسم «ستيرول» وقد وصفت بأنها « جذر شجرة الحياة ومن فروعها الفيتامينات والأتوار (الهرمونات) والانزيمات (الانزيم مادة كيميائية معقدة يولدها الجسم العضوي تحلية الخميرة فتستطيع ان تحدث تحولاً كيميائياً كنتخيز السكر)

فلما وجد العلماء أمامهم مادة كيميائية معينة أكبوا على البحث . وفي ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣١ أذيع أول بناء من أبناء النجاح . ذلك أن أدولف فندوس Windaus الاستاذ بجامعة غوتنجن وحائز جائزة نوبل الكيمياء ، تمكن من تحضير فيتامين D في بلورات خالصة من الشوائب بتعريضه «الارجستيرول» للأشعة التي فوق البنفسجية ثم استخلاص الفيتامين D منه . وقد وجد فندوس أنه اذا عرّض «الارجستيرول» لأشعة معينة من الأشعة التي فوق البنفسجية تمكن من الحصول على بلورات تكفي ثلاثة أجزاء من بليون جزء من الجرام منها لشفاء الكساح حالة أن جزءاً من خمسة آلاف جزء من الجرام منها يفعل فعل السم . ولم يفتض شهر على ذلك حتى أذاع المعهد القومي للبحث الطبي بلندن استحضاره بلورات فيتامين D ودعاها « كالسيفيرول » Calciferol وجرى مستقلاً في تحضيرها على نفس الطريقة التي جرى عليها فندوس أي بتعريض الارجستيرول للأشعة ثم أعلن باحث أميركي يدعى تشارلز بلز Bills — وقد كان أحد تلاميذ ما كولم — أنه تمكن من تحضير فيتامين D بالتركيب الكيميائي وذلك بمعالجة الارجستيرول بغاز أكسيد النتروجين (نيتريك أو أكسيد) لا بتعريضه للضوء . إلا أن الفيتامين الذي حضره لم يكن نقياً ، ولكن وجه الخطر في اذاعته ، اذا صحّت ، أنه أول من صنع الفيتامين بالتركيب الكيميائي لا بالإشعاع . ولا يزال الباحثون يجدون وراء التركيب الكيميائي لفيتامين D من حيث ترتيب الذرات المختلفة في جزيئه وما كاد فندوس يعلن استفراده لفيتامين D النقي حتى اذاع باحث في جامعة بتسبرج يدعى كنف King فوزه بفيتامين C في بلورات نقية . فسبق في ذلك طائفة من أشهر المعامل الكيميائية المعنية بالموضوع في أنحاء العالم

أقبل كنف على هذا البحث سنة ١٩٢٥ وكان من المسلم به ان الليمون الحامض غني بفيتامين C المقاوم للاسكربوط . ولذلك عني به جماعة من العلماء يحاولون ان يستخرجوا منه هذا الكنز الصحي . ولكن البحث اعياهم فانصرفوا عنه . اما كنف فلم يتطرق القنوط اليه . فأخذ يصير عشرات من « فصوص » الليمون وجرب بكل وسيلة من وسائل الكيمياء ان يستخرج منها الفيتامين

التقى . وكانت كل مرتبة من مراتب تجربته خاضعة لقواعد الضبط العلمي . وكان قد خطر له ان الاوكسجين يتحد بفيتامين O فينتقله فصنع اجهزة تمكنه من عزل العصير عن الاوكسجين باحلال النتروجين محل الهواء في اجواء الآنية التي كان يشتغل بها . واستعمل الارانب الهندية لامتحان فعل العصير في مراتبه المختلفة . وكان كلما قلَّ العصير باستبعاد الاجزاء السائلة منه ، يمتحنه بحقق هذه الارانب به ، فرأى فعله في مقاومة الاسكربوط يزداد فاعتقد انه أصبح قريباً من الفوز بالمادة النقية وفي ٤ ابريل سنة ١٩٣٣ بعد سبع سنوات من البحث المضني المستمر ، استفرد كينغ من لوز كامل من عصير الليمون خمسين مليغراماً من بلورات اثبت انها بلورات فيتامين O التي وبعد ذلك اكبَّ كينغ على حل هذه المادة النقية لمعرفة تركيبها الكيميائي فثبت له انه (٦٦ يد ١٨ ك ٦) $C_6H_8O_6$ وهذه المادة تباع الآن باسم سيبيون Cebione وتؤخذ عن طريق الفم في حبوب كل حبة منها سنتغرام (جزء من مائة من الغرام) ويقال انها تحتوي على مقدار من فيتامين O يعدل مقداره في ملء قدح من عصير البرتقال (٣٠ سنتغراماً مكعباً) . ثم تناول بول كارر احد علماء زورنخ البحث في ترتيب الذرات في جزيء من هذا الفيتامين ويقال ان كيميائياً انكليزياً صنعه بالتركيب الكيميائي بعيد ذلك

وبعد ذلك توالى استفراد انواع الفيتامين الاخرى فولد فيتامين A بتعريض الكاروتين (المادة التي تسبب اللون الاصفر في الجزر وهي مادة عضوية) لامواج الضوء من طول معين على نحو ما ولد فيتامين D بتعريض الارجستيرول للاشعة التي فوق البنفسجي ثم استخلص الفيتامين نقياً منها . وصاحب هذا البحث يدعى درمند Drummond وهو احد كيميائيي لندن

اما صورة فيتامين A الكيميائية فهي كما يلي : ك ٢٠ يد ٢٩ ك ١ $C_{20}H_{29}OH$ ولكن ترتيب الذرات في الجزيء لم تستوف معرفته بعد . ومن الغرائب ان فيتامين A في حالته النقية زيت كثيف ثقيل الوزن وقد وجد في الدم والكبد والطحال والكظرين (الغديتين اللتين فوق الكليتين) وبعض اعضاء اخرى . والرأي ان هذه الاعضاء تتناول الكاروتين من الطعام فيتحول الى فيتامين A بفعل اثرهم خاص ويخزن

وتلا ذلك تحضير فيتامين B فحضّر فندوس الالماني مادة ظن انها بلوراته النقية وذلك في سنة ١٩٣٢ ولكن روبرت ولينز الاميركي ، فاز في يناير سنة ١٩٣٥ ببلورات فيتامين B النقية من قشور الرز . ويمتاز ولينز على غيره من الباحثين بانه حقق ترتيب الذرات في جزيء الفيتامين الذي استفرده وصورته الكيميائية $C_{12}H_{16}N_4O_8$

وفي شهر أغسطس من السنة نفسها (١٩٣٥) أعلن افانز استفراده لفيتامين E واستخلاصه في بلوراته النقية . ولا يخفى ان لهذا الفيتامين صلة بالناسل من جهة (راجع مقتطف يونيو

١٩٣٧ ص ٣٥) وبالسرطان من جهة أخرى. ذلك ان باحثاً كندياً تبين في سنة ١٩٣٤ ان الفئران التي تتغذى بغذاء يكثر فيه فيتامين E تصبح أشد مناعة من غيرها وأقل تعرضاً للإصابة بالنواحي السرطانية. ويؤيد هذا ان باحثاً في جامعة ايلينوي لاحظ ان القراخ التي تتغذى بغذاء يعوزه هذا الفيتامين تبدو فيها نواحي شبيهة بالنواحي السرطانية. فاستقراد هذا الفيتامين وتحضيره بلورات نقية سيسهل ولا ريب البحث العلمي المضبوط في هذين الموضوعين الخطيرين، التناسل والسرطان أما فيتامين G فلم يستحضر بعد نقياً من الشوائب وتركيبه غير معروف. فقد ظن أولاً ان فيتامين B و G واحد وظل الرأي كذلك حتى أثبت جولد برجر وغيره من رجال مصلحة الصحة الاميركية ان هناك فيتامينين في فيتامين B الذي يذوب في الماء وما يعرف الآن بفيتامين G. مؤلف في عرف بعض الباحثين من مادتين كيميائيتين لا بد من تلازمهما لمنع البلاجرا اما فعل فيتامين G في منع البلاجرا فلا يزال فيه مجال للبحث، ورأي جولد برجر لم يقبل بحذافيره. ومن هنا بعض العقبة دون التوصل الى استفراد هذا الفيتامين ومعرفة تركيبه الكيميائي ان البحث في الفيتامين على النمط المتقدم ليس فوزاً لعلم الكيمياء البيولوجية فحسب، بل هو فوز كذلك للعلم المطبق في الصناعة. فإذرة الارجستيرول المعالجة بالإشعاع لتحويلها الى فيتامين D تدخل الآن في غذاء ألوف ألوف من الصغار وكذلك الخبز المشبع به وهو يصنع بإشراف معهدين علميين بالولايات المتحدة وكندا. ثم ان الناس يستهلكون كل سنة مقادير كبيرة من الحميرة واللبن الجاف والبسكويت وغيرها من الاطعمة بعد اضافة الفيتامين D اليها او توليده فيها. وتغذى الابقار بالحميرة التي وُجد فيها الفيتامين بالإشعاع ليزيد مقدار الفيتامين في لبنها وقد عمدت طائفة من مصانع الالبان الى تعقيم اللبن بأسلوب كهربائي خاص بحيث يحتفظ بما فيه من الفيتامين هذه بعض الحقائق المتصلة بموضوع الفيتامين، وهي على ما يرى القارئ كثيرة ومتنوعة، وليس همه منها بوجه خاص الا ما كان له علاقة بغذائه. وللعالم ما كوله كلمة مأثورة في هذا الصدد قال: «كل ما تشتهي بعد أن تأكل ما يجب». فما الاطعمة التي يجب أن تأكلها؟ اللبن والخضراوات الورقاء والفواكه والبيض ومقادير معتدلة جداً من اللحم. هذه هي الاطعمة التي تقيك من الأمراض الناشئة عن نقص الغذاء. ويجب ان يضاف اليها في حالة تغذية الاطفال والحوامل والمرضع زيت السمك وكل ما يحتوي على فيتامين D لأن مقدار هذا الفيتامين في الاغذية المختلفة التي يوجد فيها ليس كبيراً

قال الحكيم الفرنسي قديماً «ان الموت يدخل من الفم». وأثبت العلم الحديث ان طائفة كبيرة من الأمراض التي نصاب بها صغاراً وكباراً سببها نقص التغذية. هنا حكمة القدماء وعلم الحديثين مجتمعين!

المدرسة والطالب

والوطن

للكنوزة نزار و طرس

رئيس الجامعة الاميركية بالقاهرة

سيداتي ، سادتي : تحت هذا العنوان ، وفي هذا الموضوع المتسع الجوانب ، اريد ان ابحث في ايجاز المرحلة الدقيقة التي تجنازها الامة المصرية اليوم ، ونصيب التربية من هذه المرحلة ، ولا سيما ما قد تستطيع الجامعة الاميركية ان تسديته من الخدمات الجليلة ، المشبعة بروح الصداقة والوداد في هذا السبيل ، وان تك هذه الخدمات متواضعة في نوعها ، محصورة في مداها ولنسهل البحث اولاً بقياس الحياة القومية الجديدة التي تمتدحت عنها سيادة البلاد واستقلالها ، ولنساءل عن الفروق الناجمة عن هذه الحياة الاستقلالية ، وما اصبح الآن بفضلها مستطاعاً مما كان قبلها وبغيرها مستحيلاً . ان واضع هذا السؤال يمكن ان يكون احد اثنين : اولها ذلكم الذي لا يعنيه من هذه الحالة سوى اشباع ما ربه الذاتية وما يحجبه هو في هذا الموقف من النفع المادي . ذلكم الذي لا يحول بخاطره سوى الوظائف التي تفتح ابوابها امامه ، وما ينجم عنها من زيادة في المرتب ونقص في ساعات العمل . هذا هو الاناني الذي يدور محور تفكيره حول هذا الهدف : ترى ما الذي يعود عليّ انا من هذا الاستقلال ؟ واذا اتخذنا البلدان الاخرى مقياساً ، بما في ذلك بلادنا — ولايات اميركا المتحدة — فان عدد الذين يقتحمون ابواب الحكومة لغنم ما يستطيعون من الغنائم ليس بالقليل ، وليس ثمة ما يصدهم عن اشباع مطامعهم الاشعبية سوى سخط الرأي العام . بيد ان هناك والحمد لله ذلك النوع الثاني من ابناء الامة ، الغيور على وطنه ، الذي يتجه تفكيره شطر طريق مباين للنوع الاول . ذلك هو الرجل الذي يسائل نفسه : ما هي التبعات الجديدة التي تترتب على هذا الاستقلال ، فأتحمل نتائجها ؟ وأنى لي ان اقوم بنصيب منها ؟ وللاجابة عن هذا السؤال بروح الاخلاص المنزهة عن القرض ، خليك بنا أن نحلل الموقف وان نبدي ما عن لنا من الملاحظات الآتية :

يلوح لي بادىء ذي بدء أن فوز مصر باستقلالها التام ان يحدث في نظام حكومتها تغيراً يذكر ، وهذا امر يظهر في غاية الغرابة ، اذا قابلنا بين مصر اليوم وولايات اميركا المتحدة في بدء

عندها بالاستقلال . كانت تلك البلاد في ذلك الحين تتألف من ثلاث عشرة ولاية مستقلة بعضها عن بعض ، وكان عليها انشاء حكومة مركزية تضمها جميعاً تحت لواء واحد . وكان عليها ان تضع دستوراً ، وتنشئ مجلساً نيابياً ، وتنتخب رئيساً للجمهورية ، وتشيّد قاعدة في واشنطن ، وتؤلف وزارة ، وتنظم غير ذلك من المصالح المتشابكة التي تسير دفعة الاعمال في الحكومة الاتحادية الجديدة . بيد ان مصر لحسن الحظ أسعد حالاً ، وحالتها من هذه الناحية اقل تعقداً ، ومهنتها اخف عبثاً . فهي تتمتع بدستور راسخ البنيان ، ولها ملك شاب يبشر بمن طالعه بعمر مديد ، ولها مجلس نيابي قائم باعباء وظيفته خير قيام ، ولها وزارات حنكها الايام واكسبتها دراية وخبرة منذ عهد بعيد . وليس ثمة ما يحتاج البلاد اليه من الانظمة الجديدة مما يستحق الذكر ، وليس هناك ما يدعو لاعادة التنسيق في اي مرفق من هذه المرافق . وبلاد بلغت نظمها هذه المنزلة السامية ، تبشر بنجاح اكيد في حياتها المستقلة الجديدة

وعلى الرغم من ذلك فليس هناك من يستطيع اغفال الحقيقة الواقعة ، وهي ان هذا الاستقلال حادث تاريخي مشهود ، له اسمى منزلة في حياة الامة المصرية . ويظهر شأن هذه الصفحة الجديدة في تاريخ وادي النيل الخالد جلياً للعيان ، اذا ماشينها مصر بشاب يغادر لأول مرة منزله وأسرته ، ويزل في ساحة العمل مغامراً طلباً للرزق ، وامامه شبح المسؤولية مائل ، فلا يفتأ مناخياً نفسه : هل ترى يكون نصيبي الحية ام النجاح ؟ غير ان ابتهاجه بحياته الجديدة وحماسته المتقدة لا تفلان عن خشيته من أعباء المسؤولية ، ذلك لأنه بدأ يشعر حقاً بأنه هو المسيطر على نفسه ، المالك لزمانه . ولا يبرح هذا الشعور أن يقوِّي في نفسه العزيمة الصادقة فيقبل التضحية بصدر رحيب أملاً في النجاح مغامراً في لجة هذه الحياة الجديدة التي أخذ يخوض غمارها

لقد عدت الى مصر منذ شهرين بعد غيبة قصيرة في أميركا ، فأذهلني ما رأيت من دلائل الروح الجديدة منبئة في طول البلاد وعرضها ، وعلى الاخص في الناشئة . وأول ما شاهدته من هذه الروح كان في طلبة هذا المعهد حيث سمعت جمعهم ينشد في حماسة وقوة النشيد الوطني ، وشهدت بعد ذلك في دور السينما تصفيقاً حاداً كلما حقق العلم المصري على ساريات المباني والقصور . هذه المظاهر وأمثالها تنبئ بالشعور القومي الذي يمكن تسخيرها للعمل والخدمة

ولا ندحة عن أن تقتقر هذه الروح الجديدة التي تبلغ فيها الحماسة والوطنية مبلغهما الى التوجيه والارشاد . لقد سبقت الاشارة الى ذلك الشعور الاناني الذي يتخذ الاستقلال سلباً يصعد به الى ما ربه الذاتية . ولا يفوتنا أن نفوه كذلك بأن الوطني المتهب حماسة مع بعده عن الانانية ، وبراعة مقصده ، في حاجة ملحة الى هذا التوجيه وذاك الارشاد ، وإلا استحوالت وطنيته هتافات وخطباً جوفاء ومظاهرات بغير عمل ، وبدت في ثوب قومي قشيب يهر ظاهره

الأبصار ، وتجلت فيه مظاهر الأبهة والعظمة والادعاء ، وقد تتخذ الروح العسكرية لواغ الفضامة لمجرد الزينة لا أداة للذود عن حياض الوطن

على أن هذه الروح الجديدة يمكن توجيهها الى القيام بأجل الخدمات نحو الأمة كمكافحة الامراض الفتاكة التي حدثت برجال القرعة العسكرية في سنة ١٩٣٤ — ٣٥ أن يرفضوا ٨٢٪ من الذين تقدموا للفرز العسكري ، وكتوفير الماء النقي في كل قرية مصرية ، وانشاء المدارس القروية السكافية للقضاء على الامية في المناطق الزراعية ، وتأسيس المصانع إنقاذاً للبلاد من خطر الشبان العاطلين الذين لا يستطيعون الكسب من الزراعة ، وتطهير المدن من مهاري الرذيلة ، وازدحام المنازل الحظيرة بساكنيها ، مع خلوها من الوسائل الصحية ، وانشاء الملاعب النفسية للأطفال والنشئين حتى يشب رجال الغد أصحاء بدنياً وخلقياً ، واخلاء الشوارع من المتسولين والاحداث الهمل وغرس المبادئ التي تعمل على تنمية روح التعاون والتفاهم وحسن النية بين الامم ، ولا يخفى ما ينبغي أن يكون لمصر في هذا من النصيب الوافر لوقوعها على مفترق الطرق العالمية

كل هذا يحتاج إلى توجيه وإرشاد وزعامة من الطراز الاول ، في جميع مرافق الحياة القومية من اجتماعية ، واقتصادية وقضائية ، وتعليمية ، وسياسية . ونظراً لأهمية هذه المرحلة الجديدة التي تقطعها مصر في تاريخها الحديث ، فانها على استعداد تام ان توجه الهدف الى اسنى الاغراض وأعلى المثل ، طالما كان زعمائها في كافة المرافق الحيوية يتصفون بالنزاهة ، والبعد عن الغرض . وهنا يبدو ما للمدرسة من الشأن العظيم . وكيف يتسنى لنا ان نبحث عن زعماء الغد خارج دور التعليم ؟ اسمحوا لي أولاً أن أشدد النبرة على الصفات التي يجب توافرها في الزعامة ، ومنها تحكمون بأنفسكم على الاغراض التي تحاول بلوغها بما تزاوله من الاعمال في هذه الجامعة

الصفة الاولى التي يجب توافرها في الزعامة هي التماسك القومي وامتزاج الزعيم بالكتلة الوطنية لحماً ودماً . لان الزعيم على النقيض من «الكتاتور» الذي لا يحتاج الى التعرف الى هذه الكتلة أو العطف عليها ، إذ انه لا يعير التفاته الى شعورها ، ولان همه منصب على إملاء إرادته على الشعب بغير إشفاق او رحمة . وليس الزعيم الحق كذلك ، لانه يستوي مع الشعب إن لم يكن بحكم النسب فبالعاطفة والاماني . أضرب لذلك مثلاً بصموئيل غومبرز الذي أصبح من اكبر زعماء العمال في أميركا . كان ذلك الزعيم في الاصل شغوفاً بالموسيقى ، وكان يمكن أن يكون كوكباً لامعاً من كواكب الأوبرا ، ولكنه رأى بعينه العمال العاطلين يتضورون جوعاً بسبب إنشاء الآلات ، وسمع أحد عمال النسيج يهتف صارخاً : «رباه خذ حياتي بيدك ، زوجي واولادي في حاجة الى الخبز وأنا عاطل عن العمل» فألقى الغناء والموسيقى جانبا ، ووقف نفسه على خدمة العمال والعمل بينهم وهذا غاندي ، أتم دروسه الجامعية ، وكان من كبار رجال القانون ضليعاً من مهنته ، ولكنه

آثر ان يزج بنفسه بين أفقر طبقات الهندود وبذلك مهد لذاته السبيل الى الزعامة الحقة للملايين من شعبه . ومما يؤسف له ان المدرسة كثيراً ما تعجز عن بث هذا النوع من الزعامة في نفوس طلبها ، وكثيراً ما تجتهد الطلبة يساورهم الغرور والزهو وغيرها من الصفات التي تفقدهم شروط الزعامة ، وتعمي ابصارهم عن رؤية حاجات المجتمع ، ومطالب ابناء جلدتهم .

اننا في هذا المعهد نعنى كل العناية بهذه الناحية ، ونحاول أن نحلق في نفوس الطلبة روح العطف على الانسانية بفضل الرحلات والزيارات التي يقومون بها الى المستشفيات والملاجئ والقرى والأحياء المتواضعة في المدينة والسجون والمصانع ، ومن أهم أغراض هذه الزيارات العطف على السواد الأعظم من أبناء الأمة ، وهو من أجل صفات الزعامة

ومن الصفات التي لا ريب في وجوب توافرها في الزعيم الذكاء . ولسنا نعني بهذه الصفة الامام بما في بطون الكتب من المعارف ، انما نعني بها مجموعة الصفات اللازمة لحل المسائل العامة وتحليل المواقف وتقدير عواملها . فاذا ما خلقت هذه الصفة من زعيم كان مثله مثل جاهل يقوده جاهل مثله . وهذا النوع من الذكاء يتضمن ضرباً من حب الاستطلاع الصحيح . قيل عن المخترع الشهير توماس اديسون انه ولد وعلامة الاستفهام تخرج على شفتيه . فقد كان منذ نعومة اظفاره يطر والداه وابلاً من الاسئلة ، وكلما قال والده لا أدري اجابه الطفل اديسون ، ولم لا تدري ؟ وقد بلغت هذه الصفة فيه مبلغاً حمله على الاختلاف الى احواض السفن فيتدفق من فيه سيل الاسئلة ، حتى اقترح اولو الامر هناك ان يعين له موظف خاص للاجابة عن اسئلته انقاداً للموقف ، وتوفيراً لافاقات المهندسين والصناع

وكان العالم الطبيعي « أجسي » في حب الاستطلاع مضرب الامثال ، حتى ان حديقته ومنزله وحجراته الخاصة وجيوبه ، كانت على الدوام مكدسة بالنماذج التي يراد فحصها . وحدث مرة انه كان يتناول العشاء مع ضيوفه ، فأثيرت مناقشة حادة حول الفرق بين نوعين من الضفادع ، فما كان منه الا ان مديده الى جيبه وأخرج منه ضفدعاً تعزيراً لرايه ، فأدهش الحاضرين . ولا نعد حضرات والذي الطلبة وأولياء امورهم اننا نستطيع ان نبث في الناشئين في هذه الجامعة هذه الدرجة من حب الاستطلاع ، انما نعد اننا نستطيع ان نوقظ فيهم شديد الرغبة والشغف بالعلم حتى تدفعهم هذه الرغبة الى تجاوز الكتب المدرسية ، وتغريهم بحب البحث والتفتيح في بطون الاسفار في المكتبات العامة ، والتغفل بعد ذلك في عالم الحقيقة

والزعامة والطاقة صنوان لا يفترقان . ومن الخطأ المشاع ان الناس يفكرون في القوى الجمائية كما ذكروا كلمة طاقة ، في حين ان هذا التعبير لا قيمة له ، اذا لم يكن منصباً على صفة من صفات العقل ، وكانت هذه من ابرز الصفات التي اشتهر بها ابراهيم لنكون من رؤساء

ولايات اميركا المتحدة . وقد قيل عنه وهو شاب انه اشتغل مساعداً لمهندس مساحة ، فسار على قدميه عشرين ميلاً لدرس ما يتطلبه هذا العمل . ولما ان وجد انه لم يدر في عمله الجديد بعد هذا الجهد ، لم يثن ذلك من عزمه ، بل وصل ليله بنهاره ستة اسابيع حتى اشفق عليه جيرانه ، وحذروه من نتيجة هذا الاجهاد ، الذي يندر حياته بالخطر . غير ان ذلك لم يردعه بل ظل مجاهداً حتى ملك ناصية عمله . وكذلك عند ما عقد النية على الاشتغال بالحمامة ، فانه اخذ ينقب في اكداس من الاوراق عن نسخة قديمة الأثر ، بمعثرة الاوراق ، كانت تحوي مذكرات قانونية ذات شأن ، حتى عثر عليها ولم شعها وانكب على قراءتها واستيعابها حتى ألم بما فيها مع أنه كان في ذلك الحين يستعين على تكاليف الحياة من متجر يستغرق كثيراً من وقته الذهبي على ان السؤال الذي تتطلب جوابه — هل في استطاعة المدرسة ان تربي هذه الصفة في نفوس طلبتها ؟ واجابة عن هذا السؤال نعتقد ان هذا من المستطاع ، ان لم يكن في كل الاحوال ففي اكثرها . ولا نعتقد ان ذلك يتأتى عن طريق حشو الذهن وكثرة الاستدكار ، وتكديس المعلومات ، ولكنه يأتي عن طريق المناقشة ، وبخلق جو مدرسي تسود فيه اليقظة ، ويتوافر فيه النشاط العقلي . ومصر المستقلة في حاجة الى هذا النوع من الزعامة الذي يتوافر فيه معين لا ينضب من هذه الطاقة ، التي يتطلبها هذا المنهج من مرافق الإصلاح في شتى النواحي ومن أسمى صفات الزعامة سمو الخلق . وهنا ننقل من الكلام عن الصور الذهنية الى الصور الحلقية . فالزعم يجب ان يكون موضعاً لثقة الناس به ، لما جبل عليه من الاستقامة ورصانة الخلق . وهذه الصفة تفسر لنا النجاح الذي يصيبه الزعماء المتواضعون في كفاياتهم ، المتوسطون في مواهبهم العقلية . فهو لاء لو لم يتخلقوا بكريم الصفات لما كانوا موضع ثقة الناس فيهم ولما وفقوا الى ذلك النجاح كان هربرت هوفر من رؤساء الولايات المتحدة باميركا ، في خلال الحرب العظمى . وقبل ان يتقلد الرئاسة ، مضطعاً بادارة التموين فكان يسيل بين أنامله ملايين الريالات ، حتى انه كان يكفي ان تكتب التحاويل المالية الى هربرت هوفر وكفى . وقد بلغت هذه التحاويل زهاء مليونين وأربعمائة ريال في الشهر الواحد ومع ذلك فانه لم يخامر احداً خلة من الشك في طهر ذمته . فهل تدهش بعد ذلك اذا فاز برأسه الجمهورية ؟ اليست هذه الصفة المحمودة وهذا الإخلاص الصافي وتلك الامانة النقية هي التي جعلت لغاندي في الهند هذه السلطة التي لاحد لها بين الملايين من شعبه ؟ هناك بين الاسماء التي يتألق نجمها في سماء الإحسان ، وعمل الخير في انكترا اسم « جورج مولر » فقد انشأ خمسة ملاجئ كبيرة للإيتام بلغ مجموع من دخلها عشرين ألف نفس . وقد بلغ من شهرة هذه الملاجئ ان تدفقت سيول التبرعات والهبات والوصايا على خزيتها ، ومع ذلك فقد كانت تضحيته واستقامته وأمانته ابعد من ان يمس درهماً منها . وقد بلغت هذه الاموال مليوناً

ونصف مليون من الجنيتات ومع ذلك فقد مات ووراءه ثروة ضئيلة لا تتجاوز المائة والسبعين جنيتهاً. فهل تدهشون اذا اُسم بين الانجليز بزعيم المحسنين ؟

ان مصر المستقلة تطمح الى مكافحة الفقر والمرض والجهل بفضل زعمائها الاجتماعيين . وهؤلاء لا بد أن تتوافر فيهم صفة استقامة الخلق . وكثيراً ما يوجه الناس الى معهدنا بعض الاتقادات بدعوى اننا نفصح في مناهجنا مجالاً واسعاً لدرس الاخلاق والاكثر من الاندية والجماعات والحلات ، غير ان لدينا ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه كلها في مقدمة ما ينبغي ان نغني به معاهد التعليم اذا شاعت مصر المستقلة ان تبلغ أمانيتها القومية

وأخيراً اذكر تلك الصفة العظيمة التي تتطلبها الزعامة ألا وهي سعة الاطلاع واتزان الحكم . فمن السهل جداً ان يكون المرء متصفاً بالتعصب ، اي انه يركز رأيه في نقطة ضيقة محدودة ، غير ان الزعيم الحق هو ذلكم الرجل الذي يحيط بالمسئلة من جميع نواحيها وينظر الى الموقف نظرة فاحصة عامة في مجموعه . ولو ان موقع مصر الجغرافي في مكان الافغانستان او في منطقة بحيرة شاد في افريقيا بعيداً عن الامم الاخرى ، لما احتاجت الى اتساع الافق فيما يتعلق باتصالها بالامم الاخرى . ولكن مصر لا يتسنى لها ان تعيش في منأى عن غيرها من الامم ولا يمكن ان يرضى شعبها لها ان تكون كذلك . واذاً فلا بد لها من الاتصال بغيرها من الدول وهذه العلاقات الدولية من شأنها ان تزيد الحياة رغداً وغنى ورفاهية اذا حسن وضعها في الموضع اللائق بها . ولا يتاح لها هذا الا بسعة الاطلاع ومرونة التفكير وهنا نلقي سؤالاً . كيف يتسنى تربية هذه الخلق في الناشئة ؟

في هذه الكلية سبع عشرة جنسية يتلقى طلبتها العلم معاً متعاونين ويتعلم الواحد منهم كيف يحترم جنسية أخيه . غير ان السواد الاعظم من الطلبة هم من المصريين إذ تبلغ نسبتهم اربعة وسبعين % في المائة من المجموع . ومن ذلك يتبين أن المجال هنا فسيح للقومية والاممية على السواء ، استعداداً للزعامة التي ننشدها في مصر . ونقول في الختام ان الاستقلال الصحيح لا يتم بالاتفاقات السياسية ، كالمهادنة مع بريطانيا ، او اتفاق مونترو ، او دخول مصر في جمعية الامم . وهل يمكن ان يكون الاستقلال الصحيح منحة لشعب من الشعوب ؟ أليس الاستقلال هدفاً تبلغه الامة بالنصب والسكد ؟ ألا يكون تدعيم هذا الاستقلال في كل ناحية من مرافق الحياة ؟ اذا كان هذا صحيحاً فان تحقيق استقلال مصر التام لا يأتي بحوادث سنة ١٩٣٧ السياسية وحدها ، ولكن بجهود الحيازة التي تتوالى بعد هذا التاريخ ، تلك الجهود التي ترفع مصر الى ذروة المجد القومي في حياتها الاقتصادية ، حياتها الاجتماعية ، وحياتها العقلية والثقافية ، كما في حياتها السياسية . والى هذا المرمى نسعى جاهدين ، وفي سبيل تحقيق هذه الصفات في الناشئة نوجه جهودنا جادين

ازاحة الستار عن تمثال

الدكتور صرُوف

في جامعة بيروت الاميركية

وصف الحفلة وملخص ما قيل فيها

في الساعة السادسة من مساء الاحد ٢٠ يونيو الماضي احتفلت جامعة بيروت الاميركية بازاحة الستار عن تمثال الدكتور يعقوب صرُوف ، وهو التمثال الذي أهدي اليها من قبل جماعة من اصدقاء الدكتور صرُوف ومتخرجي الجامعة في مصر ، فشهد الاحتفال جمع حافل من الالعيان والوجهاء والنواب وقد وضع التمثال مؤقتاً في الساحة الكبرى التي تتوسط بعض بنايات الجامعة على دكة عالية للخطابة جلس عليها سعادة الدكتور عبد الرحمن الكيالي وزير المعارف السورية والاستاذ يوسف اقيموس رئيس جماعة متخرجي الجامعة الاميركية والدكتور عبد القادر العظم مدير الجامعة السورية بدمشق والاديب زكن شخاشيري نيابة عن والده سكرتير لجنة التمثال بمصر الدكتور شخاشيري والدكتور يارد ضودج رئيس جامعة بيروت الاميركية وفي الوسط جلس العلامة الدكتور فارس نمر باشا رفيق الدكتور صرُوف وشريكه في عمله وجهاده العلمي . وينظر ان ينصب التمثال نهائياً في حجرة المطالعة الكبيرة في مكتبة الجامعة

وكان في مقدمة الحضور صاحباً الدولة والسعادة عبد الفتاح يحي باشا وتوفيق دوس باشا وحضرة الدكتور مصطفى شوقي وسواهم من الضيوف المصريين الكرام وقد دعوا خصيصاً بناء على رغبة منهم في حضور هذا الاحتفال بشخص نفع الاقطار العربية بعلمه وأدبه وخدم النهضة فيه ، وحضر كذلك نجيب بك صرُوف نجل الدكتور صرُوف وقد جاء من مصر خاصة لهذا الغرض وعند الساعة السادسة افتتح الدكتور ضودج الحفلة بخطبة بالانكليزية قال فيها : منذ ٧٠ سنة قامت هنا كلية صغيرة كانت مؤلفة من ١٦ تلميذاً . فكانوا البذرة الاولى التي تزرع في الارض وبين هؤلاء فتى يدعى يعقوب صرُوف جاء ليعد نفسه لعمل عظيم يعمله في المستقبل فعلم هذا التلميذ وأخذت معارفه تنمو وتزداد حتى أخذ في عمل عظيم وجعل بعمله هذا يوقظ الأرواح العربية ويدعوها الى رفع الغشاء عن عيونها . والآن نكرم هذا الرجل ونحن نرجو ان يأتي

في السبعين سنة القادمة سواء ينسجون على منواله ويبذرون مثل البذر التي بذر
ثم طلب من سعادة الدكتور عبد الرحمن الكيالي ان يفضل باراحة الستار عن تمثال هذا الرجل العظيم

خطاب الدكتور كيالي

سيدي سادتي : أنتم وأنا من هذا المعهد ركن الثقافة ومنار الفضيلة تخرجنا فيه وحمدنا
الله تعالى وشكرناه وخرجنا الى ساحة العمل

انا عشنا نرى من تقدمنا ونتطلع اليهم لنرى أعمالهم وآثارهم في هذا المعهد وكان من أهم
مارأيناه فكان نبراساً لنا، مجلة خدمت العلم والادب والنهضة العربية هي مجلة «المقتطف» الزاهرة أقرأها
أنا وأنتم بل يقرأها العرب في جميع بلدانهم وأقطارهم ومثلي من كان يتعلم من صفحاتها ما نقصه
العلم به وما هذا الا من فضل هذا الرجل الذي تحتفي به اليوم ونطلب الى اخوانه ان يتمموا
الرسالة التي بدأها تحقيقاً لا مال كل من نطق بالاضاد . ان المرء اذا مات انقطع عمله الا من
ثلاث : علمه وصدقه وولد يدعو له ، وخير الناس من انتفع بعلمه على عمر الايام

ان الحكومة الجمهورية السورية التي شرقتني بهذا اليوم يسرها ان أقف أمامكم لارفع هذا
الستار عن تمثال رجل لا هوجي خالد بالتمثال بل بالقلوب وان أبناء أمة الضاد الذين يعيشون تحت
سماء هذه الاقطار أحراراً سيعلمون كيف يخلدونه في قلوبهم . واني بهذا الشرف العظيم أزيل
الستار عن وجهه الكريم (تصفيق حاد عند ما أزال الستار)

من كلمة سكرتير لجنة التمثال

لما نعى الناعي الدكتور يعقوب صرّوف في التاسع من يوليو سنة ١٩٣٧ ادرك تلاميذه
واصدقائه هول المصاب فيه والخسارة العظيمة التي نزلت بالعلم والادب والصحافة بفقدته فقد كان
رحمة الله عليه رجلاً فذاً في علمه الواسع وقلمه البليغ وخلقه العالي . ولست في مقام المؤرخ
فاذكر ما كان له من نصيب وافر وسهم نافذ في النهضة الفكرية في الشرق العربي طول سبع
وخمين سنة اي من يوم ان تلقى الشهادة العلمية من رئيس هذا المعهد الجليل سنة ١٨٧٠ في اول
فرقة تخرجت فيه الى يوم وفاته فانه رحمه الله خدم تلك النهضة في حجرات التدريس اولاً
فكان مثلاً للمعلم الصالح والمربي الفاضل يقرن العلم بالعمل ويهذب النفس والعقل جامعاً بين التدريب
العلمي والمثل المحتذى في اسمى وجوه التربية متوخياً في ذلك المنفعة والخدمة الصادقة لبث روح
العلم الصحيح للعلم ذاته . ثم انشأ «المقتطف» مع زميله وشقيقه الروحي الدكتور فارس عمر باشا
(مد الله في عمره) في حضن هذه الجامعة فقضيا نحو عشرين سنوات ونصف سنة يدرسان فيها ويصدران
المقتطف عنها وليس لها بغية سوى نشر العلم لمن لم تتح له اسباب التعليم . ولما خرج المقتطف من

نطاق الجامعة ورأى أصحابه ان يقفا وقتها عليه اصبح العالم العربي بأسره حجرة تدريس للدكتور صرّوف يطوف عليه في كل شهر بمقتطف جامع لزبدة العلوم المختلفة وثمار الآداب المتنوعة والمعارف الطريفة مقارناً بين النظري والعملي من الآراء وبين القديم والحديث والشرقي والغربي في اسلوب طلي لا يضارع وبلاغة لا تداني سمتهما الوضوح وجودة السبك وسهولة السياق الى المعنى المقصود . ولما بلغ « المقتطف » الخمسين من عمره الحافل اعترف العالم العربي له بالخدمات الجليلة التي اسداها الى الناطقين بالضاد في الحفلة الكبرى التي اقيمت في دار الاوبرا الملكية بمصر برعاية جلالة ملكها وفي الحفلة الكبيرة التي اقيمت في وست هول بيروت في مساء اليوم نفسه . ولما انطفأت شعلة ذلك العقل الناضج وسكن القلم الذي كان ينشر العلم الصحيح والادب الرفيع والاخلاق العالية في ربوع الشرق فيغذي النفوس ويقف العقول بشتات العلوم والمعارف اجتمع نفر كبير من عارفي فضله في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٨ في النادي الشرقي بمصر وتألقت منهم لجنة لاهياء ذكره باقامة اثر له في وطنه مكونة من ميشال بك لطيف الله رئيساً وامين مرشاق اميناً للصندوق وكاتب هذه السطور سكرتيراً وجورج زنايري باشا ونحيب غناجه والمغفور لهم نحيب شكور باشا والدكتور نعمة الله طحان بك ويوسف خلاط بك ورشيد ثابت اعضاء وانضم اليهم فيما بعد الاستاذ خليل مطران والآنسة مي والاستاذ سامي الجريديني ويوسف دبانة بك . وفي ٨ ابريل سنة ١٩٣١ قبلت اللجنة استقالة امين مرشاق من امانة الصندوق وطلبت من حضرة صاحب السعادة اسعد باسيل باشا ان يتولى امانة الصندوق فقبل ونشرت اللجنة خبر انضمام سعادته الى اللجنة مع خبر قبول جامعة بيروت الاميركية اقامة التمثال فيها في مقطم ٢٥ ابريل سنة ١٩٣١ ومن ذلك التاريخ خطت اللجنة بالمشروع خطوات سديدة تكللت بفضل من تقدم ذكرهم وبفضل حضرات المتبرعين الآتية اسمائهم بالنجاح الذي فازت به ووصلت اليه . وهذه اسماء المتبرعين أصرح بها الآن اعترافاً بفضلهم وشكراً على نجاتهم وكرمهم وهم : —

الدكتور سليم آل دباغ الموصللي . احمد افندي الالفي . جورج بك انطونيوس . احمد حسن . محمود ابو حسين بمقلوط . رشيد ثابت . محمد خليل الديب . الدكتور كامل هلال . ظاهر الرئيس . الدكتور يوسف غبريل . ركس ميخائيل انطون مطران السريان الارثوذكس بالقدس . خويلد حسن وشركاه . ابراهيم ديمتري بك . لجنة مشروعات مجلة الكلمة بحلب . ليا بركات . ثابت ثابت . الدكتور عبدالله منصور . معهد الموسيقى الشرقي . جورج اشقر في بيروت . ديمتري بك خلاط . الدكتور نحيب يونس . القس طانيوس سعد . الدكتور اسعد عطيه . ويحسن بي الآيفوتي التنويه بفضل صاحب السعادة اسعد باسيل باشا الذي كان له في احياء ذكرى الدكتور صرّوف اليد الطولى والاثر البارز ولا سيما الجائزة السنوية التي تبرع بها ونشرت تفاصيلها في مقتطف مايو الماضي وقدرها ١٠ جنيه مصري



الدكتور عبدالقادر العظم مدير الجامعة السورية يخطب في حفلة ازاحة الستار عن تمثال الدكتور صرّوف



الدكتور فارس نمر باشا يخطب في حفلة ازاحة الستار عن تمثال الدكتور صرّوف

كلمة الأستاذ يوسف افييموس

ثم وقف الأستاذ يوسف افييموس رئيس جماعة متخرجي الجامعة وألقى خطبة استهلها بقوله مخاطباً صاحب التمثال وقد كان من تلاميذه في الجامعة : —

سيدي الأستاذ في هذا الحمي كم علينا لك من فضل ودين
أسفي تبدو على منبره صامتاً بل اثرأ من بعد عين
هالي والله ما أشهده عوض الله بثاني الفرقدين

وجال الأستاذ افييموس جولة في الكلام عن التمثال وصاحبه الحكيم الكريم الباحث المنقب العالم الجليل وعن النهضة التي يقظ روحها في بلاد العرب وتكلم عن معاصريه الاحدب والبستاني والاسير واليازجي وعن زهرة الآداب وعن العازار والنقاش وغيرهم . وطفق يتكلم في كل هذه الصفحات الى ان قال ان التاريخ سطر فيها اسمي صرّوف ونمر بين المبع اسماء الرجال الذين تفانوا في خدمة هذه البلاد وبلاد مصر الشقيقة

صرّوف ونمر الاسمان المتقاربان المتلازمان صرّوف ونمر الفرقدان اللذان مشيا جنباً الى جنب مجاهدين متضافرين في سبيل الوطن واللغة والعلم والسياسة صرّوف ونمر ضربا للشرق مثلاً في الجد والنشاط والاستقامة والوطنية والتجملد في تنظيم الامور

ثم عاد الى الكلام عن التمثال وحده وعن صاحبه الذي له في كل خزانة مجلدات ضخمة من آثاره ومما قاله لم ينصب التمثال في مكتبة الجامعة ولصاحبه فيها أكثر من تسعين تمثالاً هي مجلدات صرف عليها ليالي السنين الطوال وختم كلامه محيياً صاحب التمثال ورفيقه في جهاده سعادة العلامة الدكتور فارس نمر باشا

كلمة الدكتور عمر القادر العظيم

سيداتي . سادتي : أشكر حضرة الرئيس الكريم — الدكتور ضودج — ما أولاني من شرف عظيم اتاح لي فرصة المثل بين أيديكم لالقاء كلمة وجيزة باسم الجامعة السورية في هذه الحفلة العلمية التذكارية . ان الجامعة السورية لسعيدة جداً باشتراكها في هذه الحفلة لانها جد حريصة على توثيق عرى الصلات الثقافية بينها وبين شقيقها الكبرى الجامعة الاميركية ان فقيه العلم والادب المحتفى بذكره هو ابن الجامعة الاميركية هو ابن العروبة وفوق ذلك هو ابن العلم والثقافة اللذين لا وطن لهما . ابن الانسانية الحرة السامية التي لا تعرف الحدود الجغرافية ولا الفوارق الجنسية بل تقدر النبوغ والفضيلة ايها وجدا . أليست هذه الحفلة التي يقيمها رسل الثقافة الاميركية المشبعون بهذه الروح العالية وهذا التمثال التي أقاموه تقديرأ لشخصية

صاحبه الفذة شاهدين على ما أقول ؟ ان كلمة الحق لا يليق بها أن تبقى محتبئة كامنة في النفس بل يجب على اللسان ان ينطق بها وعلى الآذان السامعة ان تلتفها لتدخل أعماق القلوب . هذه الكلمة التي لا ينكرها أحد من سكان البلاد العربية قاطبة ولا سيما البلد الذي تظللنا سماؤه والبلد الذي قدمنا منه هي كلمة الجهر بفضل الجامعة الاميركية وأثرها البعيد في نهضة هذه البلاد العلمية والثقافية ان هذه البلاد ساحلها وداخلها ثغورها وعواصمها تنطق بالجميل وتذكر دوماً بيض الايادي لهذه الجامعة — الشيخة الفتيّة — لانها كانت وما زالت مهلاً فياضاً للعلوم والفنون يرتادها أبناء هذه البلاد فيرشفون من معينه العذب ما يروي ظمائم وينقع اوارهم

أجل سادتي ان الجامعة الاميركية — شيخة وفتية — في أن واحد انها شيخة الجامعات في بلادنا بقدما واختبارها وحكمتها . فتية بخطتها وتجدد برامجها ونشاطها . واذا اقترنت الحكمة بالنشاط كان النجاح محققاً والارتقاء مضموناً . اتنا كيف وجهنا انظارنا نرى اثر الجامعة الاميركية في نهضة بلاد العرب الاجتماعية وفي تكوين الفئة المختارة من رجالها وشبابها . نراها في مصر حيث بعثت برسلها ينشرون المبادئ الحرة التي اقتبسوها . نراها في العراق حيث يتقلد تلاميذها المناصب ويدبرون شؤون الامة . نراها في فلسطين وفي الشرق العربي حيث يرفع خيريجوها ألوية الفخار لها واخيراً نراها في سورية ولبنان حيث عمّ فضلها وانتظم عقد ابنائها كاللآلي يزدان بهم جيد هاتين الجمهوريتين الفيتيتين فيرئسون المجالس ويتولون الوزارات ويتزعمون الامة فهم كنوزها ومفاخرها عدتها في الحوادث وسندها في الملعات والكوارث

فاذا كانت الامم تعتر بجامعاتها لانها عنوان نهضتها ورمز اعتلائها ورفعها فاحر بأبناء هذه البلاد ان يعزوا بهذه الجامعة لانها انجبت لهم رجالاً كباراً يهتدون بهديهم ويسترشدون بوجيههم فيقودونهم في مراقي التقدم والنجاح واذا كان الفضل يعرفه ذووه حق علينا ان نقر بفضل جامعة هذا شأنها وان نطلب لها اطراد الرقي في ظل رئيسها الهام واساندها الجهابذة الاعلام والسلام عليكم

وبعد هذا وقف الدكتور ضودج وقال لا يمكن ان نكرم المرحوم الدكتور صرُوف من دون ان نكرم الدكتور فارس نمر الحاضر بيننا فقد عاد بعد سنين طويلة الى المدرسة التي ربه

كلمة الدكتور فارس نمر باشا

سيداتي سادتي : منذ اكثر من ٥٣ سنة في مثل هذا الاسبوع من سنة ١٨٨٤ وضعت يدي بيدي صاحب هذا المثال وفارقنا هذا المعهد الذي تعلمنا فيه اربع سنوات وعلمنا عشر سنوات وولينا وجهنا شطر مصر العزيرة وقال لي رفيقي نحن نفارق سوريا ونقابل مصر فان كنا رجالاً اظهرنا مقدرتنا ورجعنا ممدوحين

هذه الكلمة ترن بأذني الآن بعد ٥٣ سنة وها أنا الآن بعد هذه السنين الثلاث والخمسين
اعود الى هذا المنبر فكم كنت اود لو كان رفيقي واقفاً الى جانبي الآن وواضعاً يده بيدي
قالوا تغيير العادات صعب . حقيقة ان في هذا القول صحة . انني اعتدت ان اعد رفيقي صديقاً
وأخاً حقيقياً وقضيت العمر والناس يظنون اننا اخوان يفتنا قرابة . نعم ان الصداقة اذا تمكنت
تحل محل النسب وأؤكد لكم ان هذا الرجل اخي الذي سبقني بعشر سنوات كان لي أخ غيره
ولكن صرّوف هو بالفعل اخي ولو وجد في اللغة كلمة اشد من كلمة أخ لكنت استعملها
قلت تغيير العادات صعب وكما كنت اسمع احد الناس يمدحه لم ارد الكلام بمثله نظراً لما
كان الناس يرونه من النسب بيني وبينه خوفاً من ان يقال عني مادح نفسه يقرؤك السلام ، بل كل ما
فيل له كنت اراه يقال لي . وهكذا امتزجت حياتنا حتى كنا افرغنا في قالب واحد
وشاهدي على ما اقول ياسادتي انني منذ بضعة اشهر نلت رتبة الباشوية التي انعمت بها عليّ
مصري تقيت اكثر من ٣٠٠ الى ٤٠٠ رسالة تهنئة واكثر هذه الرسائل معنونة بصاحب السعادة
صرّوف عمر باشا (ضحك من الجمهور) انا اقبل ذلك نعم نحن واحد ولسنا اثنين
وأبلغ من ذلك زوجت بالأمس كريمة المرحوم سعيد باشا شقيق ابنة ابنة المرحوم الدكتور
صرّوف فكان عرسها هادئاً ما طنطننت به الصحف . وما قولكم برسول مجلس الوصاية جاء يهنئي
بزواج هذه الابنة التي هي ابنة ابنة الدكتور صرّوف باعتبار انها ابنة فارس نمر
انا واقف هنا واخاف ان تغلبي عواطفني ويظهر ضغي امامكم ايها السادة فكيفما التفت يمينا
ويساراً تتوارى امام عيني الصور والحوادث التي اتحدنا بها فاخشى ان تغلبي
ان الرابطة بيننا وبين الجامعة الاميركية هي «المقتطف» . وقفنا مرة في بناء لم اعد اعرف اين
هو من هذه الابنية التي تغير بعضها وتجدد البعض الآخر وجعلنا نقبل مجلات وصحفاً انكليزية
فالتفت اليّ رفيقي وقال ما قولك لو انشأنا مثل هذه الصحيفة قلت ولكن ليس لدينا علم ولا مال
فصحيفة مثل هذه تحتاج الى الامرين . فقال لا بأس اننا نجعلها من ٢٤ صفحة
قررنا انشاء الجريدة وذهبنا الى استاذنا الدكتور كرنيليوس فاندريك رحمة الله عليه فقلت
« خطر لنا خاطر وهو ان ننشئ جريدة عربية فقال ولكنكم تحتاجون في هذا الى المال قلنا
ان الله يبسر وعولنا على انشاءها وقلنا ماذا تعطينا اسماً لهذه الجريدة ففكر قليلاً وقال «المقتطف»
فاسم «المقتطف» واضعه بالاصل فاندريك . ذكر الاستاذ يوسف افيموس الرجال الذين عاصروا
نشأة تلك الجريدة وهم : الاحدب واليازجي والبستاني والاسير وقد كانت كتاباتهم واقوالهم
ولاسيما البستاني منهم تذايع شرقاً وغرباً . وصدر «المقتطف» ولكنه كان صغيراً وبعد مدة صدر
«لسان الحال» وهو من عمر «المقتطف» الا بضعة أشهر فكنا كعائلة واحدة واخذنا نشغل معاً

قلت ان عملنا كان يحتاج الى مادة علمية ومادية ولا يمكن لعالم ان يذيع مؤلفاته الا اذا كان عنده مال وقد وجدنا ان «المقطف» لا يمكن ان يثبت الا اذا وجدنا له المال فنشاورنا في هذا وهذا وحده هو الذي جعلنا ننشئ «المقطف» لا لقصد ان نقلب ممالك وحكومات بل لكي نساعد «المقطف» مالياً. ولكن الرياح يا سادتي تجري بما لا تشتهي السفن ولقد جعلنا السياسة في المقطف راسخة على الاساس الذي كنا نعمل به في هذا المعهد وهو خدمة الحقائق . وهكذا جعلنا نعمل للحقائق ولكننا نسئنا ان العالم غير ذلك ، نسئنا ان هناك احزاباً ومبولا وأخذنا نتخبط في ذاك الخضم ونصطدم بأواجه حتى ادى بنا الحال الى غضب سلطتنا السلطان عبد الحميد فنغني ومنع رفيقي من الدخول الى هذه البلاد ومنعنا من ان نرسل اولادنا الى التعلم في مدارسها

وأخيراً غير الناس افكارهم بنا والفضل بذلك لآخي هذا الذي كان يعامل الناس كأنه طفل صغير . نعم الفضل بذلك لآخي الذي كان مثال الدعة والامانة والاستقامة

ولو اردت تعرف حقيقة صرُوف قد تظني مبالغاً اذا قلت انه عند ما كان يقال امامه شيء لا يريد ان ييؤح بحقيقته كنت تقرأ هذا على وجهه لانه كان يحمر وأنت تحدته كان في معاملته صادقاً وكان زهده غريباً فالذي بهم الناس لا يههم ابداً واذا كنت تريد ان تعرف صرُوف ففتش عنه في غرفة ربه جالساً وامامه كتاب يقرأ بهدوء ثم بعد بحث طويل يأتيني ويقول وماذا بعد هذا؟ وماذا بعد هذا؟ يأتي حاراً ويقول لا اعلم ماذا بعد هذا؟ انه الان يعلم !! قالوا ان الارواح تتخاطب بعد الموت فليمة وفاته جلست في سريري انتظر ان يأتي ويكلمني ولكنه لم يجيء وفي الليلة الثانية جلست على سريري انتظر ان يكلمني ولكنه لم يكلمني كذلك. ولكن الانسان لكي يعلم يجب ان يؤمن لان كثيراً من الاسرار مغلق لا يمكن فهمه يا آخي انت الان تعلم. انت سبقتني من عشر سنوات ولما توفيت لم احزن كثيراً لانني قلت اني سألحق بك بنفس السنة . اما وقد مضت عشر سنوات ولم الحق به اشعر بأنني وحدي في هذا العالم . شقيق ذهب عني . ذهب وتركني في مكان مفتوح

كلما سمعتم من المدح به حقيقة بل دونها . فلو مد الله بعمره لاستفاد هذا الشرق كثيراً منه . آخي صرُوف يجلس الان بين اساتذته فانديك وبليس ووربات وبوست وهو الخامس بينهم . ان هذا قليل جداً عليك يا آخي . فاشكركم يا سيداتي وسادتي على حفاوتكم هذه

وهنا ارتقى المنبر نجيب صرُوف بك نجل الفقيه الكبير وألقى كلمة باسم اميرته وجهه فيها الشكر الى اللجنة التي تولت الاشراف على صنع التماثيل والذين تبرعوا بالمال له والسيدة التي صنعتها والجامعة الاميركية التي رحبت به وجميع الخطباء والسيدات والسادة الذين حضروا الحفلة

الفعل الرباعي

أصله ونشؤه ومعانيه

لـ لايمس فـ ربحم

دكتور في الفلسفة من جامعة شيكاغو

درس « العامية » درساً علمياً غريباً عنا، وذلك لان نظرنا الى العامية يختلف تماماً عن نظر الغرب ولذا بقي درس اللهجات العربية العامية من اختصاص المستشرقين على الغالب . واطن ان السبب في ذلك هو اختلاف في وجهة النظر . فالعربي ، حتى من اقدم العصور الاسلامية ، يعتقد ان اللغة العربية الفصحى كانت يوماً لغة التخاطب كما انها كانت لغة الشعر والادب . ثم ان العرب عند خروجهم من الجزيرة واختلاطهم بمن جاورهم من الفرس وباقي الامم « فسدت ملكتهم » وداخلت لغتهم العجيبة ^(١) وانت ترى هذا الاعتقاد سائداً جميع الذين كتبوا قديماً وحديثاً في اللغة العربية وتاريخها . ولكن علماء الغرب المستشرقين يعتقدون ، وهم في اعتقادهم على صواب ، ان اللهجات العربية كانت عديدة وان الفصحى كانت لغة الشعر والادب ، وربما كانت لغة بعض الخاصة في المجتمعات الادبية ، واما عامة الناس فكانت تتكلم لهجات تختلف باختلاف الامصار والاحوال الشخصية . ويعتقدون ايضاً ان كثيراً من ظواهر العامية تعود بتاريخها الى عصر قديمة حتى قبل ظهور الاسلام ، ثم انهم يعتبرون ان اللغة المحكية هي اللغة الحية الحقيقية . ولذا تراهم ابدأ ينقشون عن خفايا العامية لعلهم يتوصلون الى حل كثير من المشكلات التي تعترضهم في درس الفصحى

ان الغرض من هذه العجالة البحث في ظاهرة لغوية لا اعتقد انها استرعت نظر الباحثين اللغويين ، اعني كثرة الافعال الرباعية العامية في اللهجات العربية المحكية . وسأحاول ان أبين كيف يلقي درس العامية كثيراً من النور على طائفة من المسائل اللغوية الغامضة . وقبل التعمق في

(١) عند ما يراجع الباحث ما قيل في مسألة وضع النحو ، او عند ما يراجع تاريخ النحو والنحويين يرى هذا الاعتقاد مكرراً مراراً . يقولون ان اللغة فسدت في زمن علي وعلماء اللغة لا يرتاحون الى مثل هذه النظريات التي تقول بنشوء لهجات في بضعة سنوات . فورا الظواهر اللغوية احيال واحيال

البحث لا بد ان نعتذر الى القارئ اذا اكتفينا باليسير من الامثلة خوفاً من ان يكون بعض الامثلة مجهولاً عنده، ولسكتنا نقصد توجيه نظر القارئ الى كثرة الاوزان الرباعية في لهجته الخاصة اذ لا شك عندنا انه بعد قراءة هذه المقالة يتبادر الى ذهنه عشرات من الامثلة التي لم يفتن اليها قبلاً **﴿الجذور﴾** الكلمات في جميع اللغات السامية ترد الى جذور. ويمكن تقسيم هذه الجذور الى قسمين، الاول، وهو القسم الاكبر، يشمل الكلمات التي جذورها تتضمن فكرة اصلية لاتعداها، وهذه الفكرة صفة ملازمة لمجموعة الحروف التي تؤلف ذلك الجذر. خذ مثلاً قتل، قيل، اقتل، استقتل، فانها جميعها ترد الى جذر يتضمن فكرة اصلية هي القتل وهذه الفكرة صفة ملازمة لهذه الحروف في هذا الترتيب الخاص. والقسم الثاني يشمل الكلمات التي لا يمكن ان ترد الى جذر يتضمن فكرة اصلية محددة معينة، بل تتألف من عناصر اولية من شأنها الدلالة والاشارة، وهذه عريقة في القدم، ويقع تحت القسم الثاني الضمائر والموصولات والاشارة وبعض الادوات^(١) الروابط. مثال ذلك الضمير «أنت» فانها تتألف من عنصرين الأول «أن» وهو عنصر إشاري كما هو في كثير من اللغات السامية والثاني «ت» وهي الاصل في الكلمة وفكرة الضمير للمخاطب متضمن فيها فتقول ضربت وتضرب فان التاء في آخر الماضي وأول المضارع هي الضمير. ومن الغريب ان التاء تفيد معنى ضمير المخاطب في كثير من اللغات الآرية ايضاً. فالالمانى يقول du والفرنسي tu والانكليزي thou. خذ مثلاً آخر «هذا». فالكلمة هذه لا ترد الى جذر معين بل تتألف ايضاً من عنصرين، الهاء للتنبيه، وذا للاشارة. وقلنا ان هذه العناصر الاولية الاشارية هي ربما كانت من أقدم المقاطع التي استخدمها الانسان للاشارة والدلالة والتنبيه من مميزات اللغات السامية ان كثرة الجذور فيها ثلاثية. وهذه الميزة شغلت بال المستشرقين كثيراً ولهم في أصلها نظريات عديدة. وهذه الوتيرة الواحدة كانت الباعث على استنتاجات كثيرة عن عقلية السامي ونفسيته، بعضها يقبلها المنطق وكثير منها نتيجة تخمين وتحمين. ولكن هنالك فئة لا يستهان بها من الكلمات في العربية كما في باقي اللغات السامية ترد الى جذور ثنائية مثل يد أخ أب شفة الخ فان هذه وان ظهر فيها حرف ثالث احياناً كما في شفهي او شفوي يدوي اخوان الخ فهي ثنائية في الاصل وهذا الحرف الثالث ليس الا محاولة لجعلها ثلاثية لتلائم وباقي الكلمات فكان الثلاثية هي المثل في عدد الحروف^(٢)

(١) قلنا بمقتضى الحروف لان بعضها لا يقع تحت هذا القسم فان حرف الجر على يرد الى الجذر «علا» اومع يرجع الى الجذر «عم» وهي في السريانية والعبرانية «عم» وليس مع. والجذر عم يفسر لنا معنى مع (٢) راجع Th. Nöldeke, Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, p. 69—72. p. 109—178; ibid. Beiträge p. 69—72.

والمسألة التي يهنا امرها الآن هي هل الثلاثية (Trilateralism) أصلية ام تمثل طوراً حديثاً؟ يظهر من درس الجذور السامية ان الثلاثية نتيجة تطور من الثنائية وزيادة الحرف الثالث كان لزيادة في المعنى . فان كثيراً من الافعال الثلاثية يمكن جمعها الى طوائف يكون المعنى في كل منها واحداً وهذا المعنى مضمن في اول حرفين مثلاً قطع قطف قطع قط والعامي قطعش فانها كلها تفيد معنى واحداً هو معنى قطع . وقل هذا في فل فلج فلج فلع فلق فلا ، وهكذا في حم وحمي وحما وحم وحمس وحمق فالجذر فيها « حم » وهو مشترك في جميع اللغات السامية ويفيد معنى الحرارة ولكن لا يجب ان نعتقد ان الشعوب السامية كانت يوماً ما تتكلم بكلمات جميعها ثنائية ثم انتقلت الى طور آخر اصبحت فيه تتكلم بكلمات ثلاثية، كلا ، ان النشوء اللغوي بعيد جداً عن المنطق والوجدان ، والانتقال يتم ببطء كلي وعن غير قصد او تعمد . الافضل ان نقول ان الثلاثية على مر الزمن اصبحت المثل لجميع الكلمات والنزعة كانت انه من المستحب والشهي على السمع ان تكون جميع الكلمات على مقياس واحد وشكل لغوي واحد . واما انه كان هنالك ثلاثيات ورباعيات وخماسيات حتى في اقدم المصور فأمر لا شك فيه

﴿ الجذور الرباعية ﴾ هل هناك جذور رباعية أصلية ام الرباعية مشتقة من جذور ثنائية وثلاثية ؟ علماء اللغة العربية صرفوا النظر عن هذه المسألة واكتفوا بقولهم ان هنالك افعالا رباعية على وزن فعلل وملحق بالرباعي واظهروا كانوا يقصدون به الفئة التي تمكنوا فيها من ملاحظة الحرف الزائد وملاحظاتهم متفرقة في المعاجم وكتب اللغة ولا تفي بحاجة

وقبل الامعان في البحث نجد انفسنا مضطرين لنبدأ اتخاذ فعلل كوزن للرباعي لما في ذلك من الاضطراب . لانه اذا كانت حروف فعل تمثل حروف فـ قـ عـ فوزن فـ رـ قـ عـ يجب ان تمثله صيغة فـ رـ عـ لـ وليس فـ عـ لـ لـ ، لبيان الحرف الزائد . اما فـ عـ لـ لـ فيجب ان تمثل تكرار الحرف الثالث من الجذر كما في « بهر » العامية من بهر . واما اذا قلنا ان حوقل ، بذعر ، دهمس ، حصرم الخ هي علمي وزن فعلل فلا نكون قد أبنا الحرف الزائد ، فان حوقل تكون فعلل من وقـ لـ وبذعر بفـ لـ من ذـ عـ رـ ودهمس دـ فـ عـ لـ من هـ مـ سـ الخ وعليه سنتبع استعمال وزن فعلل للجذر الاصلي ثم نمثل الحرف الزائد باضافته الى (فـ عـ لـ) حيث يقع بالنسبة الى ترتيب الحروف . فسنستكمل عن فـ رـ عـ لـ وفـ عـ لـ الخ اي الرباعي الذي تزداد فيه الراء بعد فاء الفعل وفعلل الرباعي الذي تزداد فيه النون بعد فاء الفعل الخ

﴿ الجذور الرباعية في العامية ﴾ كثيرة جداً وتقسم قسمين . الاول : يشمل الافعال التي لا ترد الى جذر سامي بل اكثرها مقتبس عن لغات اجنبية مثل سوكر من الايطالية securta وقوسن من القانون^(١) وقوسنس من الفانوس وكركن من الكرنيتينا وكرك او جرك من

(١) لفظ قانون في العربية مأخوذ عن اليونانية ، ولكن يظن ان الكلمة اليونانية مأخوذة من السامية من كلمة تفيد معنى القصة ، ومن ثم معنى القياس

السكر ك وفودس من الفادوس ، وامثال هذه كثير تتركها جانباً لأنها عارضة في اللغة . اما الذي يهمننا فهو القسم الثاني ، اي الافعال الرباعية التي تُرَدُّ الى جذر ثلاثي إما عربي أصيل او بقية باقية من لغة سامية كانت محكية في القطر الذي بقيت فيه امثال كثير من الافعال الرباعية في لبنان التي لا اصل لجذرها في العربية بل يمكن بسهولة ردها الى جذر سرياني ارامي ^(١) كيف يصبح الجذر الثلاثي رباعياً ^(٢) او بكلام آخر كيف تنشأ الافعال الرباعية ؟ يتم ذلك عن احدى طريقتين (١) التضعيف (٢) الزيادة

١ — (التضعيف) يظهر بأشكال مختلفة : أ — بتكرار الجذر الثاني جملة فيحدث وزن فعْفَع وهذا كثير في العامية مثل دَقْدَق ، بَعَبِم ، حَفَحَف ، فَنَفَت ، بَزَبَز ، مَرَمَر — ب — بتكرار الحرف الاول من الجذر فيحدث فعْفَعَل مثل فَرَفَك من فَرَك ، فَرَفَح من فَرَح ، فَلَفَفَش من فَلَش وأمثالها كثير

ج — بتكرار الحرف الثاني من الجذر فيحدث فعْفَلَع وهو نادر ^(٣)
د — بتكرار الحرف الثالث من الجذر فيحدث فعْفَلَل مثل بَحْصَحَص من البحص وفصيحتها الحصب وبَهَرَر من بَهَر

ويدخل في باب التضعيف اوزان اخرى شائعة في العامية يظهر فيها التضعيف مع الزيادة وهي اربعة اوزان ، فعْفَفَى ، فَرَفَع ، فَوَفَع ، فَيَفَفَع ^(٤)

٢ — (الزيادة) ^(٥) والزيادة تكون أ — سابقة (Prefix) ب — وسطية (infix) ج — لاحقة (suffix)

أ — السابقة تكون بزيادة الباء والتاء والحاء والدا ل والسين والشين والطاء والعين والالف والميم والنون في اول الفعل الثلاثي فيحصل الاوزان التالية : (١) بَفَعَل (٢) تَفَعَل (٣) حَفَعَل (٤) دَفَعَل (٥) سَفَعَل (٦) شَفَعَل (٧) طَفَعَل (٨) عَفَعَل (٩) قَفَعَل (١٠) مَفَعَل وغالباً تمَفَعَل (١١) نَفَعَل

ب — (الزيادة الوسطية) وتكون بزيادة الباء والحاء والراء والعين واللام والميم والنون والواو والياء في وسط الجذر بعد الحرف الاول فيحصل الاوزان التالية : (١) فَبَعَل

(١) تمكن صاحب المقال من جمع اكثر من الف فعل رباعي من لغة قرية من قرى لبنان وبعد درسها والتعقيب عن اصلها وجد ان كثيراً منها يرد الى السريانية الارامية ، وقليل يرد الى جذر سامي له كيان اما في العربية او الفلبينية

(٢) لا يمكن الاكثار من ذكر أمثلة على هذه الاوزان خوفاً من ان تكون غريبة على الاسماع لان الامثلة التي لدينا محلية ، مجموعة من لبنان ، ولكن لا شك عندنا في ان القاري يمكن ان يجد في عاميته أمثلة على الرباعي ينطبق عليها هذا الوصف ، وربما بعد برهة قصيرة سنصدر قاموساً للعامية المحكية في لبنان يجد فيها الباحث أمثلة كثيرة على هذه الاوزان

(٢) فَعْمَعَلَ (٣) قَرَعَلَ وهذا شائع جداً (٤) فَعْمَعَلَ (٥) فَلَعَلَ (٦) فَمَعَلَ (٧) فَمَعَلَ (٨) فَوَعَلَ (٩) فَمَعَلَ والاخيران شائعان جداً مثل نوحز، روكب، قوشع، طلع، نيزل، كنعب، قنعت. ويجب ان تلاحظ ان الزيادة الوسطية هذه قد تأتي بعد الحرف الثاني لاسباب صوتية لمجانسة او ملائمة فيصبح معنا بدل فَمَعَلَ مثلاً فَمَعِبَلَ مثل غَلَبَطَ اي اوقفه في غلط

ج — اللاحقة * وتكون زيادة الباء والتاء والراء والسين والشين واللام والميم والنون والالف المقصورة في آخر الفعل فيحصل الاوزان التالية: (١) فَعْلَبَ (٢) فَعْلَمَتَ (٣) فَعْلَمَر (٤) فَعْلَسَ (٥) فَعْلَسَ (٦) فَعْلَمَ (٧) فَعْلَمَ (٨) فَعْلَمَ (٩) فَعْلَمَ

احرف الزيادة * وأنت اذا جمعت العناصر التي تضاف الى الجذر الثلاثي لوجدتها ب ح درس ش ط ع ل م ن ه و ي ، وعلى الباحث اللغوي ان يحا به مشكلتين . المشكلة الاولى: «الدافع في اللغة الى بناء افعال رباعية؟». والمشكلة الثانية: «ما اصل هذه الزيادات وما معناها؟»

الدافع الى بناء افعال رباعية * قد تدل على بعض الحقيقة اذا قابلنا بين الفروق في معنى الجذر الثلاثي والوزن الرباعي المشتق منه ، واذا ما ثبتنا من هذا الامر حق لنا ان نستنتج ما يمكن ان نسميه دافعاً

إنك اذا درست عدداً كبيراً من الرباعيات المشتقة من الثلاثيات وقابلت بين الفروق الناجمة وجدت ان هنالك دوافع ثلاثة هامة تظهر في معاني الرباعي وهي (١) الحدة في الفعل او الشدة (٢) فكرة التكرار (٣) فكرة التعدية

مثلاً فَرَفَحَ أَحَدٌ من فرح، وفَلَفَسَ الامتعة تفيد الشدة والحدة في الفعل، ودَقَقَ تفيد تكرار العمل اكثر من دق، وَطَيَّنَعَ ونيزل للتعدية . والسؤال المنطقي الذي يتلو هذا هو: هل هذه الميزات المكتسبة في الرباعي راجعة الى الحرف او بكلام آخر، هل هذا المعنى الجديد مُضَمَّنٌ في الحرف؟ يصعب الجواب عن هذا السؤال حتى انه وان سلمنا جدلاً ان للحرف معنى مستقلاً بنفسه لا يمكن التحقق من هذا المعنى الآن لتقدم المهد لان مبادئ اللغة تعود الى ازمان بعيدة جداً وقد حاول بعض لغوي العرب (وبعضهم فرس) ان يثبتوا معاني للحروف (١) ولكن النتائج

(١) مراجع الفهرست لابن النديم طبعة (Flügel) ص ٣٩ — ٨٨ نجد ذكراً لكتب عدة كتبت في هذا الموضوع . ثم راجع ابن جني في Oscar Rescher ص ١٥ حيث يقول: وليس غرضنا في هذا الكتاب ذكر هذه الحروف مؤلفة لان ذلك يقود الى استيعاب جميع اللغة وهذا مما يطول جداً وليس عليه عقدنا هذا الكتاب ، وانما الغرض فيه ذكر احوال هذه الحروف المنفردة او منتزعة من أبنية الكلام التي هي مصوغة فيها لما يخصها من القول في انفسها ٠٠٠ الخ

كانت محدودة . اذ يصعب جداً أن تتخيل ان اللغة بدأت بأصوات قليلة العدد ، لكل صوت معنى . فاللغات في كل العالم تتألف من اصوات ابتدائية (Phonemes) لا يزيد عددها على ٤٥ ولا يقل عن ١٥ ولغة كال يونانية او العربية لا يمكن ان تكون قد نشأت وتطورت عن هذه الاصوات القليلة المحدودة ، فالحرف الواحد أو قل الصوت الواحد لا يمكن ان يكون له معنى خاص يستغنى من هذا جزء قليل اتخذ معنى خاصاً في اثناء تطور اللغة

فاذا كان من الصعب اثبات معنى لاحرف الزيادة فما هي اذاً هذه الحروف ؟ هل هي بقايا كانت مستقلة لم يبق منها الا بعض اجزائها بعد ان اندجحت في الجذر الثلاثي لتؤلف الجذر الرباعي الجديد ؟ هذا مستبعد ايضاً ، لان العربية كباقي اللغات السامية لا يعرف فيها امتزاج جذرين في كلمة واحدة كما هو الحال في اللغات الآرية ولا يغرنك بعض مظاهر النحت التي هي حقاً اختصارات اكثر عما هي ألفاظ منحوتة مثل بَسْمَلْ وحوقل أي قال بسم الله ولا حول ولا . . . (١) فان اللغات السامية لا تعرف النحت فما هي اذاً ؟

ان هذه الزيادات يمكن اعتبارها عناصر اشارية deictic كالتي تتألف منها الضمائر واسماء الاشارة والموصول . مما لا شك فيه ان الضمائر في السامية كما هي في باقي اللغات ، كلمات لا ترد الى جذور تتضمن فكرة اصلية كما في قتل بل تتألف من عناصر اشارية كما في انت ، هو ، الذي ، وقد مرت الاشارة الى هذا في اول المقال . ولا غرابة في ان اصل اقدم السكلمات في اللغة يرد الى عناصر اشارية تنبيهية ، فالاشارة الى الشيء والتنبيه له ، والتعجب والاستغاث والمناداة كل هذه من اقدم مظاهر اللغة على الاطلاق ولا نرى ضرورة للاسهاب في هذا الموضوع لان اصل الضمائر في اللغات السامية امر معلوم عند الاختصاصيين . ولهذا الموضوع مراجع مستفيضة في اللغات الاعجمية

اتنا اذا حللنا الضمائر في العربية الى العناصر التي تتألف منها وجدناها : أ ت ذ ك ل م ن ه و ي . اما احرف الزيادة التي تضاف لبناء الرباعي فهي ب ت ح د ر س ش ط ع ق ل م ن ه و ي وانت تجد ان جانباً من احرف الزيادة لا وجود له في بناء الضمير مثل الطاء والعين والقاف . اما الشين وان لم نجدها في الضمير العربي فهي واحدة في ضمائر لغات اخرى سامية . انا لا انكر ان هنالك مصاعب تاريخية وصوتية (Phonetic) يصعب تحليلها . ولكن بوجه عام يمكننا ان نقول ان القصد من هذه الزيادة هو . اولاً — لتأدية معنى المبالغة . ثانياً — لتأدية معنى الحدة والشدة . ثالثاً — لتأدية معنى التعدية . رابعاً — لاسباب صوتية بحثة

(١) راجع مقالا للاب لويس شيخو في المشرق المجلد الاول ص ١٠٢٧ حيث ينفي وجود هذه الظاهرة في العربية

ولكن درس مسألة الاصوات في اللغة السامية لا يزال في مهده ولا نعرف عن النواميس التي تقيد بها الالف النزر القليل. خذ مثلاً وزن فرعل، ففعل، فعل، التي هي ربما كانت عوضاً عن وزن فعل الفصح فبدلاً من مضاعفة الحرف الوسط يستعاض عنها بزيادة حرف كان اللسان يستسيغ او يستسهل لفظ فرقع على فقع وفنجر على فجر. ولكن السؤال الهام هو متى تزداد الراء او النون او اللام للاستعاضة عن التضعيف؟ هذه اسئلة لا يمكن الجواب عنها لقلة الادلة وربما عندما تتوافر لدينا الاستنتاجات يمكن ان نقرر النواميس التي تتبع في هذه الناحية

﴿ الافعال الرباعية في الفصحى ﴾ اذا راجعنا المعاجم وجدناها طافحة بالافعال والاسماء الرباعية والحماسية والسداسية واكثرها ممت ومعانيها غريبة عنا حتى ان الذين جمعوها ودونوها لم يكونوا على ثقة مما يدونون، بل كتبوا ما كتبوا على ذمة الراوي او على استنتاجهم من معنى يتورد في شعر احدهم، يدل ذلك المعاني القليلة التي تقيد بها هذه المجموعة الكبيرة فانها لا تعدى معنى «صلب، ضخم، شديد، سيء الخلق، غليظ، طويل» الى ما هنالك من المعاني غير المحددة. وعدم معرفتنا بمعانيها بالضبط يحول دون درسها لانه اذا فقد المعنى صعب التعليل اما في كتب الادب وفي الشعر فورودها قليل بالنسبة الى كثرتها في المعاجم. فهذا القرآن الكريم لا يحتوي على اكثر من ٥٠ كلمة رباعية. ويحق للباحث في تطور اللغة ان يسأل عن السبب في ذلك. ولنا رأي نبديه بتحفظ وقد لا نكون على صواب فاننا نعتقد ان الاوزان الرباعية لا بل النزعة في اللغة السامية الى اشتقاق اوزان رباعية من جذور ثلاثية كانت في عصور قديمة شائعة جداً كما هي شائعة في بعض اللهجات العربية المحكية^(١) غير انه عندما بدأ عصر التدوين والكتابة فعل قانون الانتخاب اللغوي فعله. فالناس عند ما يتكلمون يستعملون لغة ولكن عندما يكتبون يستعملون لغة اخرى وهذا يصدق على جميع لغات الارض. والكتاب ميل الى الابتعاد عن العامي فكل شائع معروف في نظره قريب للابتذال، وإلا ماذا يفرق الكاتب عن بقية الناس؟ وما الذي يفرق يوثيل النبي العبراني في كتابته عن باقي الانبياء؟ ولما كانت الافعال الرباعية واشتقاقها شائعاً عامياً، نظراً الى ضخامتها وكثرة حروفها اخذ الكتاب في الاقلال من استعمالها

(١) تكثر الافعال الرباعية في لهجة لبنان وسوريا، فان كاتب المقال تمكن من جمع اكثر من الف فعل رباعي في بلدة صغيرة في لبنان واكثرها غير مذكور في معجم Dozy والى لغة مجتمع يعيش على الزراعة في الجبل عدد لا يستهان به، وعندما يذكر الانسان ان مجموع الكلمات التي نستعملها في كلامنا العادي لا يزيد عن ٣٠٠٠ او ٤٠٠٠ يدرك معنى هذه الكثرة



رحلة جغرافية عمرانية

لوصفي زكريا

— ٣ —

الجيلال — لا نبالغ اذا قلنا ان القطر اليمني قطر جبلي بحت . لان جباله تشمل ما يزيد عن ثلاثة ارباع مساحته العامة . وجبال اليمن تتمة سلسلة « السراة » او سلسلة الحجاز الآتية من الشمال والمبتدئة من بين الطائف ومكة والمنتهية في جنوب اليمن عند الاعضاء المشرفة على تهام الحبح وعدن . قال ياقوت في معجم البلدان : السراة جبل مشرف على عرفة قرب مكة يفقاد الى صنعاء ، وانما سمي بذلك لعلوه ، وسراة كل شيء ظهره . وقال ايضاً : السراة الجبال او الارض الحاجزة بين تهامة واليمن ولها سعة وهي باليمن اخض . وقال الهمداني في صفة جزيرة العرب السراة اعظم جبال العرب واذكرها اقبل من ثغرة اليمن حتى تبلغ اطراف بوادي الشام فسمته العرب حجازاً لانه حجز بين الغور « تهامة » وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر فصار ما خلف ذلك الجبل في غريبه الى اسياف البحر غور تهامة ، وصار مادون ذلك الجبل من شرفه نجداً ، وصار الجبل نفسه سراته وهو الحجاز . وقال ايضاً : اما جبل السراة الذي يصل ما بين اقصى اليمن والشام فانه ليس بجبل واحد وانما هي جبال متصلة على نسق واحد من اقصى اليمن الى الشام في عرض اربعة ايام في جميع طول السراة يزيد كسر يوم في بعض هذه المواضع وقد ينقص مثله في بعضها . وفي (الرحلة اليمنية) للشريف عبد المحسن البركاني : ان اول جبل السراة يبدأ في عقبة كرى بين الطائف ومكة ويسمى بجبل الحجاز لانه الحاجز بين تهامة ونجد وانه عظيم الارتفاع عن سطح البحر واسع المساحة كثير الطول طوله من الشمال الى الجنوب احدى واربعون مرحلة ، وكل مرحلة مسير يوم بالابل المحملة وهي اربعين كيلومتراً . فمن الطائف الى

إبها عاصمة عسير خمس عشرة مرحلة ومن إبها إلى صعدة سبع مراحل ومن صعدة إلى شهارة ثماني مراحل ومن شهارة إلى صنعاء عاصمة اليمن سبع مراحل ومن صنعاء إلى نهاية هذا الجبل أربع مراحل . وهذا الجبل أهل بالسكان وقراه متصلة ببعضها ، وإذا سافر مسافر من الشمال إلى الجنوب في تلك المراحل فإنه يكون دائماً بين مزارع ووديان وأشجار كثيرة المياه والمراعي وكافة قراه مبنية بالحجر المنحوت ودورها من طبقتين إلى ثلاث ولا يوجد فيه أكواخ مثل نهاية . اهـ

قلت : وظهر هذه السلسلة المرتفعة ارتفاعاً عظيماً ينقسم قسمين ، فما كان منه في الشمال في علو نحو ٢٠٠٠ متر وما فوق حتى جاوز ٣٠٠٠ متر سمي باليمن الأعلى ، وما انحط في الجنوب عن ٢٠٠٠ متر حتى اقترب من مستوى التهامم سمي باليمن الأسفل . والحد بين اليمنين فيما قيل قرية المنزل في نقيط سمارة في جنوب مدينة يريم ، على طريق تعز وعدن واليمن الأعلى حول مدن يريم وذمار وصنعاء وعمران وما بعدها نحو الشمال يؤلف نجداً مستوياً واسعاً مستطيل الشكل يمتد من الشمال إلى الجنوب من قرب جبال نجران إلى نقيط سمارة المتقدم الذكر ، فيتباين العلو فيه من ٢٠٠٠ إلى ٢٦٠٠ متر ويختلف علو قمم الشاخصة من ٣٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ متر . ويمكن تشبيه هذا النجد بسنام الجمل . لأن سفحيه الغربي والجنوبي يتدرجان في الانخفاض نحو التهامم الغربية والجنوبية ، وسفحه الشرقي نحو فيافي الجوف المنحطة ، وهذه تدرج بالانخفاض من ١١٠٠ متر فما بعد ويمتد في وسط هذا النجد (خط تقسيم المياه) الذي يدفع بعض مياهه ينابيعه وسبيله إلى الاودية المنحدرة نحو فيافي الجوف في الشرق وبعضها إلى الاودية المنحدرة نحو التهامم في الغرب والجنوب . وسيأتي ذكر هذه الاودية

على أن النجد اليمني ليس في مجموعته بسيطاً خالياً من التلعان والتضاريس . بل إن في معظم أرجائه جبالاً وأطواداً عديدة منفردة أو مجتمعة مخروطية أو مستطيلة الشكل . وهذه الجبال تفصل بين الرقاع التي يدعونها « قيعان » جمع « قاع » ويتخذون أرضها الشاسعة للحرث والاستغلال . أشهر منها قاع البون وقاع سنحان وفيه مدينة صنعاء وقاع جهران وقاع حواس وقاع الحقل وغيرها

أما أطراف السلسلة وسفوحها المنحدرة نحو الغرب والجنوب والشرق فهي تتألف من جبال شاهقة هائلة تدرج في الهبوط نحو التهامم أو الجوف ، وبعض أعضائها يدنو من البحر كذلك التي بين عدن وباب المنذب ومخا

وجبال اليمن كلها — سواء أكانت في النجود أم في السفوح — من أروع جبال العالم رأي وأعسرها مرقى وأكثرها تضرساً وتلماً واشدها تحطاً وتصعداً وافقرها بالماء والكلأ .

وجبال طوروس وآمانوس في شمالي الشام وجبال لبنان الغربي والشرقي واطواها وعقبها تحسب متواضعة ذليلة اذا قيست بما في الين. لا جرم ان من لم ير جبال الين المكفهره وشناخيه المشمخرة واوديته السحيقة وصخوره العظيمة النافرة، ومعظمها جاف متجرد عن البهجة والخضرة، اسود اللون، متجه المنظر، ومن لم يتسلق نقائله^(١) وعقباته الوعاء او يتدحرج في منحدراته السكداء ذات الميل الشديد — لا يعد رأى جبلاً واودية ولا قاسى تعباً ولا ردد لهنك ولا ارتعدت فرائصه فرقاً من خشية تدهور السيارة او كبو الرحلة او زلق القدم. وهذا التدهور او الكبو او الزلق مع التيه في مهامه تهامة من الامور غير النادرة في الين. ومبلغ الروعة في هذه الجبال والاودية يدركه المسافرون في احدى الطريقين القديمة (طريق القوافل) او الحديثة (طريق السيارات) بين الحديدة وضعاء، او بين صنعاء وحجة، او بين صنعاء وتعز، بل في اي طريق شئت، اذكر ولا تستثن. ففي طرق الين الجبلية عدد لا يحصى من القمم الناطحة للسحب والوهاد والمهاوي الممعة في التقعر والتعرج. والارتفاع والانخفاض في هذه الطرق يختلفان اختلافاً فجائياً لا هوادة فيه ولا رفق فيها ترى نفسك قد صعدت في ٤ — ٥ ساعات الى علو شاهق قدره ١٥٠٠ — ٢٠٠٠ متر تهبط فوراً في ساعة او ساعتين الى ثلث او نصف او ثلثي ذلك العلو، ثم تعود للصعود، ثم للهبوط وهكذا بمعنى ان منكب هذه السلسلة مؤلف من مرتفعات ومنخفضات تتوَجَّع تموجاً رهيباً يأخذ بعضها برقاب بعض كامواج البحر المتعالية المتلاطمة على مسافة بضعة مئات من الكيلو مترات مما يبعث الرعب والتعب الزائدين للغريب القادم حديثاً. ورغم اكفهرار هذه السلسلة وكثوثة معارجها ومهابطها فأن في مشاهدتها عظمة وروعة تأخذان بمجامع القلوب، ولا سيما حينما تتراكم امواج الضباب وتكاثف قطع السحاب وترتج الآفاق من الرعود القواصف والبروق الخواطف، وهي ظواهر جوية كثيرة الحدوث في اغلب الايام بعد الزوال، فحدث اذ ذاك ولا حرج عن طلعتها التي لا تمل ورؤيتها التي لا محتوى، مما يحتاج وصفه وتبيين الوانه ووقعه الى قريحة شاعر مفلق او ريشة رسام مبدع.

البراكين والسيول

ولاقسام هذه السلسلة اسماء عديدة تدعى سروات جمع سراة. وفي كل من هذه السروات جبال متعددة معروفة باسماء واصناف خاصة لا تتسع هذه العجالة لذكرها من وفرتها وكلها من الجبال البركانية الاندفاعية وجل صخورها من جنس البازلت الاسود او الازرق القاتم وهو لا يمتص اناء ولا يخزنه ناهيك جهومة منظره وبشاعة مكسره مما جعل جبال الين في الاكفهرار

(١) جمع ثقل وهو اصطلاح يمني يطلق على الطريق في الجبل. ويقال له عند اهل جبل لبنان كلمة «قادومية» من تعذر التساق الا على الاتدام

الذي وصفناه . وبعض تلك الصخور من جنس الجير calcaire او الغرة grès او التراخيت او الميكاشيت ذات الالوان الدكن او الصفر . وتختلط هذه الصخور القليلة بصخور البازلت السود او تتراصف معها في غير انتظام في كثير من الاماكن . وتربة قيعان النجد اليماني تتألف من الطيفال الجيري والرمل الناشيء من نفثت الصخور المذكورة ، وتكون هذه التربة صفراء اللون في الغالب . وتتألف تربة الاودية من الرواسب الرملية والطينية الناعمة التي جرفها السيول ، وتكون غبراء اورمادية اللون

ويظهر ان ثوران البراكين وفتكات الزلازل في الاطوار الجولوجية الغابرة كانت في الين على اشد ما يتصوره علماء الجولوجيا في التصديق والتحطيم وان افعال العوامل الطبيعية من حر وقر وهزاهز وسيول ما برحت حتى يومنا هذا في غاية العنف والقسوة . فالمسافر في طول الين وعرضه ككفا التفث يقع بصره على اهاضيب هرمية او مخروطية الشكل قممها فوهات براكين منطقة وعلى شناخيب مسنمة مرتفعة كالماذن والابراج وعلى اطواد وآكام ممتددة منغزلة او مكتظة وكلها مشخ بالخروقي والشقوق المفجعة من هول تلك العوامل الطبيعية واخصها الزلازل والسيول . وفي مناكب تلك الشناخيب والاهاضيب والاطواد والآكام او في سفوحها وفجائها جلاميد هائلة الحجم والشكل (مثل او اعظم من حجر الجبلى في بعلبك) حطها الزلازل او السيول من عل ، وصخور عظيمة مكدسة (مثل او اعظم من صخور الاهرام في مصر) ورضام مضرسة تدحرج كسورها وفتاتها تحت الارجل فتزيد تعب الصاعد في عقباتها ومنحدراتها السكاداء وتجعله يقاسي لهاث المحتضر

وفعل السيول في الين عظيم . وتاريخ الين طافح بفجائع هذه السيول التي تحدث الفترة بعد الفترة . واخصها ما يحدث في صنعاء يأتيها من الحماة سنحان وسعوان وجبل اللوز ويخرب قسماً غير يسير من صنعاء وشعوب والروضة ويذهب بعد للانصباب في وادي خارد أحد أودية الشرق واذا استثنينا القيعان المنبسطة في انجاد سلسلة السراة والرقاع الصالحة في بعض ذرواتها واسنادها^(١) والمنحدرات الخفيفة التي وطدها اليمانيون بمناعب زائدة وعملوا فيها حقولاً صناعية مدرجة اسموها جُرباً جمع جربة^(٢) فان اكثر أقسام هذه السلسلة عاقل غير قابل للحرث والزرع ، وتكاد نسبة القابل منها لا تزيد عن الاربعين في المائة ، وما بقي فتون او حرار^(٣) او منحدرات هي مسارح للقرود وأوكار للنسور ومنابت لما لا خير في اكثره من الاعشاب القثة والانجم والاشجار الشائكة مما سوف نذكره في بحث الزراعة

(١) السند ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح

(٢) يقابلها لدى أهل جبل لبنان كلمة جلول جمع جل (٣) المتون جمع متن وهي الارض التي تجميع الارتفاع والصلابة والغلظة والحرار جمع حرة وهي الارض ذات الحجارة الكثيرة السود النخرة

وغني عن القول ان هذه الجبال لا تتساوى في العظمة والروعة وامكان الصعود والتزول ووجود رقاع للحرث والزرع فيها او عدمه . فمنها ما هو واسع الذروة ، صالح التربة ، قابل الصعود على البغال والحمير . ومنها ما نقائله شديدة الكؤودة تزل الوب^(١) والقرد ، بل ان ينجا ما ليس له غير نقييل « لا يطلعه سوى المشاة ولا يطلعه دابة . فاذا — ارادوا دابة يستنفعون بها في ذروته مثل البقر للحرث والحمير للحمل حملها الرجال عجلة او عضوة صفاراً »^(٢) . على ان اليمانيين لم يغادروا قيد شبر يمكن الاستفادة منه في ذروات هذه الجبال او منحدراتها . لاسيما تلك التي تفجر فيها عيون وغيول^(٣) . فهم قد تعلقوا باذيالها وتسلقوا ادراجها ووطدوا ما امكنهم التوطيد من انجادهما واسنادها فزرعوا وغرسوا وشادوا الحصون والقرى بهم قعساء جديرة بالاعجاب

الطرق ووسائل النقل

اما وسائل النقل فأحدثها السيارات . فهي قد دخلت اليمن منذ خمس سنوات وصارت تجري الآن بين اكثر المدن والقرى الهامة وبعض النجدية التي لا يصعب وصولها اليها . اما في الصعبة الوصول فقد عبدوا لها حتى الآن طريقين طريق الحديدية — صنعاء ، وطريق صنعاء — حجة . الا ان هذه الطرق التي يخططها موظفون غير مهندسين وقرويون غير ماجورين وتلك السيارات البالية التي يديرها سواقون غير ذوي كفاءة يجعل الراكب يسأل الله السلامة في كل لحظة ففي طريق الحديدية — صنعاء تطوي السيارة باديء ذي بدء سهول تهامة فتعصف بين كئيباتها وتغوص احياناً في رمالها ويتحمل الراكب حرارة شمسها اللاهبة ، فاذا انتهى منها بعد مسير نحو ستين كيلو متراً يصل الى بليدة اسمها (باجل) تقدم وصفها . واذا غادرها ظهرت امامه طلائع الجبال التي تقدم ذكرها . وبعد ان يجتاز محطة البحيح وقرية عبال الهاميتين ايضاً تنحرف السيارة نحو الجنوب الشرقي وتشرع بالتوقل ، فتسلك الطريق التي فتحت للسيارات حديثاً على النحو الذي وصفنا نقصه وخطره . وهي تتغلغل وتتمعج وتصعد وتهبط في اودية طويلة قليلة العمران والسكان اسمائها سيحان وسهام تحجري في بلاد ريمة . وهذه الاودية منحصرة بين جبال شاهقة من فروع جبال ريمة منها — والعهد على السائق الذي اسمها — على يمن الطريق جبل ضام وجبل عيس وجبل برع وجبل عساكر وعلى يساره جبل الجبي وجبل شرق . وهذه الاودية تتصل تارة وتبتعد اخرى ، ويكثر في عدوانها اشجار الغضاء الشائكة والنباتات المتعرشة على اختلاف فصائلها وحقول الذرة على اختلاف اعمارها وأطوالها ، وقد يصادف السائر ايضاً فيها قطعان القروود على اختلاف وفرتها وضخامة بعض افرادها وغرابة

(١) الوب Hyrax دويبة كالسنور لكنها اصغر منه (٢) الهمداني في صفة جزيرة العرب ص ١٩٢
(٣) غيول جمع غيل ، اصطلاح يمني يطلق على الينابيع الجارية

وبناها وصيحاتها المضحكة . واذ كانت السيارات لا تستطيع الاسراع اكثر من ١٠ — ١٥ كيلومتراً في الساعة بحكم شعث الطريق وكثرة المعارج والمنعطفات فلا بد من قضاء الليلة الاولى في هذه الاودية المقفرة . والمحطة الوحيدة التي يجوز المبيت فيها هي قرية حقيرة وبينة اسمها «مدينة العبيد» — سكانها جالية من السودان . وبعد مسير مسافات شاسعة وسط وادي حمام علي في بلاد آنس يصادف السائر قرب منتهاء الشرقي حماماً معدنياً كبيرتياً يأتيه المرضى في شهري مارس وابريل . وبعد هذا الحمام بيضعة كيلو مترات تشرع السيارة باقتحام عقبة طويلة كثوود اسمها عقبة المصنع ، اذا بلغت اعلاها أفضت الى ظهر النجد اليمني الذي تقدم ذكره وتصل الى احد قيعانه المنبسطة المسمى «قاع جهران» فيتنفس المسافر هنا الصعداء خلاصه من الصعود والدوران المتواليين المدورين للرأس ومن ضيق الاودية وحشرها وحرها ، ويلاتي بعد الآن فضاءً فسيحاً وهواءً سحسجاً . وبعد الاستراحة برهة في قرية «معبر» ينحرف السائر نحو الشمال الشرقي ، فاذا انتهى من قاع جهران يصعد في ثقل كثوود يفضي بعده الى اودية لا تخلو من منحرجات ومنبسطات فيها عدة قرى منتثرة اسمائها بيت زيادي ووعلان والدوب وحزير وغيرها حتى يصل الى قاع فسيح في وسطه مدينة صنعاء

هذا وما عدا السيارات، ليس في اليمن من وسائل النقل، سوى البغال والحمير والابل . اما الخيل فقليلة الوجود والاستعمال شأن كل البلاد الجبلية . والطرق عبارة عن شعب ومسالك وعثاء حفرتها الاقدام بمرور الايام . وقد صادفت في طلوعي من وادي الاحجر الى حصن كوكبان في عقبة تقطع النياط توقلتا اكثرها مشياً ، ان قسماً من هذه العقبة قد بلبط تبليطاً حسناً لم اعرف رغم سؤالي اي صاحب خير من القدماء صنعه وفي اي عصر صنعه . ومثل هذا البلاط موجود في ثقل سمارة الصاعد من إب الى ريم وهو على ما قيل من صنع الملك العزيز طفتكين اخي صلاح الدين الايوبي الذي حكم اليمن في سني (٥٧٧ — ٥٩٣ هـ) ، ولعل الاول ايضاً من صنعه ، كما ان السور المحيط بصنعاء بدأ به اخوه توران شاه وأكمه هو

طريق القوافل القديمة

وصف طريق القوافل القديمة بين الحديدة وصنعاء ١ كانت الجيوش التركية والقوافل التجارية قبلاً تسلك طريقاً أقصر منالاً وأكثر عمراناً وسكاناً منها في طريق السيارات الحديثة . عبد الترك بعض أقسامها في زمانهم وبنوا الجسور على بعض أوديتها فجعلوها صالحة لسير عجلات المدافع وغيرها . إلا ان هذه الاقسام المعبدة قد أشرفت على الخراب من الاهال الحاضر . فالسافر في هذه الطريق ^(١) بعد مغادرة قرية باجل ومحطة البحيح اللتين تقدم ذكرهما ينحرف

(١) وصف هذه الطريق مراسل جريدة التيمس الانكليزية المستر هرس سنة ١٨٩٢ ، ونشر ترجمته جبر ضومط في المقتطف م ٣٨ ج ١

نحو الشمال الشرقي ويمر بقريه اسمها حجيلة . ومن ثم يشرع بالصعود في واد طويل ، هائل المنظر ، على جانبيه جلاميد عظيمة مدهشة ، واسم الوادي حجام يمتد نحو ساعتين على سير البغال وفي قرب حجيلة قرية الاكمة من قرى جبل مشار ، وتحتها العريف ووراءها جبل صفان وفيه حصن متوَح . ويزداد الصعود بل التوقل بعد حجيلة كلما أوغل المسافر نحو الشرق وتزداد معه مناظر الجبال العظيمة ووعوتها الرهيبة ، وتزداد ايضاً رقة الهواء وبرودته المنعشتان على خلاف ماكان في هواء تهامة ذي الثقل والحر المضنين وبعد وادي حجام يبلغ المسافر سفح جبل وصل ويلمح على يساره في الافق الشمالي جبل الطويلة ، ويلمح أمامه في الافق الشرقي جبل شبام المعدود من قم اليمن الشاخنة ووراءه في الافق الغربي جبل برع وجبل ريمة المائل له ويلمح في طريقه ايضاً او يمر بقريه محصنة اسمها « العتارة » أهلها اسماعيلية مكرميون . وبعد اقتحام عقبة طويلة تقطع نياط القلب طولها خمس ساعات يصل الى بليدة اسمها مناخة مبنية قرب قمة جبل حراز المشابه لصهوة الفرس . وهي كاقيل مسرح لليوم وموطىء للعقبان والنسور ومناخة في موقعها وعلوها وشكل دورها الشبيهة بالحصون والاكام من أمنع أماكن اليمن وأعزها مثلاً ، تشرف من أنحائها الاربعة على أودية ووهاد هائلة السحق والانحدار . وإذا سرح المسافر نظره في آفاق مناخة البعيدة يرى وادي موسنة ينبسط أمامه شمالاً بغرب ودونه جيلا ملحان وحفاش ، وفي الشرق جبل شعيب حضور أعلى قم اليمن طراً وتحتة بوعان . وثمة فتن عديدة شيدت فوقها قرى حصينة وما منها الا وحوها الاراضي المحروثة والحقول الصناعية المتدرجة ومغارس البن والقات . وبعد مناخة يعود المسافر الى الهبوط والتدرج في تقيل عمودي شاق اسمه تقيل مناخة فاذا بلغ وادي الشجرة في اسفله يعود الى التوقل تارة والهبوط أخرى ، والهبوط أكثر ، والطريق مملوء بالاشجار الشائكة ، حتى يبلغ أسفل واد سحقيق يعد أوطأ قسم الجبال في اليمن وأحرها فيه قرية اسمها مفحق بنيت فوق قمة . ثم يعود المسافر للتوقل في درجات عسيرة لا تحصى حوها وهاد لا قعر لها ولا حد حتى يبلغ قرية اسمها سوق الخميس ، ثم قرية أعلى منها اسمها بوعان فيها قلعة شاهقة ، وفي بوعان مشهد للجبال والادوية الهائلة . وإذا تراكت امواج الضباب او قطع السحاب وهي كثيرة النشوء والتراكم في هذه الاماكن الجبلية المتجهة الى الغرب نحو سواحل البحر الاحمر ، تحدث مسارح النظر ومباهج الفكر التي أطربنا روعها وبداعها . وبعد بوعان يستمر التوقل الى مئة اوخفر سنان باشا وهي آخر مرحلة للقادم من الحديدية . وبعدها نزول متدرج الى مساجد ، ثم صعود الى عقبة عصر ثم نزول الى سهل أفتح فيه مدينة صنعاء خاتمة المسير قلنا ان الترك في عهدهم الأخير عبدوا أقساماً كثيرة من هذه الطريق وذلوا صعباها . وكانوا يريدون ان يسيروا بها من مفحق الى وادي ضفور الى عبال ، تاركين مناخة لصعوبة

عقبها وعلوها . ثم قرروا مد سكة حديدية من رأس الكشيب في شمالي الحديدة الى باجل فوادي
 ضفور ففتح فسوق الخمس فصنعاء ، وعهدوا في مد هذه السكة الى ادارة الخط الحجازي ، فقامت
 هذه الادارة بالعمل وجلبت آلات وعوارض وقضبان حديدية ، وتقدم التمديد من الساحل
 الى الداخل نحو ١٥ كيلو متراً . ولكن مفاجأة الطليان بحرب طرابلس الغرب ومن بعدها الحرب
 البلقانية والحرب العامة ، حالت دون انجاز ذلك

الارتفاعات في قسم الجبال

صعدة ٢٢١٦ عمران ٢٣٠٢ كوكبان ٣٠٠١ الروضة ٢٣٠٦ رداع ١٤٠١ تلا ٢٨٦١ ذي
 مرمر ٢٦٩٨ شبام ٢٦٣٥ ذمار ٢٤٣١ يريم ٢٦٨٥ تعز ١٣٧٤ مارب ١١٠٠ الطويلة ٢٩٠٠
 مسور ٣١٦٠ معبر ٢٥١٦ جبل شعيب حضور « اعلى قمم اليمن » ٣٥٠٠ جبل ظفير في قضاء
 حجة ٣٤٠٠ جبل شهارة في بلاد حاشد ٢٣٧٠ . وفي بلاد عسير ، ابها ٢٢٧٥ سوغا ٢٣٦٠ محائل
 ١٦١٠ غامد ٢١١٠ . وفي قسم تهامة اليمن زهرة ٣٥٧ حيس ٢٩٥ بيت الفقيه ١٦٥ زيد ١٤٠
 وجميعها بالامطار

الودية والسرو

ليس في اليمن انهار تشبه على الاقل العاصي او بردى في بلاد الشام من حيث غزارة الماء
 ودوام الجريان . بل ان بين جباله اودية تحصل من خطوط اجتماع المياه الهابطة من
 ذروات جبال اليمن والمنحدرة نحو التهام في الغرب والجنوب او نحو الجوف في الشرق .
 وتحصل مياه هذه الاودية اما من الينابيع المنفجرة عند خطوط اجتماع المياه المذكورة واسمها في
 اليمن (غول) جمع (غيل) ، وإما من السيول المجتمعة من مياه الامطار . ومياه هذه الاودية اما
 ان تغور في رمال تهامة والجوف وتضيع سدى ، وإما ان ينتفع بها في ري بعض الارضين كما يعمل
 أهل زيد ولحج . وهذه الاودية كثيرة ، لا طائل في ذكر اسمائها وتعداد روافدها في مجالتنا هذه .
 وجلها جاف في غير موسم الامطار . وليس بينها ذو ماء غزير يسيل في ايام السنة وينتهي في
 البحر الا وادي بنا ومصبه شرقي عدن ، ووادي لحج ومصبه في عدن ، وأودية تهامة العربية
 كواذي مخا ووادي زيد ووادي رمع ووادي سهام ووادي سردود ووادي مور . ويمتد طول
 كل منها ٤ — ٥ ايام على الماشي ويحصل في مجاري بعضها غدران عميقة وواسعة يجدون
 فيها سمكاً بوزن الكيلو غرام أو الكيلو غرامين . ويذكر من أودية الشرق التي تذهب نحو فيافي
 الجوف وادي الخارد ووادي أذنة وغيرها . الا ان اعظم هذه الاودية واقواها هو وادي مور
 الذي لا ينقطع في كل السنة وهو ميزاب تهامة الاعظم ، ومثله بكثرة الروافد وبعد المائي في
 الشرق وادي أذنة الذي كانت تخزن مياهه بسد مأرب الشهير ويلقب بميزاب الشرق

والاودية في اليمن اجل اما كنه قدرأ واعظمها شأنأ ونفعأ . وهي ازهرها منظرأ وازكاها تربة وافرها خيراً وميراً . ففيها المواقع الرغيدة والينابيع والعيول الدافقة والاشجار الظليلة والحاصل المغلاة والقرى والمزارع العامرة المنتثرة على عدوتها انتشارأ متقاربأ جميلاً واذ ارتفعت هذه الاودية عن مستوى تهامة وحرها وتظامنت عن علو النجود وبردها فهي معتدلة الاقليم في الجملة على ان بعضها يشد عما ذكرناه لضيق رقعته واحباس هوائه وكثرة منافقه فيحدث فيه الحر اللاهب والبعوض اللاسع ويصبح ويئثأ تفكك فيه حتى البرداء (الملاريا) . لا جرم ان اليمن لولا اوديته هذه لما اختلف بجماليته وتهائمه عن الهيكل العظمي الا قليلاً . فأجل مغارس اليمن ومزارعه واجود وابرک اشجاره وثماره تكون في هذه الاودية وفي كل منها كما قال الهمداني « ما لا يوقف عليه من القرى الصغار والايات ، وكل واد منها يخلاف يكون فيه سلطان يقوم به عوائده »

وكان قدماء اليمنيين يعرفون قيمة مياه هذه الاودية الفائضة ويحسون خزنها والانتفاع منها فيعمدون الى بناء الاسداد وهي جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الاودية المذكورة لحجز السيول ورفع المياه لري الارضين المرتفعة كما يفعل اهل التمدن الحديث في بناء الخزانات . فتكاثر الاسداد بتكاثر الاودية حتى جاوزت المئات . وذكر الهمداني في ينحصب العلو من مخالف اليمن (قضاء يريم الحالي على ما يظن) وحده ثمانين سداً . والى ذلك أشار شاعرهم بقوله :

وبالربوة الخضراء من ارض ينحصب ثمانون سداً تقلس الماء سائلاً

واشهر اسداد اليمن « العرم » وهو سد مأرب الشهير وسد الحائق بصعدة وسد ريعان وسد سيان واسداد بلاد عنس وغيرها . وكله مندر ، لو امكن ترميم بعضه ان لم يكن جله لعاد قسم من عمران اليمن وزهووه اللذين ادججهما الرومان في كلمة (العربية السعيدة)

المعاصر

يستعمل اهل الجبال في اليمن الملح الصخري الذي يجلب من جبل الملح في مأرب . قال الهمداني في هذا الجبل ، هو ليس بجبل منتصب ولكنه جبل في الارض يحفر عليه فيمعن في الارض وهو يبقئ منه اساطين تحمل ما استقل من تلك الحافر وربما انهدم على الجماعه فذهبوا . وهي ارض لا نبات فيها فيحمل اليها الماء والزاد والخطب والعلف ويتحفظ على الماء — من أجل الغراب ان ينسر السقاء فيذهب مأؤه وهو من مأرب على ثلاث مراحل خفاف . ومأرب بجذاء صنعاء شرقاً . اه . وفي سواحل تهامة الغربية عدة ملاحات اخصها الصليف شمال الحديدة ، وهي عظيمة ملحها صخري فريد في نقائه وجودته وغزارته وقد كانت هذه المملحة تستغل في عهد العثمانيين وتدر وارداً قيل انه كان يبلغ المائتي الف ذهب عثمانى ، الى ان خربتها الدوارع الانكليزية خلال الحرب العامة وحطمت مبانيها وآلاتها فلم تعد تقم لها

قائمة ، وقد طلب بعض الاجانب من جلالة الامام امتيازاً باصلاحها واستغلالها فلم يلب طلبهم خشية امتداد ايدي الاجانب الى اليمن بجرأها . . . وقد اوجب خراب مملحة الصليف عمران مملحة عدن التي يستخرج ملحها من البحر وفي اليمن احجار بازلتية سود واحجار كلسية وجبسية يبيض صالحه للبناء واحجار كالرخام تقطع الواحاً رقيقة فتخرج شديدة الشفوف واللين والمثانة كأنها الزجاج او الميكال يستعملونها لسد النوافذ ويأتون بها من حوالى صنعاء . ولا تخلو بلاد اليمن البركانية من ينابيع مياه حارة كبريتية عليها حمامات يقصدها الاعلاء ، أشهرها حمام علي في قضاء آنس وحمام بيت الفقيه وحمام ناحية عر وحمام قعطبة وحمام رداع

وقد ردد الهمداني وغيره من مؤلفي العرب وأطنبوا في معادن اليمن وأحجاره الكريمة فذكروا وجود الذهب والفضة والحديد والنحاس . وقيل ان بعض الخبراء من الافرنج اخبروا أيضاً عن وجود معادن الحديد والكروم والنحاس والفحم الحجري والكبريت والنفط ، وذلك في النماذج التي جلبت لهم للفحص او في الاماكن التي توصلوا اليها . لكن احداً لم يحقق حتى الآن صفاء هذه المعادن وغنى مناجمها ان كانت لها مناجم دارة ، ولا يزال اليمن بحاجة الى خبراء في الجيولوجيا والمعادن يرودونه روداً علمياً ويحققون الصفاء والغنى المذكورين اللذين يشك في كفايتهما ووفائهما بنفقات الاستخراج . وكذلك لا يعرف سبب اهمال المعادن القديمة التي ذكرها الهمداني وغيره ألفاد مناجمها ثم لصعوبة استخراجها . وجل ما قيل^(١) ان منجم الفضة في الرضراض بين بلاد همدان وخولان كان يستثمر قبل الهجرة الى ان هبط احد كهوفه وسد منافذه فترك . ومثله منجم الرصاص في بلادهم ومنجم الفضة في مسارع ، قيل انهما كانا يستثمران في عهد الامام شرف الدين وابنه المطهر (٩٢٣ - ٩٨٠ هـ) الى ان هبطت كهوفهما أيضاً وسدت منافذهما فتركا وقيل انه كان في جبل نغم (قرب صنعاء) في عهد الحميريين منجم للحديد ظلوا يستثمرونه قروناً وكانت الاسلحة المصنوعة من هذا الحديد ذات قيمة باهظة لجودته ، وقيل ايضاً انه كان في جبل صبر (قرب تعز) منجم للذهب استثمر طوال قرون . ولم يبق من المناجم القديمة التي تستثمر سوى منجم الحديد في جوار صعدة . ويذكر ان الحديد القليل الذي يستخرج منه يؤتى به الى صنعاء وغيرها ويبيع بضعفي ثمن الحديد الاوربي المحبوب الى اليمن ويعمل منه الجنبيات (جمع جنبيه وهي السكين التي لا بد لكل يمامي ان يعلقها في وسطه) والجرد (جمع جردة وهي ضرب من السيوف العريضة) . اما الجزع الموشى والمسيير والعقيق الاحمر والاصفر اللذان يستعملان في صناعة الخواتم والشذب الذي يعمل منه ألواح وشفاف ونصب سكاكين وأمثالها من الاحجار الجميلة التي ذكرها الهمداني فانها لا تزال موجودة في اليمن يرزق من نحتها ونقشها ارباب صناعتها في صنعاء وغيرها

(١) سالامة ولاية اليمن لسنة ١٣٠٤ هـ . مطبعة صنعاء

نواح عسكرية

في عصر اسماعيل العظيم

لعمبر الرحمن زكي

في الفصل السادس من كتاب القاضي كرايتس « اسماعيل المفترى عليه » تقف على شيء كثير من مطامح الحديو اسماعيل باشا وآماله التي سعى في تحقيقها الى تحرير مصر من نير السيادة التركية . ولما كان يخشى ان يضطر الى امتشاق الحسام لتحقيق هذه الغاية اتجه بأبصاره شطر الولايات المتحدة الاميركية ليستعير منها ضباطاً لتنظيم جيشه وتدريبه

ولسنا نعلم ما الاجراءات الاولى التي اتبعها الحديو اسماعيل . والارجح انه في اواخر سنة ١٨٦٨ أو اوائل سنة ١٨٦٩ اتصل الحديو اسماعيل بالكولونيل « هنري موط » Henry Mott من ضباط الجيش الاميركي الاتحادي . وكان قد ادخل اولاً في خدمته كضابط بسيط لكنه بعد ان اختاره اسماعيل كلفه أنتقاء ضباط اميركيين للخدمة في الجيش المصري فأخذ يستخدم ضباطاً من كلا الفريقين المتحاربين في الحرب الاهلية الاميركية وقد وقع اختياره على الضباط الآتي بينهم : الجنرالات لورنج وسبلي وستون . والكولونيلات شايبه لونج . كولستون . ديريك . داي . فيلد — جنيفر — كنون — لوكيت — مكيفور — ماسون — بردي — بروت — الكسندر رينولدز — فرنك رينولدز — ريد — ريت — روجرس — سافيدج — آين — وارد

ثلاثة ضباط برتبة لفتننت كولونيل . وثمانية برتبة ماجور . وثلاثة برتبة كابتن . وثلاثة جراحين وقبل قدوم هؤلاء الضباط الى مصر وقعوا عقوداً مع الحكومة المصرية التي كان يمثلها « موط » (ان يشهروا الحرب على اي عدو للفريق الاول — كائناً من كان — وان يواصلوا تلك الحرب بكل شدة) ما عدا حمل السلاح في وجه الولايات المتحدة . وقد ذكر الكولونيل شايبه لونج انه قيل له ولرفقائه سرّاً ان الغرض الحقيقي لمهمتهم كان تنظيم الجيش المصري للقيام

بعل حاسم يضمن لمصر استقلالها ويزيل عنها النير التركي ^(١) واليك ما جاء في مذكراته عن اول مقابلة كانت بينه وبين اسماعيل باشا . قال له هذا :

« انني اعتمد على حبكم واخلاصكم ومراعاتكم لشروط الكتمان لتعينوني على تحقيق استقلال مصر . ومتى تم ذلك وسيتم باذن الله — فسأ كافئكم أعظم مكافأة » ^(٢)

« هيئة اركان حرب الجيش المصري » ولعل اهم يوم في تاريخ خدمة الضباط الاميركيين في الجيش المصري هو يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٧٠ في ذلك اليوم عين الجنرال ستون رئيساً لاركان حرب الجيش المصري . وكان هذا التعيين نذيراً بانتهاء السيادة الفرنسية في الجيش بعد ان كانت هيئة اركان حربه معظمها ان لم يكن كلها من الضباط الفرنسيين . فانتا نعلم جيداً ان عقب حرب القرم (١٨٥٣—١٨٥٥) وموت القائد سليمان باشا الفرنسي ^(٣) رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصري في ايام محمد علي الكبير والبطل ابراهيم وعباس الاول وسعيد اندثرت هذه الهيئة او ظلت اسماً على غير مسمى حتى بعثها اسماعيل باشا

لما بدأ الجنرال ستون عمله في ربيع عام ١٨٧٠ وقصد نظارة الحرية لتقلد منصبه الجديد لم يجد فيها « هيئة » كاتني توقعها وعثر على اسم كولونيل فرنسي كان مسافراً الى انكترا لمشتري ذخائر واسلحة ولكنه لم يعد من مهمته الا حوالي عام ١٨٨٠ . ولم يجد الجنرال ستون في نظارة الحرية خرائط او كتباً عسكرية او ملفات هامة للابحاث الحرية كما كان ينتظر ولم يكن للجيش المصري رئيس هيئة اركان الحرب بعد وفاة قائده القديم سليمان باشا الفرنسي الذي كان قد اوصى بارسال بعض نجباء الطلبة الى فرنسا لتاتي الدروس العسكرية العالية . فلما عادوا ضدهم تحت رآسته الى هيئة اركان الحرب التي ألفها على الاسلوب الفرنسي وبوفاته لم يخلفه أحد في منصبه حتى ١٨٧٠ . ولم يكن من افراد تلك البعثة العسكرية غير شريف باشا الذي كان يشغل منصب رئيس النظار وقائمقام الحديو اثناء غيابه في الاستانة — ومراد باشا حلمي الذي وصل الى رتبة اللواء وصار فيما بعد ناظراً للحقانية في عهد المغفور له توفيق باشا . وعلي باشا ابراهيم ناظر المعارف فيما بعد وغيرهم من اعضاء البعثة الرابعة (١٨٤٤) ^(٤) فكان من الطبيعي ان يؤلف الجنرال ستون

(١) كتاب « حياتي في القارات الاربع » لمؤلفه الكولونيل شاييه لونيخ ج ١ ص ١٧

(٢) راجع كتاب شاييه لونيخ ج ١ ص ٣٢ الذي سبق ذكره

(٣) هو الكولونيل سيف Séve الفرنسي الجد الاكبر لاسرة جلالة الملكة الوالدة وكانت وفاته في ١٢ مارس عام ١٨٦٠ بمرض الروماتزم وضرجه اليوم بجامب قصره في مصر القديمة — انظر كتاب Soliman Pacha مؤلفه Aimé Vingtrinier ص ٥٨٣

(٤) راجع كتاب البعثات العلمية في عهد محمد علي وعباس الاول وسعيد لسمو الامير الجليل عمر

هيئة جديدة وبدأ عمله بعد ان اكتسب ثقة الخديو واستأنف مساعيه واعداد ضباط اكفاء
يقيم لتبعاثهم الجديدة وتنظيم الجيش للخدمة بارشادات هيئة اركان الحرب وكان اول ما اوصى
به الجنرال ستون تعليم صفوف الجيش

﴿ تعليم ضباط الصف والجنود ﴾ واستصدر أمراً من الخديو بان لا يرقى أحد أفراد
الجيش الى درجة الأومباشي الا اذا كان ملماً بالقراءة والكتابة ولكي يمكن ترقية جميع
الجنود صدر أمر عال بإنشاء مدرسة في كل أورطة لتعليم ضباط الصف والجنود مدة ساعة ونصف
ساعة على الأقل يومياً — ونظمت مدرسة لتعليم ضباط الصف لكي تمد الجيش بما يلزمه
واستطاع بعد مدة قصيرة تعليم ١٥٠٠ من الجاويشية والأومباشية القراءة والكتابة ومبادئ
الحساب ومبادئ أعمال مسك الدفاتر. وألف بمعونته هؤلاء الرجال أورطتين نموذجيتين للجيش
ولما انتهى تعليمهم أعيدوا الى بلوكاتهم الاصلية لتلقين ما تدربوا عليه ثم كان يستبدلهم بغيرهم
لتدريبهم وهكذا. وكانت تلك المدرسة ملحقه بالثكنات المخصصة لنظارة الحربية بالقلعة ليزرد
عليها « ستون باشا » لمراقبتها باستمرار

ظهرت نتائج تلك النظم وأيغت ثمارها في وقت قصير فلقد كان ثلث عدد ضباط الجيش حتى
عام ١٨٧٠ لا يعرفون القراءة والكتابة ولم يكن عدد الصف والجنود الملهم بالقراءة والكتابة
ليزيد عن العشرة. فلما كانت سنة ١٨٧٣ أصبح اكثر من سبعين في المائة من رجال الصف قد تعلموا
القراءة والكتابة واصبحوا قادرين على التعبير عن أفكارهم كتابة. ولم يقتصر أمر تعليم الجيش على
الجند فقط فان « ستون باشا » اقترح على اسماعيل باشا فتح مدرسة أخرى لتعليم أبناء الجند كحق
لمن يدافع عن وطنه بحياته وكواجب على الامة تؤديه نحو أبنائها الجند. فلقى هذا الاقتراح
رعاية الخديو وتشجيعه وأمر بإنشاء مدرسة في كل مركز فرقة من فرق الجيش وأمر بالعناية
بالأطفال وتوزيع الملابس والاعذية عليهم على ان يعودوا الى أمهاتهم في كل مساء. أما الجنود
الذين استبقوا أسرهم في بلدانهم بعيدن عن المحطات العسكرية فكانت تخصص لابنائهم أماكن
لمبيت فيها وتصرف لهم الاطعمة في تلك المدارس بدون مقابل

وقد أثمرت تلك المدارس في سنين قلائل فقال اكثر من ٢٨٠٠ طفل قسطاً متوسطاً من
التعليم بدلاً من اهمالهم في قراهم. وكان اكثر معلمي تلك المدارس من ضباط الجيش الذين
انتخبوا من وحداتهم للقيام بهذا العمل الجديد وانتخب معهم بعض الجنود لأعمال الخدمة في
المعسكرات فلم تتحمل ميزانية الجيش اعتمادات كبيرة لحفظ تلك المنشآت الجديدة التي لم تكلفها
أكثر من ٢٥٠٠٠ جنيه في العام مقابل الخدمة الهامة التي أسدتها الى أبناء الجنود. وكان مما
يؤسف له كثيراً ان أغلقت هذه المدارس في عام ١٨٧٨ بتوصية لجنة مراقبة المالية بحجة

الاقتصاد في أبواب الميزانية وذلك لفائدة حملة الاسهم من الاجانب
 مدرسة أركان الحرب ١١ وكان من تعليمات ستون باشا انشاء مدرسة لأركان الحرب .
 انتخب لها عشرين طالباً من نابهي طلبة المدارس العالية . وكان لتلك المدرسة الفضل الاول في
 اخراج طائفة مختارة من شبان الضباط المتعلمين بين الاعوام ١٨٧٣-١٨٧٨ فوزعهم على الاقسام
 العسكرية المختلفة ومكاتب القواد ورؤساء الضباط الذين استفادهم للعمل معه من أميركا أمثال الجنرال
 لورنج وكولونيل داي والماجور لورنج وجريز وغيرهم . كما انه انتخب فريقاً من نجباء الضباط في
 سلاح المدفعية والخيالة ممن يجيدون إحدى اللغتين الانجليزية او الفرنسية للعمل مع هيئة اركان
 حرب الراسة بأشراف الجنرال لورنج^(١) صاحب الفضل في تدريبهم على الاعمال العسكرية الفنية العالية
 تنظيم هيئة أركان الحرب ١٢ وبالتدرج أنشئت الاقسام المختلفة لهيئة أركان الحرب العامة
 في نظارة الجهادية ووضع كل قسم تحت راسة ضابط أميركي . وكان كلما تخرج عدد من الضباط
 المصريين من مدرسة أركان الحرب عينوا للعمل في تلك الاقسام برتبة الملازم الاول . وبتقلدهم
 المناصب الجديدة بدأوا التمرين على الاعمال الفنية الخاصة . وأنشئت مكتبة عسكرية ضمت مختلف
 المؤلفات العسكرية المشهورة في اشهر اللغات واشترك في عدد كبير من المجلات الحربية الاميركية
 والانجليزية والفرنسية والالمانية والروسية . وكانت هذه المكتبة تحتوي على أربعة آلاف مجلد على
 الاقل لما أنشئت . وفي السنة الاولى من انشاء تلك الهيئة قام عدد كبير من الضباط المصريين
 باستكشاف المناطق الافريقية المجهولة ومناجم النيل ورسموا الخرائط التفصيلية لها . وتقدمت أعمالهم
 عاماً بعد عام نحو خط الاستواء . وفي الاعوام ١٨٧٤ و ١٨٧٥ و ١٨٧٦ امتدت تلك الاستكشافات
 الى كوردفان ودارفور والى بحيرات خط الاستواء كما امتدت الى الجنوب الشرقي نحو بربره وهرر
 وجردفون ونهر جوبا (بلاد الصومال) وبما لاجدال فيه ان ضباط هيئة اركان الحرب المصريين
 استكشفوا فيما بين عامي ١٨٧١ و ١٨٧٨ وبينوا على خرائطهم مساحات شاسعة من المناطق
 الافريقية التي ظلت مجهولة حتى أواسط القرن التاسع عشر وفاق مجهودهم ما قام به المستكشفون
 الاجانب في القارة السوداء ومعظم ابحاث هؤلاء الضباط لا زال من أهم المراجع الجغرافية^(٢)
 وليس معنى ذلك ان نتجاهل مستكشافات ستانلي وصمويل بيكر وجرات وسبيك ولفنجستون
 وغيرهم من رجال الاستكشافات الافريقية الخاصة بنهر النيل ومنطقة البحيرات والانهر الاخرى
 المستكشفون العسكريون ١٣ ولقد برهن الضباط المصريون الذين تخرجوا من مدرسة اركان

(١) هو الفريق لورنج باشا الذي عرف بأبي ذراع وقد كانت ذراعه مقطوعة واستدعى للخدمة في الجيش
 المصري في أوائل ديسمبر عام ١٨٧٥ لراسة هيئة اركان حرب الحملة المصرية في بلاد الحبشة
 (٢) نشر جانب كبير من الابحاث الجغرافية للضباط المصريين في جيش اسماعيل باشا بمجلات اركان
 الحرب العسكرية والمجلة الجغرافية الخاصة بالجمعية الجغرافية الملكية ومؤلفات الضباط الاميركيين أفراد هذه
 البعثة وأهمها Loring—A. Confederate Soldier in Egypt—1884

الحرب على كفاءتهم الممتازة في الحملة المصرية بالحيشة وفي حروب الدولة العثمانية ضد بلغاريا والصرب . وقد استشهد ستة في المائة من عددهم في ميادين القتال وسقط اثنان في المائة في الاستكشافات الجغرافية السودانية من الامراض الفتاكة ومعظم من تبقى منهم انتفع بمواهبهم واجتذبتهم المناصب الكبيرة اليها كالمصانع الفنية والمديريات واقاليم السودان . وكانت جهودهم في استكشاف البقاع الاستوائية والسودان ورسم الخرائط وتحديد الحدود مثالا يقتدى به . فانه لما تم فتح دارفور (١٨٤٧ م) اصدر الخديو امراً الى الجنرال ستون بتجهيز حملة عظيمة لاستكشاف اراضيها وارااضي كوردفان فعين الجنرال فرقتين من الضباط جعل الاولى تحت رآسة الكولونيل كولستون (Colston) ومعه الصاغ أحمد حمدي والملازمون عمر رشدي ومحمد ماهر ويوسف حلمي وخليل فوزي والدكتور الطبعي العالم بفوندي Pfund^(١) ثم تقلد المايجور بروت Prout قيادة الحملة بسبب مرض الكولونيل المذكور وقام اعضاؤها بالعمل ثلاث سنوات في الاستكشاف ورسم خريطة كوردفان بالتفصيل وخريطة جبل مره بدارفور والطرق الواصلة اليها وخريطة لجهات مكركة ونيام نيام وملحقاتها وجهات خط الاستواء . وقد عثرنا على صورة للتقرير الذي رفعه الجنرال ستون الى الخديو اسماعيل باشا في ١٦ اكتوبر ١٨٧٦ مينا فيه خلاصة النتائج الجغرافية والعلمية التي تمت بمعرفة ضباط حملات الاستكشاف في اواسط افريقيا خلال الاعوام ١٨٧٤ و ١٨٧٥ و ١٨٧٦ فاذا هي تشتمل على ما لا يقل عن سبعة وعشرين كشفاً جديداً أهمها^(٢) :

- ١ — استكشاف دقيق للنيل الابيض من غندوكرو الى بحيرة البرت
- ٢ — استكشاف النيل الابيض من الخرطوم الى غندوكرو وتعيين خمسة مواقع بالارصاد الفلكية
- ٣ — استكشاف بحيرة ألبرت عام ١٨٧٦ بمعونة جيوسي الايطالي
- ٤ — تحقيق مجرى نهر النيل بين بحيرة فكتوريا ومرولي واستكشاف بحيرة ابراهيم
- ٥ — استكشاف واتمام خريطة الطريق بين الدية وماطول وبين الدية وأويال
- ٦ — استكشاف مديرية كوردفان وبلغت اطوال خطوط الاستكشاف ستة آلاف كيلو متر وقد وضع المايجور بروت تقريراً اضافياً لهذا العمل
- ٧ — استكشاف الطريق بين دنقلة على النيل والفاشر عاصمة دارفور برآسة الكولونيل بوردي والفتنت كولونيل ماسون وخمسة ضباط مصريين
- ٨ — استكشاف مديرية دارفور وجزء من منطقة دار فريت الى حفرة دير النحاس وشيكا الى الجنوب وعمل خريطة لها وتقرير ضاف

(١) راجع كتاب حقائق الاخبار عن دول البحار — لاسماعيل سرهنك باشا — الجزء الثاني من ٣٣٨

(٢) راجع كتاب The Khedive's Egypt المؤلفه Edwin de Leon الطبعة الثالثة عام ١٨٧٧ ص ٤٢٩ و ٤٣٠ و ٤٣١ و ٤٣٢

٩ - استكشافات جيولوجية ومعدنية للمنطقة الواقعة بين الرودية وقنا على النيل والمنطقة الساحلية للبحر الاحمر بالقرب من القصير ورسم خريطة جيولوجية بالتفصيلات وقام بالجزء الاكبر من هذا العمل المستر ميشيل بمساعدة ضابط مصري من هيئة اركان الحرب والمسئو اميليانو الابيطالي والاختصاصي في المعادن

١٠ - استكشاف المنطقة الواقعة جنوبي غرب زيلع بالقرب من تاجورا طوغرافياً وجيولوجياً

ورسم خريطة تفصيلية لها

١١ - استكشاف ومسح المنطقة بين بربرة وجبل دوبار ورسم خريطة لها وقد قام بهذا العمل اليوزباشي عبد الرزاق نظمي وبعض الضباط المصريين

١٢ - استكشاف واتمام الخريطة للطريق الصحراوي بين اسيوط وعين الاجية . وقام بهذا العمل الماحور ديوهولي Diuholy يعاونه ضابط مصري من هيئة اركان الحرب

وغير ذلك من الاعمال الفنية التي تسجل لهذا الحيل من العسكريين النابهين . وكان الضباط اثناء قيامهم بتلك المهام النبيلة يعتمدون على مرتباتهم العسكرية الضئيلة بينما تمتع غيرهم من المستكشفين الاجانب بما اثارهم طول حياتهم . لكن كان من وراء اعمال هؤلاء الضباط البواسل ان رفع العلم المصري على المناطق الاستوائية الى ما وراء بحيرة فكتوريا نيانزا والصومال ومناطق البحيرات وغيرها من المناطق الساحلية التي كانت تابعة للدولة المصرية في وقت من الاوقات

﴿ الثقافة العسكرية ﴾ وفي سنة ١٨٧٣ وافق سمو الخديو اسماعيل على اقتراح ستون باشا بانشاء مطبعة عسكرية يكون مقرها في نظارة الحربية فقامت في بادئ الامر بطبع المنشورات والتقارير ثم تقدم عملها واتجه الى اخراج الخرائط المتقنة الملونة والكتب . وبما يؤسف له ان هذه المطبعة كانت في مقدمة ما اتجهت اليه لجنة مراقبة المالية عام ١٨٧٨ فأوصت بالقضاء على آلة الطباعة ناشرة العلم والحضارة . ومع نتيجة هذا الحكم القاسي ظلت آلة الطباعة تقوم بمصروفاتها معتمدة على ايرادها مما كانت تخرجه من المؤلفات وبيعها حتى ألغيت نهائياً عام ١٨٨٢ ونحولت آلتها الى المطبعة الاهلية . وبجانب المطبعة العسكرية التي كانت تخرج صحيفتين حرييتين هما « جريدة اركان حرب الجيش المصري » والاخرى « الجريدة العسكرية المصرية » انشئت مكتبة نفيسة تحوي كتباً قيمة في الفنون الحربية وألحق بها متحف حربي للأسلحة والمتحف والنذكرات الخاصة بالجيش ^(١) وكانت المجلة الاولى تنشر مباحث قيمة للجنرال ستون باشا ولحمد نخار افندي (باشا فيما بعد) وحامد بك عبد العاطي المدرس بالمدارس الحربية وعبد الرزاق نظمي (بك) وعبد الله بك فوزي من ضباط اركان الحرب

(١) راجع كتاب عصر اسماعيل للاستاذ المؤرخ عبد الرحمن بك الرانمي الجزء الاول صحيفة ١٨٩ و ١٩٠

﴿ جيش اسماعيل ﴾ والآن وقد انتهينا من رسم صورة عامة لأهم عناصر الجيش المصري في أيام اسماعيل وهيئة اركان حربه فلنذكر أهم الوحدات التي كان يتكون منها الجيش نقلاً عن حقائق الاخبار
الوحدات العسكرية
قواها

- ١ — فرقة حرس مركبة من ٤ آليات مشاة
١٦٠٠٠ جندي و ٤٢٧ ضابطاً
بقيادة الفريق راشد باشا حسني
- ٢ — الفرقة الاولى مركبة من ٤ آليات مشاة
١٦٠٠٠ جندي و ٤٢٧ ضابطاً
بقيادة الفريق عثمان باشا رفاقي
- ٣ — الفرقة الثانية بقيادة اسماعيل باشا كامل
- ٤ — الفرقة الثالثة بقيادة محمد باشا خسرو
- ٥ — أربعة آليات خيالة بقيادة ابراهيم باشا الفريق
- ٦ — أربعة آليات مدفعية برية بقيادة علي باشا رضا
- ٧ — ثلاثة آليات سواحل بقيادة خورشيد باشا
- ٨ — اورطنان من المهندسين بقيادة الامير الالي احمد ثابت ١٨٠٠ جندي و ٥٣ ضابطاً
- ٩ — هيئة اركان الحرب بقيادة الجنرال ستون باشا ٣٠٠ جندي و ٦٩ ضابطاً
- ١٠ — قلم مهندسي الحربية بقيادة المرعشلي باشا ٨٠ جندياً و ٤٠ ضابطاً
- ١١ — بلوك الصناعاتية : نينو باشا ٤٥٠ جندياً و ١٤ ضابطاً
- ١٢ — ورشة التريزية : ابراهيم بك شوقي ٦٠٠ جندي و ٢٩ ضابطاً
- ١٣ — ورشة الذخيرة : حسين باشا الطوبجي ٣٥٠ جندياً و ٢٦ ضابطاً
- ١٤ — مستحفظين قيادة وسواري ٣٠٠٠ جندي و ٧٧ ضابطاً
- ١٥ — بوليس حربي ٥٠٠ جندي و ٢٠ ضابطاً
- ١٦ — مدرسة اركان الحرب ١٠٠ طالب و ٦ ضابط
- ١٧ — مدرسة المهندسين الطوبجية ٢٥ طالباً و ٢ ضابط
- ١٨ — مدرسة الخيالة ١٢٥ طالباً و ٥ ضابط
- ١٩ — مدرسة المدفعية ١٠٠ طالب و ٤ ضابط
- ٢٠ — مدرسة الطب البيطري ٤٠ طالباً و ١ ضابط
- ٢١ — مدرسة المشاة ٤٠٠ طالب و ٨ ضابط
- ٢٢ — مدرسة الخطرية ٣٠٠ طالب و ١٤ ضابطاً
- ٢٣ — مدرسة اولاد الجنود ٨٠٠ طالب و ٢٠ ضابطاً

سَيَرُ الزَّمَانِ

خواطر حول نزول
الملائك ادورد التامه

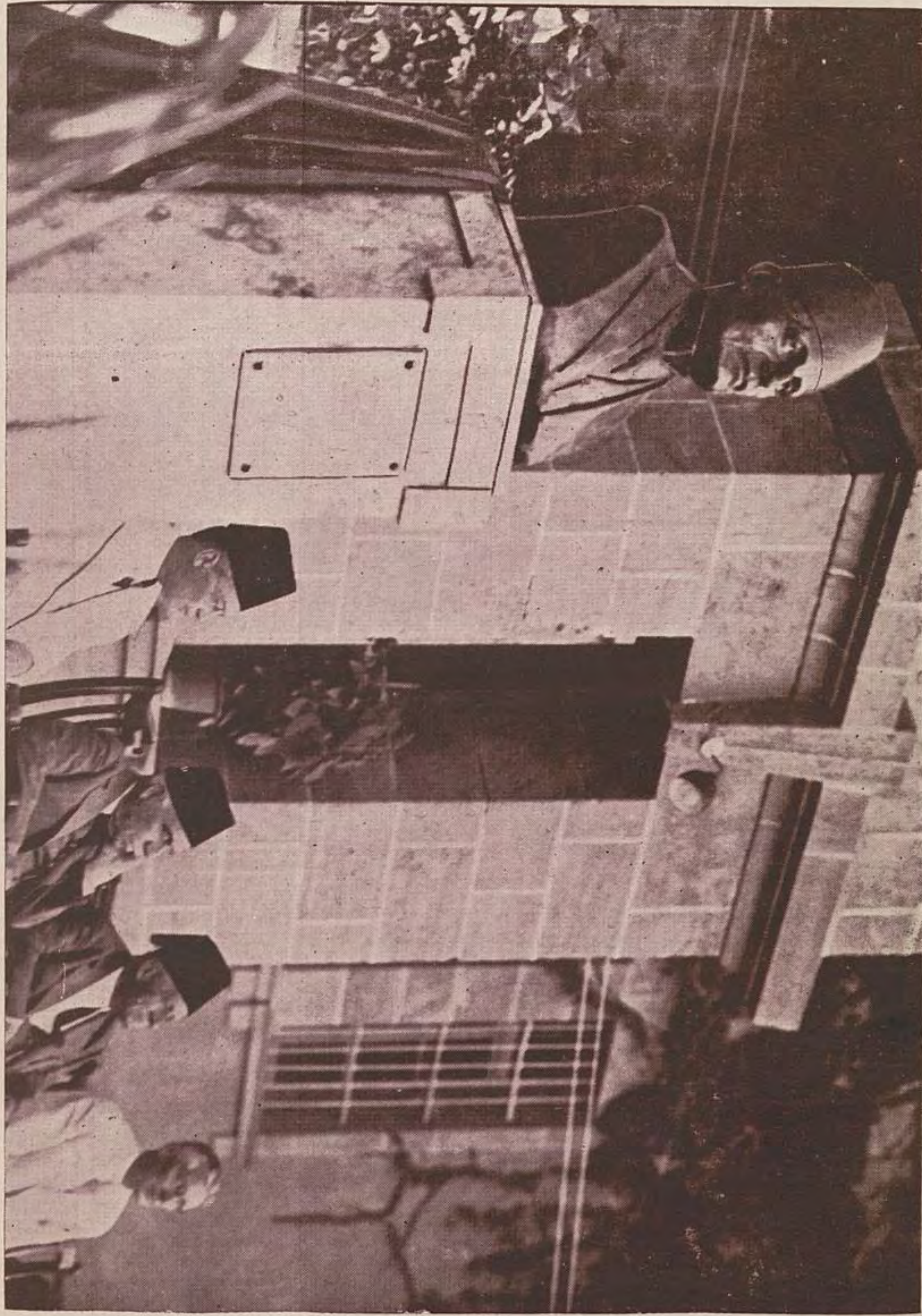
عن العرش

نظرات ومقابلات في العصر
الشرق والغرب

لسليم خياطة

فلسفة المعارضة

في نظام الحكم الديمقراطي



الدكتور يارد ضووح رئيس جامعة بيروت الاميركية و فالاستاذ يوسف ايتيموس رئيس جامعة متخز جيبسا و
فالدكتور فارس نمر باشا و فالدكتور عبد القادر المحطم مدير الجامعة السورية بدمشق و فجمال الدكتور صروف
الاهرام ٢

خواطر حول نزول

(١)

الملك إدوارد الثامن عن العرش

ان الاجانب الذين يزورون انكلترا ، قلما يفهمون ما ينطوي عليه النظام الملكي البريطاني من المفارقات ، ولا سيما اذا كانوا من بلدان جمهورية . فالملك الانكليزي مجرد من السلطة بحيث لا يستطيع ان يختار زوجته الا بموافقة رئيس الوزراء ، ولكنه في الوقت نفسه له من المكانة في نفوس فريق كبير من الشعب وحياته الاجتماعية ، لا تدانيها مكانة اي حاكم بأمره في اوربا . وليس من المبالغة في شيء ان نقول ان الملك وامراء البيت المالكي في انكلترا يحتلون في حياة شعبهم العامة والخاصة مقاماً لا مثيل له في سائر البلدان الملكية . بل ليس في بلدان اوربا الملكية ما في انكلترا من ولاء للاسرة المالكية وتدلّه رومانطيتي بها . ولكن الانكليز انفسهم لا يرون هذا التناقض ، فيشيرهم مثلاً ما يرونه من تعاقب الالمان بهتلر ، كانه سيدوكانهم اتباع ، او ما يقال عن سعي بعض الروسين لتأليه ستالين ، جاهلين ان موقفهم من الملك والملكية والاميرتين الصغيرتين والدوقات ، لا يختلف عن موقف الالمان والروس ، الا في انعدام المسوغ له

ثم ان الاسرة المالكية في انكلترا ، على الرغم من زيارة المناجم والمدارس والمستشفيات ، ابعد عن الديمقراطية الصحيحة من كثير من الاسر المالكية الاخرى . فليس بالنادر في ستوكهولم ان ترى في الحديقة العامة رجلاً مديد القامة نحيف البنية ، يحميك وقد يقف ليتحدث معك . ثم تعلم اذا كنت لم تعرف من هو انه الملك جوستاف الخامس ملك السويد . والمشهور عن الملك كريستيان العاشر ملك الدنمارك انه كان في حياته كثير الاختلاط بالشعب ولا يزال . وكذلك كان الملك البرت الاول ملك البلجيكي السابق ، والملك ليوبولد الثالث قبل مصرع زوجته . حتى في النمسا التي كانت قبل الحرب من اشد الامم تمسكاً بالتقاليد وقواعد السلوك الرسمي ، لا يزال الناس يذكرون الامبراطور فرنسوى جوزيف متزهاً في الحدائق ، متحدثاً فيها مع اقل الناس ، ويذهب بعضهم الى ان هذه الذكرى من اقوى البواعث على نشاط الحركة الملكية في النمسا

ولكن هذا لا يقع في انكلترا . نعم ان اعضاء البيت المالكي ، يذولون ما في وسعهم للاتصال بالشعب من طريق الحفلات العامة كوضع الحجر الاساسي في كلية او متحف ، او زيارة المناجم والمناطق المتكوبة ، او عيادة المرضى في المستشفيات او افتتاح الاسواق الخيرية ، ولكن الشعب قلما ينسى ، ان حضرة صاحب السمو الدوق او حضرة صاحبة السمو الدوقة هناك . فالصلة بين البيت المالكي في

هذه الحفلات موسومة بسمة من التكلف . وكأن آيتها: « هوذا الملك او من ينوب عنه ، يقوم بما عليه ! » . ومن غرائب المفارقات ، ان الملك الانكليزي الوحيد ، الذي كان ديمقراطياً حقاً ، واستطاع ان يتجرد من هذا التكلف عند اتصاله بشعبه ، كان كأنه ظاهرة شاذة في حياة بريطانيا الاجتماعية ، فاضطر الى النزول عن العرش بعد حكم دام أقل من أحد عشر شهراً !

ان الصورة القائمة للنظام الملكي البريطاني ، ليست وليدة التقاليد المرعية في القرون الوسطى ، كما يظن ، بل هي وليدة أواسط القرن التاسع عشر على الأكثر ، ومطبوعة بطابع الملكة فكتوريا على الغالب . ان خلق هذه السيدة النشيطة الغيدة التي حكمت انكلترا أكثر من ستين سنة كان أبعد أثرأ في تطوّر النظام الملكي البريطاني ومقامه ووظيفته ، من أسرة كاملة من الملوك الانكليز الاقحاح . كانت ألمانية النشأة والتربية والطبع ، تميل الى التحكم ، فلما لم تجد منفذاً لهذا الميل في ميدان السياسة ، عمدت باندفاع المهووسين الى البحث عن منفذ فوجدته في وظيفة البيت المالك الاجتماعية . نعم ان لملوك والملكات والامراء والاميرات وظيفة اجتماعية حيث يوجد بيت مالك ولكن هذه الوظيفة تقتصر في الراجح على الازياء وتمتد الى الحاشية ومن يلوذ بها

اما الملكة فكتوريا فلما ادركت حدود محكمها السياسي ، اغتصبت سلطة مطلقة على افكار الشعب وعاداته ، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بالحياة الخلقية . ولم تحصر سيطرتها في حدود أسرتها وحاشيتها ، بل شملت بها فريقاً كبيراً من الشعب . ولو ان الشعب البريطاني ، منحها شيئاً من السلطان السياسي ، لكي ينقذ من هذا الاستعباد الخلقي الاجتماعي لكان ذلك خيراً له

ان خلق الملكة فكتوريا وحكمها الطويل ، رفع آراءها في وظيفة البيت المالك من الناحية الاجتماعية ، الى مستوى التقاليد المرعية الجانب او القواعد الاساسية . فالملك بحسب رأيها ليس جزءاً سياسياً فقط ، بل هو صورة مثالية لما يجب ان يكون عليه سلوك شعبه

فلا أسرة المالكة ، بهذا التحديد الجديد ، ليست أسرة كسائر الأسر ، لها نقائصها ومواطن المؤاخذه عليها . بل هي رمز اجتماعي سام ، لا يرتقي اليه النقد . والملك الانكليزي ليس رجلاً بل مثلاً متصفاً بجميع الفضائل التي اتصف بها البرت زوج الملكة فكتوريا ، وقد زهت عن كل ضعف . فهو زوج كامل وابن بار ووالد حكيم ومثال تام للانسان الكامل — أو هكذا يجب ان يكون في ما يدور من حياته للعيان . له ان ينحرف عن هذا الصراط المستقيم ، ولكن ذلك يجب ان يكون بمعزل عن الناس . فالمقياس ليس ما يفعله الملك ، بل ما يفعله جهراً

اما الملكة فالقلب النابض في هذا النظام ، وعليها يقع الجانب الاكبر من عبء الوظيفة الاجتماعية التي اسندتها الملكة فكتوريا الى البيت المالك . وعلى ذلك يجب ان تكون الملكة ، مثلاً للمرأة الكاملة كما تصوّرتها فكتوريا ، عفة وولاء ومحبة وطاعة وعلاوة على ذلك يجب ان يكون دم الملوك جارياً

في عروقتها وان يكون دماً المانياً اذا أمكن والا فليكن دنماركياً او يونانياً او من دم آل رومانوف وانصافاً لرجال المال والاعمال الانكليز وهم حكام بريطانيا الحقيقيون الآن، يجب ان نقول انهم لم يتقيدوا بقيد الدم الملكي، فأنهم اذا وجدوا فتاة من الارستقراطية الانكليزية او غيرها من الارستقراطيات الاوربية، قد ملكت قلب مليكهم او ولي عهدهم، قبلوها ملكة او أميرة عليهم، ولكن على شريطة ان تكون متصفة، بالفضائل الاخرى، لان الصورة الملكية الراسخة في اذهانهم، تنهار او تتمحي من دونها

ولعل اقوى البواعث على رسوخ هذه الصورة، ان رجال المال والاعمال في انكلترا يحسبون الاسرة المالكة صورة مثالية لاسرهم كما يبغيونها. فالطبقة المتوسطة الانكليزية اتجهت الى قصر بكنهام قبل قيام هوليود وذبوع الصور المتحركة. لانها رأت في بكنهام لوحة تشاهد عليها حياتها كما نودها ان تكون. الا ان التاجر الاميركي يتجه بعد كده وكده، الى ما تخرجه هوليود ليرى فيه ما يتوق اليه من مثل الجمال والحب والتسليه، حالة ان ندّه الانكليزي يتجه الى بكنهام ليرى فيه ما يبغيه من الفضيلة. فالانكليزي يحسّ عندما يمجّد الاسرة المالكة ويستمد اليها جميع الفضائل انه يمجّد نفسه وزوجه. وعندما يهتف حتى يبحّ للاميرتين الصغيرتين، انما يهتف لبنايته ممثلات فيهما على نحو ما يفعل رواد السينما عند ما يرون رونلد كولمان او جريتتا جاربو او شرلي تمبل. هنا فتاة ترى في كولمان مثلاً لحبيها، وهناك رجل يرى في جاربو صورة للمرأة التي يتمناها، وهناك اب وام يريان في شرلي تمبل ابنتهما الصغيرة

كان ادورد دوق وزر، اقل اعضاء الاسرة المالكة الانكليزية، استعداداً للاندماج في هذه الحياة الملكية الرسمية المتكلفة، التي وضعت لها الملكية فكتوريا الحدود والقيود. الا ان هذا التناقض كان مقصراً على الناحية الاجتماعية دون السياسية. اذ ليس ثمة ما يحمل على الظن بان الملك ادورد كان يتطلع الى تخطي حقوقه الدستورية او التعدي على حقوق الوزارة والمجلس النيابي. وقد ثبت الآن، فساد القول بان نزوله عن العرش كان نتيجة نضال بين التاج والبرلمان. وذلك لسبب بسيط وهو ان الملك ادورد لم يكن يولي السياسة عناية كافية تحمله على خوض النضال في ميدانها فالتنافر الذي قام بين خلق الملك ادورد وحياة الملك كما رسمتها جده ابيه فكتوريا، كان محصوراً في وظيفة النظام الملكي من الناحية الاجتماعية

كان الملك ادورد الثامن، طبعاً وخلقاً اقرب الى جدّه الملك ادورد السابع منه الى ابيه الملك جورج الخامس. حتى مراسم حياة القصر التي خضع لها ونهض بها على اوفى وجه، لم تكن تخفي نزعة مستقلة فيه الى معيشة مطلقة من هذه القيود. فقد ركبت في طبيعته وخلقه عناصر، من شأنها ان ترفع صاحبها الى مقام الزعامة في ناحية من نواحي السياسة او الفن او الاجتماع، لو لم يكن ابن ابيه

ولكن ادورد ولد في قصر ، فكانت هذه القيود ثقيلة عليه ، وزاد الطين بلة ، ان النضال الدائر في نفسه ، بين نزعة المستقلة والقيود الملكية المفروضة عليه ، كان معروضا على الجمهور . وقد اقتضت مكانة الملكية ، ان يتحرك دائما والعيون متجهة اليه ، فكان له في شبابه وحسن سلوكه ما حبه اليهم . فاذا اضفت الى ذلك حاشية ، هي من ضرورات الحياة في القصور ، تطري في اخلاص وغير اخلاص وتعني بالسخيف والجليل من الامور ، وتدهان وتتملق ادركت ان فتى مرهف الاحساس كالبرنس ادورد لا يمكن ان ينجو من التضعضع والتحول الى آلة رسمية ، يزور وينحني ويسم للصوريين ، الا بالعجوبة

وجاءت الحرب الكبرى فكانت تلك العجوبة . والواقع ان ادورد وزر وليد تلك الفترة من تاريخ العالم ، التي يعرف ابناؤها باسم « جيل الحرب » . فهو مثال حي ، لتلك الشخصية التي وضعها نوبل كالورد في احدى مسرحياته — شاب مرهف الاعصاب ، تأخذه اطوار مختلفة من البشاشة والعبوسة ، والتأمل والتعقل والاندفاع ، ولكنه مع ذلك محب الى الناس . هذا الجيل من الشباب ليس بالجيل الضائع كما يوصف لان افراده على الرغم مما اصابهم لا يزالون يرنون الى مثل عليا ، من السلام والمساواة والعدل الاجتماعي ولا سيما العدل الاجتماعي . وعلاوة على كل ذلك ، انهم مخلصون ، ويمقتون الرياء والنفاق ، فاذا استحسنت ازمة لم يجنوا عن تأييد معتقداتهم والتصحية في سبلها

ونزول الملك ادورد عن العرش ، عمل من هذا القليل . فاقا اذا جردنا حديث هذا النزول عن ملاساته السياسية الثانوية ، تبين لنا انه كان عملاً روحياً قام به رجل ثائر على بيئة اجتماعية ، قدعته منذ حدثه . ومن بواعث الاسف ان تكون التواحي السياسية والغرامية قد نجبت في هذه القصة مغزاها الحقيقي

ان نزول الملك ادورد عن العرش ، لم يكن ثورة ملك على وزرائه او برلمانه ، بل كان ثورة أعظم شأناً وأبعد مدى ، لأنه كان ثورة ملك على نظام الملكية كما هو في انكلترا من الناحية الاجتماعية . انها ثورة الرجل في ادورد الثامن على الملك فيه ، على الرمز المتمثل في شخصه . ولو لم يكن الشعب الانكليزي محافظاً الى أبعد حدود المحافظة ، حتى حزب عماله ، لكان أفضى عمل من هذا القليل الى تحول روحي واجتماعي كبير الشأن فيه

والغريب ، ان النزاع الدستوري كما قيل ، كان ذا شأن ثانوي في هذه الدراما الروحية . وكذلك كانت المسز سمبسن . لم يكن شأن المسز سمبسن في هذه المسألة الا شأن كثيرات من النساء ، بعثن الجراة في قلب الرجل ، فأقدم على ذلك العمل الخطير ، على التحرر . والراجح ان ادورد لولاها ، لعجز عن الاقدام ، ولكن هذا لا يعني ان المسز سمبسن كانت الباعث على نزوله عن

العرش ، اذ لولا هذه الثورة المضطربة في نفسه ، لتخلى عن المسز سمبسن كما أرادهُ وزراؤه وأهله ان يفعل . فقد قضى حياته شأن كثيرين من الشبان الذين خاضوا غمار الحرب الكبرى يبحث عن القوة التي تعينه على فك القيود ، الى ان اتفقت له المسز سمبسن فكنته بتأثيرها مما يبغى . وكل من يعرف شيئاً عن هذه الانقلابات الروحية ، يدرك ان العوامل الخارجية قد تتيح لها فرصة الظهور ولكنها لا يحدثها . فالبرلمان والمسز سمبسن كان عرضين في تطور شخصية تبحث عن حقيقتها الا ان هذا لا ينبغي ان هذا العمل الشخصي ، له مغزى اجتماعي . وليست هذه الثورة بالظاهرة الجديدة في انكلترا . بل ان جانباً كبيراً من أدب انكلترا ، اعراب عن ثورة دائمة في نفوس فريق من الشبان ، ولعل كارليل وبطر وشو وولز ولورنس وهفلوك اليس في مقدمة الكتاب والادباء الذي أجادوا الاعراب عنها . وقد بدت هذه الثورة في الحياة الاجتماعية ، في اشتراكية شو والنهضة النسوية وحركة العمال . وما حدث في البرلمان الانكليزي يوم ١٢ ديسمبر شبّه بما حدث في كثير من البيوت الانكليزية في خلال الجيلين الماضيين . ان ادورد وتزر ليس اول الذي تحدوا صورة الحياة الاجتماعية الانكليزية كما رسمتها الملكة فكتوريا ، بل هو اقرب الى آخرهم . انه ليس ملكاً ذهب الى المنفى ، بل هو ملك انضم الى جيش الثوار

كانت انكلترا أسبق الامم الى تحقيق الديمقراطية السياسية . وقد سلكت الطريق المفضي الى الديمقراطية الاقتصادية منذ وضع لويد جورج ميزانيته المشهورة سنة ١٩٠٩ على وعورته والتوائه . ولكن الصورة التي رسمتها الملكة فكتوريا للملك الجالس على العرش وملكته ، تخرجها عن كونها رجالاً وامراًء ، الى جعلهما في نظر عامة الشعب أقرب الى الآلهة منهم الى الناس . هذه الصورة تجعل الهوة بين الملك وسواد الشعب هوة كبيرة ، واليهما يرتد كثير من النفاق والتعالي في حياة الانكليز الاجتماعية ولا سيما في الصلة بين ما يعرف بطبقة الاعيان من جهة والطبقة المتوسطة وما دونها من جهة اخرى ، واليهما كليهما يرد القول بأن هذه الديمقراطية السياسية الكبيرة أبعد ما يكون من ان تكون ديمقراطية اجتماعية

فاذا كان نزول ادورد الثامن عن العرش باعثاً على تنبه الانكليز الى هذه المفارقات في حياتهم العامة ، واذا تمكن الملك جورج السادس بما أثر عنه من الدعة الحقيقية ، والرغبة الصادقة في خدمة الامة ولا سيما في نواحي حياتها الاقتصادية والاجتماعية ، وتقرّب هو ومن حوله ، من الشعب بحيث يحسّ الشعب انه منهم كما يحسّ الدنماركيون والسويديون — اذا حدث هذا فان أثر نزول ادورد الثامن عن العرش يكون اعظم من أثر بقائه عليه ، ولا يستبعد حينئذ ان يقول المؤرخون في المستقبل ان يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٦ (يوم النزول عن العرش) كان أكبر شأنًا في تاريخ انكلترا من يوم ١٦ مايو ١٩٣٧ (يوم التويج)

نظرات ومقالات

في العصر

للسليم خباطه

الشرق والغرب

أراها واحداً لا ينقسمان . وفي الواقع ، ليس هناك لا شرق ولا غرب منفصل أحدهما عن الآخر . هما في تلاقٍ دائم . في كل نقطة على الأرض يتميزان ، وكل نقطة على الأرض غرب بالقياس إلى الشرق وشرق بالقياس إلى الغرب . وليس هذا في الاتجاه الموقعي على الكرة فحسب ، بل هذا يجري حكمه على الإنسان الساكن عليها أيضاً . من العبث والخرافة قولنا أن الشرق شرق والغرب غرب ، قولنا أنهما مفترقان لا تجمع بينهما صلة

ليس ثمة شيئان اثنان يتشابهان شَبْهاً تاماً كأن كلاً منهما هو الآخر . ولكن بين كل شيء وشيء صلة مهما اختلفا ، تضعف وتقوى تبعاً لتقارب المميزات والظروف الأصلية الجامعة . حتى بين الإنسان والحجر توجد صلة ، هي صفة الوجود . غير أن بين الإنسان والإنسان قرابة وثقى لا تنقسم . فتجعله واحداً في نوعه بأهم ما فيه وما يمتاز به — وذلك مهما تباين وأينما كان ، أفي أواسط آسيا أم في معالم أم في مجاهل القارتين الجديدتين . وإن بين الشرق والغرب المصطنعين ، المشطورين كالبطيخة المعدة للالتهام ، المحدودين بحسب ما كان من تعريف الجغرافية الرسمية ، جغرافية « المدارس » (١) الاستعمارية وشعرائها الفقهاء — إن بين هذا الشرق والغرب بأهلها ومدنيتها من الصلات الإنسانية والاجتماعية ، من التقارب في الظروف الأصلية والكيان ، من وحدة الأصول وامتزاج الفروع ، ما يجعلهما قريبين متشابهين ، صلات أحدهما بالآخر تكاد تكون من القوة كصلة أية دولة أو شعب غربيين بأية دولة أو شعب غربيين آخرين . بل إن الرجعي الانكليزي و « البطاش » الياباني ربما كانا أحدهما أقرب إلى الآخر من الأول إلى مفكر انكليزي حرٍّ ، أو من الثاني إلى عامل ياباني راق

تربط الشرق والغرب ، على اعتبارها الاصطناعي الراهن ، كلُّ عروة قوية تجعل الشبه بينهما

جوهرياً وأوثق من أوجه الاختلاف . أول هذه العُرى الانسان نفسه ، وهو الذي قسم الارض الى شرق وغرب بالاستناد الى التفريق الحاصل بينه او لاجل التفريق بينه . فالانسانية كلها حلقة واحدة قائمة بذاتها ، مضروبة حول الارض ، وتقيّد كل بقعة تقع غربي الاخرى بكل بقعة تقع شرقيها . ثم بعد الانسان ، شبكة مكنية من الروابط الطبيعية والاجتماعية والوقائع العالمية المستمرة . هي شبكة تضيع معها التحديدات المسكانية الحديثة والقديمة ، ويبقى فيها المسكان مطلقاً من اي تخطيط او تفريق كان يتوهمه ويدعو اليه أي رهط

ما الفرق بين الصيني والالمانى ؟ الفرق في لون البشرة فقط . لكن هل للصيني بشرة وليس للالمانى شيء منها ؟ كلاً ! وما الفرق الجوهري بين اسكتلنديٍ بعدد او يستغل إلهاً ثلاثياً وبين مسلم هندي يعبد إلهاً واحداً وعدة اولياء ؟ لافرق ! كلاهما بعدد او يستغل حقيقةً أو وهماً ، وهذا التباين بينهما سطحي يقتصر على الشكل وعدد رموز الحقيقة أو الوهم الضمني . والغربي الذي يريد البعض ان يفرقوا بينه وبين الشرقي على أنه أسمى أخلاقاً وخيالاً ، فيم نرى له الزيادة الحقيقية في السمو ؟ فهل من فرق يُؤوبه له بين غارات جنكيز وتيمور وهولاكو التي نذكرها باقشعرار لما ضحّت به من مدينة ومن ملايين البشر ، وبين ما ضحّت به فراعنة الغرب الماضون من مدينة ومن ملايين في جحيم الحرب الكبرى ، هذا الجحيم الحقيقي الذي كنا نرى كثيرين من الغربيين الغريبي العقول والاطوار يناغونه بألوان ملوّنة من الكلام والتلفيق ؟ هل بين أفضح ما روي عن تيمور من الحوادث وبين مئات الألوف من الذين قُبروا في « فردون » ما يجعل أقل تمايز بين أعمال الأولين والآخرين في الهمجية المنظمة على مقياس واسع — اللهم الاً الاختلاف في شكل وسائل الابادة التي استعملت في كلا العصرين ؟ لقد كان رجال الاستعمار الانكليزي ينشرون بين أولاد بلادهم قصة « بؤرة كاكوتا السوداء » ، فيغرس فيهم أن أولاد الهنود أبناء أناس برابرة ، فهم أحط منهم ، وهم من جبلة أخرى . وطبعاً لم يكن هؤلاء السادة يعلمون أطفالهم شيئاً عن مذبح « آمريتسار » ، حيث قتل ثمانمائة رجل وامرأة وطفل من الهنود بالبنادق والرشاشات في حوالي خمس دقائق على ما يروى . كما وأنهم كانوا لا يذكرون خبر بؤرة سوداء حقيقية ، وذلك يوم حسّدت أسراب من فلاحى « مبله » في جنوبي الهند داخل قطار أغلقت جميع منافذه ، فماتوا احتناقاً

في رأيي ، أن ابن نايكنغ وابن نيويورك لا يفترقان فيما هو جوهري أصلي من طبع الانسان وأحواله وتركيبه . وأرى أنه يكاد يكون للإنسان في كل بلد نفس العواطف والمطالب والاهواء والقابليات العقلية الأساسية ، تتراوح ما بين حد أدنى وحد أعلى في درجة عامة جامعة لا تشمل ، طبعاً ، التطورات الفرعية ولا إجحراف المميزات الخاصة أو ترقىها . وتكاد تحيط به

في أغلب العالم نفس الصفات العامة في ظروف البيئة الطبيعية وفي خصائص المدينة والحضارة ونفس القواعد والخطوط والتطورات الرئيسية الواسعة في أنظمة الحكم والأنظمة الاقتصادية، ثم في التركيب الاجتماعي، وفي الأفكار والتحركات والمبادئ والمعتقدات الاجتماعية

إن لم يختلف النظام الاقتصادي قل الاختلاف الهام بين مجموع الناس الذين يعيشون فيه وبه. لكن حتى ولو اختلف هذا النظام بقي الانسان، فيما نلاحظ ونعرف من حياته في شتى الحقب التاريخية والأوضاع الاجتماعية، متشابهاً في اصوله، في مطالبه الحيوية، في أحكام ضرورات البقاء عليه، وفي جماع غرائزه وعواطفه من تأثر بالحُب والبغض والجوع والام والغضب والغيرة والامومة والجمال والموت وما شاكل، وذلك وإن اختلفت مظاهر التعبير عن هذه الأساسيات وأشكاله، أو تباين الاتجاه التهذيب فيها ومقداره ونوعه

غير أننا نجد في هذه المظاهر والأشكال وتباين الاتجاه ومقدار التهذيب في الغرائز والعواطف الانسانية ونوعه: مقياس ترقى الانسان وتأخره أو انحطاطه

فإن رجلاً يدفعه طلب الحياة إلى العمل من مشمر ولإبداعٍ أرقى طبعاً من ساكن الكهف الذي كان يقنات بالنبوت، ومن المهرب وقاطع الطريق، ومن الذي يتنعم بأرباح الحرب. وأمّ تعبر عن حبها لطفلها بالاعتناء به على اصول علمية أكثر تهذيباً في عاطفتها من أمّ تعبر عن حبها بتصرف خرافي خشن قد تمرضه أو تقتله، وأمّ لا تفرق في حنوّها بين الذكر من اطفالها والابن اسمي جداً من أم تضطهد اثناها. وإن حباً مشتركاً متبادلاً بين رجل وامرأة أرفع من حب الاول لامة جاهلة او لامرأة كالفينة، ومن حب الثانية لسيد يتمتع بها او لعاشق محترف تتمتع به فحسب. وإن التأثر بجمال رسوم ميخائيل انجلو ارقى كثيراً من التأثر بأيقونة بيزانطية. وظهور غريزة القتال في قالب مذهب من مباراة رياضية او تنافس في اي ميدان من ميادين التفكير والعمل اسمى من ظهورها في ميدان حرب وحشية او سلوك إجرامي. ورجل حر يجادل بالمنطق والبرهان وأصول الاحتكام يختلف جداً عن فاشيستي يعتمد معك الى المؤامرات الحميدية والدسائس الدامية ولغة المسدسات

إن في هذا التهذيب واختلاف الشكل والاتجاه في تظاهرات العواطف والغرائز سر أفضلية شخص على شخص وتقدم جيل ومدنية على جيل ومدنية. ومن يفتشون عن «الانسان الجديد» ومن يطلبونه فلا يجدونه، ومن ينكرونه ويشتمونه أو يعشقونه خيلاً ويتغزلون به ومن يضربون بقبضتهم على الطاولة بتشاورٍ عنيف وفلسفة عتيقة عن «حقارة الحيلة الانسانية وأبدية الطبيعة الانسانية التي لا تتبدل» (مثل الاديب الفرنسي «آندره روسو» في سلسلة مقالاته التي نشرها في «الفيغارو» سنة ١٩٣٢ — ٣٣) كل هؤلاء لن يجدوا «الانسان

الجديد». ولكنهم يجدون حتماً «الانسان المتجدد» في هذا الارتقاء الهديي والاتجاهي المستمر على سُلَم التكامل

وعلى هذا، فالانسان في كل مكان وزمان واحد، وهو في كل زمان ومكان مع ذلك مختلف. هو أبداً قديم وأبداً جديد. هناك جذور عميقة تجمع كل الناس، وهناك اغصان تختلف عن الجذور، ويختلف بعضها عن بعض أيضاً. وهناك كذلك اشجار تنوع. ولكنها كلها من رتبة واحدة، وكلها في حديقة الانسانية جميلة، او طيبة الثمر، او مفيدة بأي شكل من الاشكال. كلها يستحق أحسن الاعتناء الممكن بها، لتصير أحسن ما يمكن ان تكون! كذلك أمر البشر، حسبما يبدو لي

كل انسان اخو الآخر احب ام كره. أي رجل لو تعرّى عن مكتسباته وبان على اصله او طفولته يختلف كثيراً، بأعضائه وتركيبه وكيانه من هيكلي وعقل ونفس، عن أي آخر. الناس مهما اختلفوا وتلفوا. وربما كان الامبراطور شارل الخامس اكثر رقاعة من درويش افغاني، كما ان قول الشاعر كيلنغ بأن «الشرق شرق والغرب غرب» لا يعدو ان يعني احد أمرين: فإما هو قول مبتذل وسقطة هراء للوك (ويبدو لي ان هذه هي الحقيقة)، وإما هو سكين وهمي يحاول تقطيع العالم وتفريقه الى اجناس وطبقات لا يؤلف بينها شيء إلا القطيعة والشحناء، وهي محاولة (صححت من الشاعر ام لم تصح) لا تنتهي الى شيء، لمناقضتها طبيعة الاتجاه البشري، سوى اللوك المبتذل! هذا، مع عظيم احترامنا لهذا الاديب العبقري، وخصوصاً لقصيدته الشهيرة: «إذا»، التي تلائم كل انسان في أي زمان أو مكان...

يداني، عند ما اقول ان الشرق والغرب واحد، لا اقصد أن الفروق لا توجد بينهما. بل اقصد أنها موجودة. لكنها لا تقوم بينهما كسور الصين، ولا كشيء أصلي، ولا كقانون أزلي منزل لا يتبدل، ولا كطابع تناقض محي في محل اختلاف طبيعي عادي يقبل الانشام والتبادل والتناسق، طابع يحكم على الشرق في انفصاليه وانحطاطه عن الغرب بأن يكون أمة له الغرب والشرق مختلفان لان ظروفهما الفرعية والثانوية (ولا اعني بالثانوية التقليل من شأن هذه الظروف، بل وضعها في مرتبة واقعية وصنف معين فحسب) قد تنوعت. قد كانت ظروف^(١) الشرق في يوم ما مؤاتية له أن يسود الغرب، كما عادت فأت هذا فيما بعد ليسود

(١) لست أعني «بالظروف» هنا حالات مطلقة لاوضاع عمياء فحسب. بل المتصور هو ذلك، ولكن فوق ذلك أيضاً، نتيجة عمل ارادة الانسان فيها، وجهوده وفكره بحيث تتحول من ظروف «خام» معينة الى ظروف أخرى «مشغولة»

الشرق . غير ان هذا التبدل إن هو الاّ تبدل في ظروف وأوضاع اجتماعية وتاريخية يقع في المقدور البشري والممكنات الحادثة تغييرها ايضاً ، بحيث يتحوّل الشرق والغرب (مع وجود وبقاء وتطور نحو الاحسن في الاختلافات الظرفية الفرعية) الى كلّ متآلف ، بمعنى انهما يرتبطان ويتوحدان من حيث يتعاونان على الحياة ويتحدان بعضهما بعضاً ، عوضاً عن أن يقوم بينهما حرب وتفریق عدائي انقطاعي باسم قاعدة مصطنعة الازلية ، قاعدة (أوحثها إلى الشاعر حالات سطحية موقوتة بحقبة تاريخية معينة ، فظنها وضعاً أبدياً الى يوم القيامة) لا تؤدي إلاّ إلى تسويغ ترتيب استعماري ساد عززاً

وهكذا نرمي من القول بأن الغرب والشرق واحد كون الشرقيين والغربيين لا يختلفون اختلافاً أصلياً أساسياً يجعل من المستحيل تألفهم ضد عداوة مشتركة ، عداوة الطبيعة وبذور الشر الاجتماعي ، او يجعل الفوارق بين البشر مختلفة مفقودة النسيب حتى تصبح بين الغربي والشرقي ، مثلاً ، في مرتبة الفارق بين الحيوان والانسان أو بين الحجر والنبات . والحق أننا لو أنعمنا النظر في اختلاف الجزئيات من اقليمية وغير اقليمية لوجدنا أن التباعد بين الجنوب والشمال أظهر منه بين الشرق والغرب . فالصقلي يفرق عن السكندري في نظري أكثر مما يمين المصري عن الألماني . لكن كل هذا في التفريق خلط لا يؤبه له . فهو قد يكون سبياً ، مثلاً ، لأن يتخذ ابن جاري الاسمر الطويل القامة وقصر قامته شقيقه الأشقر ، أخيه من أمه وأبيه ، حجة له على جعله عنده خادماً مرهقاً « يبلش » . وهذه هي النتيجة المنطقية لبعض نواحي « النيتشية » ، ولا راء الكونت « دي جوينو » السلافية ، والسياسة « الجنسية » الرجعية الهدامة التي تستند الى قواعده نظرية لها في تلك النواحي وتلك الآراء

الخلاصة ، الانسانية كلها واحدة متحدة في طلب حياة أرقى وأسعد . وكل فارق في هذه الحالة يصبح : أما ميزة وطنية وشعبية جميلة ، ولما مجرد علامة واسم

هاشية على « الشرق والغرب »

لما رأى ابن الرومي خبازاً « يدحو الرقاقة » ، أخذ يتأمل كشاعر ذكي في كيف يتسع الرغيف من كل أطرافه حلقة بعد حلقة ، وقارن ذلك بحجر يقع في الماء ويرسل الدوائر واحدة تلو الأخرى . وقد يكون من ذكائه ايضاً بأنه فكر وقذاك بأن الحياة ايضاً دوائر تفرج

الواحدة فيها عن الأخرى ، بل كرات مجسمة تبطن بعضها بعضاً حتى اللانهاية من جهتي الداخل والخارج لدائرة كل كرة . قد يكون خطر بباله بعد ذلك ان كل انسان ، بل كل شيء على الاطلاق ، حلقة بذاته ينطوي على حلقات حلقات وتنطوي عليه حلقات حلقات ، وأن كل بضعة أناس ، في عائلة او شركة او جمعية او قرية او غير ذلك ، يؤلفون حلقة تشتمل على الانسان الواحد ، كما ان حول كل وحدة من « بضعة أناس » حلقة أوسع : كالدولة مثلاً حولها العالم ، وحول هذا الكون ، وحول الكون ما لم نكتشفه بعد أو يمكننا الجزم به من دون أن نكون مضحكة العلم !

ثم لعل شاعرنا الفيلسوف الطبع قد عرف ، وهو يجاري هذا التأمل البسيط ، أن كل شيء منفصل ، كل شيء حلقة محدودة بحلقات ، فأدركته بعد ذلك خاطرة عبقرية على سذاجتها ، خاطرة دونها ابن خلدون على ما اذكر في قول معناه : « كل شيء مهمما يختلف مع غيره فهو مؤتلف ومهما اختلف فهو مختلف ! » وأخيراً عساه لو ادرك زماننا وسمع زميلاً له « بربرياً » من اقليم الظلمات الغربية يصيح : « الغرب غرب والشرق شرق . . . لا يجتمعان ! » — عساه كان يقول له : « خسيء شيطانك البليد ! الشرق والغرب في كل نقطة على الارض . وساكنها في كل بقعة انسان يستطيع ان يتحول ويتغير ويتقرب ، وهو بهذه الاستطاعة واحد وتسبب بعضه لبعض ، فكيف بها وبما تتناولها عندكم من هذه السيارات والطائرات والباخرات وجميع جنياكم التي قد دتموها من ميّت الجماد ؟ عجيباً من فكرك القاصر ، أو تجهل الشطرنج ! . . »

ولكان كل الحق مع شاعرنا فيما يقرع به صاحبه . ذلك لانه ، وهو المنشد الملهم ، والغربي الشرقي ، يدرك أن العواطف والغرائز (الممتدة مع الانسان من زمن الكهف والنبوت) وقد اختبرها جيداً ، هي عروة واحدة تجمع بين الشرق والغرب ، وأن المجتمعات والمدنيات المتوزعة بينهما قامت على أساس واحد من نشوء ووظيفة وحكومة وتشكل ، وأن أظهر مظاهرها الجامعة ، وهي أديانها ، كانت دائماً ، ورغم تلوّن صورها وطقوسها ، واحدة في اسباب النشوء ودوافع التعبير وفي الوظيفة . واحدة في ذلك ، فلا تجمع حتى بين ما تم نموه من مدنيات الغرب والشرق فحسب ، بل أيضاً بينها وبين حضارات المجتمعات الابتدائية عند قبائل افريقيا وجزر الباسيفيكي مثلاً

فلسفة المعارضة

في نظام الحكم الديمقراطي

لا تدرك الامم الفائدة من نظام الحكم القائم على المناقشة الا اذا توافرت لها الاساليب التي تمهد الطريق لتطبيق النتائج التي تسفر عنها المناقشة . لذلك كان النظام الحزبي اساس الحكم النيابي . فحيث يكون الخلاف بين الاحزاب صحيحاً يتناول الشؤون الحيوية ، فاصطدام الرأي بالرأي لا بد ان يقدر شرراً يضيء . فالحاجة الى اقناع الغير ، تقتضي نوعاً من الريادة العقلية . والاقطاب الذين يسمعون الى تعزيز آرائهم بالحجة ، يفعلون ذلك لانهم يرغبون اولاً ان يستوضحوا هذا الرأي وثانياً ان يفوزوا بتأييد غيرهم له . فاذا كانت الدولة قائمة على فلسفة سياسية واجتماعية متسقة الجوانب ، فليس ثمة غير التحليل ، سبيلاً الى وزن الآراء والمفاضلة بينها

هذه هي الحجة الاساسية التي يسوغ بها نظام الحكم الديمقراطي . فالحكومات الدكتاتورية لا يسمعها ان تعرض قواعدها الاساسية ، لحك التحليل والنقد ، لان اساسها ان هذه القواعد فوق كل نقاش . فهي مضطرة بالمنطق المستوحى من طبيعة كيانها ان تحسب كل نقد موجه الى اساسها ضرباً من ضروب السعي الى تدميرها . فللروسي ان ينتقد انتاج مصنع من مصانع السيارات الضخمة التي انشئت في روسيا حديثاً ، ولكن ليس له ان يهاجم الاشتراكية الماركسية وهو آمن مطمئن . وللالماني ان يتمسك بأن اوربا لا يسمعها ان تخوض غمار حرب اخرى ، ولكن ليس له ان يحسب اضطهاد اليهود ، عملاً شديداً القسوة ، او النزعة الدولية ميلاً طيباً الى التفاهم . وللإيطالي ان يبدي ما يعن له من الآراء في المكتشفات الاثرية ولكن ليس له ان يؤيد من منبر عام القول بأن الدولة النفاذية ، ستار يخفي وراءه الرأسمالية الفارّة من وجه الديمقراطية الاقتصادية . فالدكتاتورية ، بطبيعتها لا تسمع الا الصوت الذي تحب ، واسلوبها في ذلك سهل كل السهولة ، ذلك انها تخفت كل صوت آخر

الا ان الانسان في جهاده الطويل ، تعلم ان الرأي اذا قعته هنية فلن يدوم القمع . ولولا ذلك لما فازت المسيحية على ما منيت به من الاضطهاد الوتني في عهدها الاول . ولا الافكار الحرة على المسيحية المتزمتة في العصور الوسطى . فكل راي جديد في التاريخ ، يعرب عن حاجة صحيحة بعيدة النور واسعة المدى في الطبيعة البشرية ، لا بد من ان يفوز على كل سعي ، لحصره وقمعه . وليس ثمة ريب في ان ظهور الحق ، عمل بطيء وطريقه طويل وعمر ، ولكن الازدراء به ، والتحامل عليه ، افضيا في ما نعرفه من شؤون التاريخ ، الى انقلاب الذين ابوا ان يروه فلائمة المنظمة تنظيمياً ديمقراطياً صحيحاً تستطيع ان تصون كيانها من مساوىء الحكم

الدكتاتوري، وإنما يجب ان تبيح حرية المناقشة، وان تسهل انتقال اداة الحكم من يد حزب الى يد حزب آخر. فكل دليل تقيمه على وجوب النظام الديمقراطي، هو دليل تقيمه كذلك على وجوب المعارضة

والأساس النفسي لهذا الرأي ليس بعيد التناول. فالناس يختلفون في معيشتهم ونشاطهم ورغباتهم. فإما ان تقدر الحكومة رغبات الناس الخالفة لرغباتها، وإما ان تسلم بها. والنمو الاجتماعي غرضه تنظيم الاجتماع على اساس الرغبات التي تساور الناس. فالرأي يفرض على الجماعة بقدر ما ينطوي عليه من احساس الجماعة بحاجتها اليه. والزعماء الذين يؤمنون بأرائهم لا يسعهم ان يقفوا مكتوفي الايدي دون الدعاية لها والسعي الى فرضها وتحقيقها

فالمناقشة في الحكومة الديمقراطية، هي السبيل الذي يسير عليه الناس الى تحقيق رغباتهم. وليس الحزب السياسي في النظام الاجتماعي الديمقراطي، إلا بمنزلة «سمسار» آراء، تنبثق في اذهان اقطابه ونفوسهم، فيسعى ان «بيعه» للجمهور ايا ان يقنع الجماعة بصحتها وضرورتها. فهو لذلك يختار من الآراء والمذاهب، ما يستميل الجماعة الى تأييده، اذ ما الفائدة من آراء لانحس الجماعة انها لازمة لحياتها كما تريد، وعند ذلك يعمد الحزب الى بسط هذه الآراء في ثوب خلاّب معتمداً في ذلك على فنون الاقناع والاستهواء، وهدفه اقناع الجماعة بأن حق هذا الحزب في تسلم مقاليد الحكم، اكبر من حق الحزب المقابل

هذا الاسلوب ينطوي بطبعه على نقائص. فهو بطيء. ولم يعرف في تاريخ الحكم الثيابي، ان حزبا بسط آراءه مجردة عن الزخرف معتمداً على عقل الجماعة دون شعورها في الموازنة بينها وبين آراء الحزب المقابل والاختيار بين آراء الفريقين. والغالب ان الحزب يبالي في تصوير الفوائد التي تنجم عن تطبيق آرائه، وقلما يتورع عن افراغه في قالب يزعم انه جزء من نظام الكون الذي لا يتبدل. وهذه نقائص حقيقية. ولكن مع ذلك لم يعرف البشر نظاماً آخر خيراً من النظام الحزبي في الحكم الثيابي، لاجراء التحول السلمي في حياة الجماعة

الا ان نجاح هذا النظام يقتضي شيئاً اساسياً وهو ان لا تكون الهوة بين رأيي الحزبين كبيرة، بحيث يمتنع الفهم المشبع بروح التساهل، لانه اذا كان الاختلاف كبيراً بحيث يمتنع الفهم والتساهل كالفرق بين الشيوعيين وخصومهم في روسيا فالنظام الحزبي مستحيل

ثم ان فائدته تقل إلى ادنى حد اذا تعددت الاحزاب، لأن هذا التعدد يحول دون وضوح القصد الذي تنبج إليه الخطط السياسية. فكثرة الاحزاب في فرنسا الآن — وفي المانيا واطاليا قبل قيام النظام الفاشستي فيهما — من شأنها ان تحل السياسة القائمة على المناورة الحزبية، محل السياسة القائمة على نضال الافكار والمذاهب الاساسية. والنتيجة اللازمة لذلك، اجتناب الخوض

في المسائل الاساسية اذ من المتعذر جمع طائفة واحدة من الاحزاب على صعيد واحد منها . وهذا يفضي الى المساومة وقلة الانسجام والضعف . ذلك ان تعدد الاحزاب يقتضي انشاء وزارات مؤتلفة ، والوزارات المؤتلفة ، قلما تعنى بالآراء الاساسية ، التي تبني عليها خطة سياسية منسجمة ، عنايتها باجتناح الاخطار التي قد تفضي الى سقوطها . وكل حزب في كل وزارة مؤتلفة ، يصرف جانباً كبيراً من تفكيره ، الى تأثير مسلكه في جمهرة الناخبين ، وعلى قدر ما يفكر الحزب في مصلحته الانتخابية ، يضعف ولاؤه للوزارة المؤتلفة ، فيضيع دونه الوقت ، وتعوزه الجراءة في معالجة المشكلات الاساسية

فالنظام الديمقراطي يقوم على قواعد واضحة كلّ الوضوح او جلاء . فالامة يجب ان تكون متفقة على الاهداف العليا لحياتها القومية . وليس بين طوائفها من اختلاف في الرأي يبلغ مبلغ الاشياء التي يفضل المرء ان يموت في سبيلها بدلاً من خسرانها . على هذا الاساس يختلف الرأي في سبل التحقيق فقط وما هو من قبيلها . وهنا يجب ان يكون الاختيار واضحاً كلّ الوضوح للجمهور . فيعلم انه اذا اختار هذا الحزب فقد اختار معه طريقة معينة . فالبادئ تقترن باسماء الرجال وتبدل الرجال الذين في مناصب الحكم يعني تبديلاً في المبادئ . فاذا توافرت هذه القواعد ، استطاع النظام الديمقراطي ان يسدي للجماعة خدمة كبيرة الشأن . فاذا كانت الفروق بين ابناء الامة في ما يخص التنظيم الاجتماعي ، فروق كم لا نوع ، فهذه الفروق يمكن حلها حلاً سليماً بالاتفاق بعد البحث والنقاش

في هذه الحالة تكون الديمقراطية النيابية خير نظم الحكم التي تتطوي على امل الاستقرار . ولكن مجاحها مرهون بقيام حزبين متكافئين ، بينهما فرق كافٍ يجعل الاختيار المطروح على الجمهور واضحاً ، على ان لا يكون الفرق بعيد الهوة ، بحيث يتنكر كل حزب للآخر تنكراً الغريم للغريم ، فيراه غير أهل لتقليد الحكم ويسعى الى منعه بالقوة . اذا صحّ ذلك فالحكومة والمعارضة ، سدى النظام الديمقراطي ولحمته . كلٌّ منها لازم للآخر . فقيام المعارضة على اساس انها جديرة بالاحترام جدارة الحكومة به ، لانها قد تصح هي الحكومة بين آن وآخر ، هي الصفة الاساسية التي تميز الديمقراطيات من الدكتاتوريات فما وظيفة المعارضة ؟

قيل ان دزرائيلي وصفها بقوله المشهور : « وظيفة المعارضة ان تعارض » . وهو قول يكاد يكون جامعاً مانعاً ولكن في حدود فهم كلمتي « ان تعارض » على وجههما الصحيح فمن الثابت في تاريخ الامم واخلاق الشعوب ، ان هيئة منظمة من الناس ، لا تستكين الى اقصائها عن مقعد الحكم ، وانها تندفع بطبيعة الحال الى احصاء الاخطاء والهفوات على الهيئة

المنافسة لها المترتبة فيه . ولكن من الثابت ايضاً في تاريخ نظم الحكم ، ان النقد السليم لا يستميل الناضحين والحزب الناقدا لا يفوز بمقاعد الحكم لمجرد انه هاجم الحكومة القائمة

فوظيفة المعارضة الصحيحة في الحكم النيابي ، نقد اعمال الحكومة القائمة ، على اساس برنامج سياسي اجتماعي تقوم المعارضة بتطبيقه اذا وليت الحكم ، ويستطيع اقطابها اقناع الشعب بانه خير من برنامج الهيئة المترتبة في دسته . فعلى المعارضة ان تقنع الناضحين من خلال نقدها ان تقلدها الحكم ، يقضي الى نتائج متعذرة على الهيئة المنافسة لها ، لان الفلسفة السياسية والاجتماعية التي تستند اليها الحكومة مقصرة عن فلسفة المعارضة ، ولان الحكومة ارتكبت اخطاء في تطبيقها

فحزب العمال فاز في انتخابات سنة ١٩٢٩ في انكلترا لان الناضحين كانوا مقتنعين ، ان حكومة المحافظين ، كانت عاجزة عن فهم مشكلات السلام الدولي والمشكلات الاجتماعية الناشئة عن الحضارة الصناعية ، وان حزباً يستند الى نقابات العمال ويستمد أقطابه من رجالها اقدر على فهم هذه المشكلات من حزب الاسياد . والفوز العظيم الذي أحرزته المحافظون سنة ١٩٣١ نشأ عن خيبة امل الناضحين في مارجوه من حكومة العمال من ناحية وعن اقتناعهم بأن حكومة فهم الرأسمالية تستطيع ان تقذ البلاد من الازمة التي اخذت البلاد الانكليزية بخناقها حينئذ من ناحية اخرى

ولعلّ ابلغ مثل على المبادئ التي اوجزناها في ما تقدم تاريخ انكلترا السياسي منذ سنة ١٩٣١ الى الآن . ان المعارضة الرسمية ، عارضت ما وجدت الى ذلك سبيلاً ، ولكن معارضتها لم تكن انشائية ، اي لم تكن مستندة الى مبادئ تنبع من فلسفة سياسية اجتماعية متسقة الجواب يمكن ان تشعر الناضحين بأن تطبيقها يقضي الى حالة خير من الحالة القائمة . وذلك لتضع أحزاب اليسار في انكلترا في السنوات الاخيرة وتفرق كلمتها واضطراب مبادئها . والانتخابات الفرعية تؤيد ذلك . فان المؤيدين لممثلي الحكومة القومية قلوا قلة تذكر الا ان الناضحين مع تبرهم بالحكومة القائمة لم يبلغوا بعد درجة من الاقتناع بأن المعارضة تستطيع ان تنهض بأعباء حكم قائم على مبادئ وقواعد خير من مبادئ الحكومة القائمة وقواعدها

فالمعارضة الانكليزية في الست السنوات الاخيرة قد « عارضت » ولكن معارضتها لم تكن دليلاً على انها تملك فلسفة سياسية اجتماعية ، تجعل ولايتها للحكم خيراً يتطلع اليه في بضع السنوات القادمة . والمعارضة للرئيس روزفلت ، من اليمين ومن اليسار تجري هذا الجرى عند تشريحها ولا يمكن ان يكون اي نقد لاية حكومة نقداً فعالاً الا اذا اتصف بصفتين . اولاهما : ان يكون نقداً للخطط العامة ، نابعاً من شعور عام سائد في جمهور الناضحين . وثانيهما : ان يكون ممثلاً في المجلس النيابي بقوة تقهر الحكومة القائمة على أخذ ما تقوله المعارضة بعين الاعتبار

اما في ما يتعلق بالصفة الاولى ، فمن الواضح ان حكومة من الحكومات لن تبلغ مبلغاً من الاجادة

يعصمها عن النقد . بل ان الشعور بان الحكومة ادركت هذه المرتبة ، يفضي الى التراخي وعدم الاهتمام بشؤون الجماعة المحكومة . ولكن يقابل هذا ان الحكومة تستطيع ان تتجاهل نقد ناقدتها اذا كان ذلك النقد اعراباً عن رأي او خطة لا يدركها الجمهور ولا يعطف عليها . فمن العبث ان يهاجم الاشتراكيون الاميركيون الرئيس روزفلت لان مشروعاته لم تبلغ الدرجة التي يبغيونها هم من التطرف . لان هذا الرأي لا يعطف عليه جمهور الناحيين الاميركيين . ومن العبث كذلك ان يزعم المحافظون الاميركيون ان مشروعات الرئيس روزفلت بلغت مبلغاً خطراً من التطرف ، لان الشعب الاميركي في الغالب ، مقتنع بوجوب تعديل موسوم بسمة العدل الاجتماعي . فهجوم ارباب المال والصناعة على الرئيس ، من دون ان يصحب هذا الهجوم برنامج انشائي لاصلاح بعض ادواء الاجتماع الاميركي ، عبث في عبث الآن ، ولا سيما لان الحوادث الاخيرة في اميركا اثبتت إفلاس مهاجمي روزفلت هؤلاء في معالجة هذه الادواء .

اما في ما يتعلق بالصفة الثانية ، فمن الواضح ايضاً ان النقد لا يؤدي الغرض المقصود منه ، الا اذا كان وراءه في المجلس النيابي قوة يعتد بها . فبكل مناقشة تعقبها اكثرية حاسمة للحكومة القائمة تضعف من عناية الجمهور بالشؤون المطروحة على بساط البحث . وتصبح الحكومة ترى المعارضة ، مرتبة لا بد من اجتيازها بدلاً من ان تحسبها تشريعاً لخطتها لا بد لها من اقامة وزن له . فالجمهور قلما يعني بحفلة ملاكمة ، اذا ادرك ان احد المتلاكمين لا بد متفوق على خصمه .

ثم ان الجمهور يود غير واع ، ان يدرك ان هذه الانتقادات التي توجهها المعارضة الى الحكومة ، هي خطوة تخطوها المعارضة نحو مقاعد الحكم . وليس ثمة معارضة تستطيع ان تنشئ جواً من الاحترام لاقوالها الا اذا ثبت انها تكسب رويداً رويداً تأييد الرأي لها . فاذا كانت قوتها ضئيلة بحيث لا يعتد بها تعذر عليها ذلك ، واكبر ما تصاب به معارضة ان لا يعتد بها . لانه اذا فقد حزب قدرته على الهجوم هجوماً فعالاً ضئع سر وجوده في اذهان الناحيين ، على نحو ما وقع لحزب الاحرار الانكليزي .

وهذا لا يعني ان الحكومة التي لا تجد امامها معارضة ممثلة في قوة فعالة في المجلس ، يحق لها ان تدبر الاذن الصماء الى اقوال المعارضين . لان هذه الحالة قد تفضي ، وهي لا تدري ، الى اتساع الهوة بينها وبين الشعب . فوزارة لويد جورج سنة ١٩١٨ ووزارة مكدونالد القومية سنة ١٩٣١ ، من احدث الامثلة على ذلك . فكلتا الوزارتين انقضت انكساراً من ازمة عصبية ، فحسبنا ان تفوقهما الانتخابي سيدوم لان الامة ولا ريب ستؤيد مرشحها ، اعترافاً بما كان للوزارة من فضل في اجتياز الازمة . وهذا فيه خطأ في فهم الجماعات ، لان احكام الجماعات تستند على الاكثر الى ما يحركها الآن دون ما حركها في الماضي البعيد او القريب .

جَدِّيَّةُ الْمُقْتَطِفِ

الشاعر واللام

للساعر الفرنسي الفريد دو موسيه

نقلها احمد ابو الحضر منسي

أَمِينُ تَقَى الْمَرْيَمِ

بقلم الباسي ابو سُبُك

نقلا عن مجلة «الجمهور» البيروتية

أُغْنِيَةُ اللَّيْلِ

مترجمة عن كتاب نينته

نقلها محمد فهمي



الشاعر والاعلم

للساعر الفرنسى الفحل الفريير دو موسيه

[نقلها : احمد أبو الحضر مدي]

- ١ — هما يكن أساك الذي في صباك تكابده
فذر تلك الجروح الكريمة تتسع
تلك الجروح التي ملائكة الشر أدمت بها فؤادك :
فلا شيء يسمو بنا مثل الآلام الفادحة .
ولكن لا تظنن أيهذا الشاعر إن مسك الألم
ان صوتك في الناس يبقى كظيماً ويكتم ،
أما احلى الاناشيد ادناها الى القنوط ،
وان منها الخالدة ، وهي زفرات حارة صادقة
- ٢ — اذا البجع^(١) وقد أضناه السير الطويل
انقلب في غبش الاصيل الى قصبه ،
تسارعت اطفاله الجائعة على الشاطئ ،
تظن اذ تراه على بعد يهبط الماء ،
أها قد ظفرت بالفريسة وتناهشتها ،
فعدت الى ايها تصايح من طرب ،
تهز مناقيرها فوق حواصلها المستبشعة .
أما هو فقد أم في خطو وثيد صخرة عالية ،
فوارى تحت جناحه المسندل صفاره ،
ذو صيد عبوس يحيل في السماء انظاره .
ودماؤه تسيل من صدع صدره متدفقة ،
فقد فتن اعماق البحار بلا طائل :
ان المحيط كان خالياً والساحل اجرداً ،

(١) طائر مائي كبير له حوصلة كبيرة ومنقار طويل منتصب عريض ويقال انه يخرج طعامه الذي اكله من جوفه ليطلع به صفاره ، بل يزعمون انه يمزق جنبه ليسقي اولاده دمه . لهذا كان البجع رمزاً لحب الامهات والتضحية والبنل

فلم يحضر لهم من القوت سوى مهجته ،
 كثيباً صموتاً على الصخرة مستلقياً ،
 مقسماً بين صفاره احشاء أب ،
 يتشاغل بحبه الاسمى عن اوجاعه
 وينظر الى دمه من صدره الدامي يتدفق ،
 فيتخاذل ويصرع فوق سباط^(١) احتضاره^(٢)
 ثملاً من سكرات اللذة والحنان والفزع .
 ولكنه أحياناً وسط التضحية السامية ،
 وقد سم أن يموت في عذاب لا آخر له ،
 قد هاله أن يتركه اولاده بالحياة عالقاً ،
 فينهض ويبسط في الهواء جناحه ،
 ويضرب قلبه في صرخة وحشية ،
 فيشوق بالليل شهقة الوداع المحزن حتى ان
 طيور الماء تجلي عن الشاطئ ،
 وابن السبيل على الساحل المتسكع ،
 اذ يشعر بالموت مجتازاً يسلم الى الله^(٣) ويسترجع^(٤)
 — ٣ — ايها الشاعر كذلك يفعل فحول الشعراء
 فانهم يهيجون أهل الارض حيناً ،
 ولكن المآدب التي يعدونها في افراحهم للناس
 تشبه معظمها مآدب البسج .
 فهم اذ يتحدثون عن الآمال الخائبة ،
 وعن الاحزان ، والنسيان ، والحب ، والشقاء ،
 فما تلك باغانٍ تطرب قلوب الناس .
 انما انشادهم شبيه بسيوف ،
 ترسم في الهواء دوائر تبهر العيون :
 ولكنها لا تنفك عن قطرة دم بها ناشبة .

(١) السباط مامد من الطعام او المائدة (٢) الاحتضار نزع الموت (٣) اي يسلم الى الله
 امره او يفوض امره الى الله (٤) اي يقول انا لله وانا اليه راجعون

امين تقي الدين

بقلم الياس ابو سبيكة

[نقلا عن مجلة « الجمهور » البيروتية]

ما أشبه امين تقي الدين بولي الدين يكن ، ما أشبه حياة هذا بحياة ذاك ، وما أشبه شعر الاول بشعر الاخير . درج ولي الدين مع الرفاهية والترف ، ومات في خصاصة وشرف ، ودرج امين في بسطة من العيش ، على حرير الحياة ومات على حسكها كالوردة تسو في بيتها الاخضر وتتناثر على اشواكها ، ولكنه مات عزيز النفس عالي الجبين كما عاش

كان امين تقي الدين يحب لبنان كما كان ولي الدين يحب مصر ، ولكم تغنى بهذه البقعة من الارض ، فأول شعره كان اغنية بلبنان وآخر شعره اغنية به

واديق والسهل كسر المنى يدرك بالروح ولا يمتلك
سبحان من خبأ فيك الصفا وسل من قلب الصفا جدولك

وكان امين تقي الدين اشد اللبنانيين تفاخراً بهذا الجيل وبنيه !

اذا وطنية باهت بقوم ارى لبنان ارفعهم جبيننا
اشد الحب ما يدعى هياماً فما يدعى اذا بلغ الجنونا
سلي ام اللغات فكل قطر فتحنه لها الفتح الميئنا
اقنا مجدها أنى اقنا وكنا دونة الحصن الحصينا

ولقد امتزج حبه بسما هذا البلد ومائه فجاء شعره صافياً كهذه السماء عذباً
كهذا الماء ، فشعر امين شعر النفس المرسلة على سجيئها . لا تغنت ولا أعمال ولا كافة

دعوتهم فليتنا كأننا رجعنا للصبا لما دعينا
احب من الكهولة وهي حق خيال للطفولة زار حيننا
وأشهى من ليالي الحب عيد نظمت به بنيك المخلصينا

صباك ، وانت في الحسين ، غض وشاب بنوك دون الاربعينا
اذا اعددت نفسك للمعالي فأعدد في الصبا الخلق المتينا
اجل العلم تربية المبادي كذا علمتنا وكذا رينا

فهذا الشعر الصافي لا يصدر الا عن نفس صافية ، وايمان حي ووجدان امين
وهذه الديباجة النقية كهذا المرج الصريح ، لا تشقى العين في بسيطه الممتد ولا
الاذن في سكونه الجميل

ولكانت صروف الدهر جهمت يانه كما جهمت حياته ، لو لم يكن جباراً
في روحه ، وهو القائل :

ليس من عدة الفتى للمعالي خلق في الخطوب غير جليل

كان ذلك اذ الامين على قمة الشباب يغالب الخطوب بصبر الرجل وجلد الطموح
فاذا رافقه الهم ركن اليه ثابته العزم قوي اليقين بنفسه :

ويك يا هم قد ابحتك نفسي فاثو منها الى مراس شديد

على ان هذا الهم بقي يحز في نفسه عشر سنوات ولم يطلّق هذه النفس التي استباحها
كما استباح الشيطان خيرات ايوب حتى لين مراسها الشديد وسلخ منها صرخة المغلوب :

لهفي على العمر والاماني ولت كما اقبلت ملاحا
خبأت ياليل فيك همي ياليل من خبر الصباحا

فبين هذه الصرخة المغلوبة وتلك الصرخة الغالبة عشر سنوات ، ومن عشر
سنوات الى اليوم بقي امين تقي الدين يخبيء «همه» عن الاعين شمماً واباء. قال بالامس :

انا والهم صاحبان كلانا صادق الود حافظ للعهود

ما افترقنا حيناً من الدهر حتى جمع الدهر بيننا من جديد

نسهر الدهر صامتين لثلاث يكشف الليل سرنا لحسود

قال لي صاحبي ، وقد لمح الفجر مطالاً يرنو لنا من بعيد

وارني في النهار عن اعين الناس فاني خدن الليالي السود

وقال اليوم :

خبات يا ليل فيك همي يا ليل من خبر الصبا
قف قليلاً تأمل هذا البيت . فنذعهد طويل وهذا الشاعر يحجب همه عن الناس
لانه قوي جبار يربأ بنفسه ان تكشف ضعفها لآعين الشامتين فن خبر الناس ، من
خبر هؤلاء الشامتين عن هذا الضعف ؟ ان نفساً آية وخلقاً أنوفاً لا يبذلان كما تبذل
النفس المتسكة والخلق الديء وان يكن الصبح للناس فالليل للشاعر ، فن سير هذا
الاخير في طرق هؤلاء ؟ ومن وضع سؤدد الشاعر موضع الرق من الدهاء ؟ أحطمة
من حطم الحياة البائسة تحدر الكرامة الى موطنى الاذلاء فتكشف عن عناصر
ليست منها لتمشي في مساخر الناس مطعونة دامية ؟ أكون هذه الكرامة رهناً لهذه
الحطمة وهي في صناديق الارقاء وخزائن المتسولين ؟

قال ولي الدين يكن :

مكانك الافق ، فما انزلك بدلت عنه الارض ام بدلك
يا ملك الله ، ارضى الملك ملك الثرى من بعد ملك الفلك
ان تؤت خيراً بينهم يحسدوك وان تجد بالفضل لا يحمدوك
دانيتهم لكنهم ابعدوك

وشعر امين كشعر ولي الدين فيه جرسه وانسجامه وطبعه وتلك الكآبة
الطافية عليه ، كآبة الحنين الى الماضي والالم من الحاضر . فيه شجوة البيان المرسل
وترف اللغة في ايقاع عذب شجي كهذا الذي يصدر عن غور النفس الشاعرة إبان
انسلاخها عن قيود المادة الثقيلة الى اجواء الحلم الجميل
وقد يتعبك شعر ولي الدين بمسحة بدعية تشيع في معظمه ، اما شعر امين فقد
يطربك حيث يتعبك غيره ، فالقافية ليس مؤطاً لها بكلام من جنسها كما في شعر ولي
الدين ، على انها في مكانها ، دائماً في مكانها ، فلا هي دخيلة ولا مزهوة تبشر بقدمها
وترهى بنسبها ولا تنجيء الا في زفة

ليس في شعر امين بقي الدين فكرة غريبة او صورة لم تألفها عينك ، ولكن
فيه احسن من ذلك ، فيه عاطفة صادقة مسكوبة في بيان سائغ مصقول كغدير صاف
لا تتعب العين في رؤية الحصيات الآمنة في قعره . والصدق اجمل مزايا الشاعر

أغنية الليل

مترجمة عن كتاب نيتشه : هكذا قال زرادشت

[نقلها محمد نهمي]

ها هو الليل مرخ سدوله . وها هي الينابيع الفوّارة قد علت أصواتها وما
روحي غير ينبوع فوّار !!

ها هو الليل مرخ سدوله . وفي هذا السكون تستيقظ أناشيد الحب وما
روحي غير أنشودة محب !!

شيء لا يستقر . بل شيء غير قابل للاستقرار . هو كامنٌ في نفسي يبحث
عن مُتَنَفِّسٍ له في القول . إنه شوق الحب المستعر في جوانحي وهو الذي
يتكلم بلغة الحب !!

أنا النور : آه . ليتني كنت الليل . لكن هذه هي وحدتي يحيط بها النور !
آه ليتني كنت حالكاً كالليل . اذن كنت أرتشف النور بنهم من منابعه !
وكنت أباركك ، حتى أنت أيتها الأنجم المتلاثلة . أيتها الجبابب المشعة في
الذرى فالهم بلهجاتٍ من ضيائك .

ولكنني أعيش في النور المنبعث من حناياي وأرتشف ثمانية اللهب المنذلع من كياني
أنا لا أذوق سعادة إلا أخذ قط . ما أكثر ما أوحى اليّ أحلامي أنه
خيرٌ وأحلى أن أكون سارقاً من أن أكون آخذاً !

ان فقري لأن يدي لا تستريح أبداً من الإيعطاء وان عيبي أنني أعرف
السؤال في العيون وأتبين ليالي الرغبة بنجومها .

آه . ما أشقى هؤلاء الذين يمنحون ! أوه . يا لكسوف شمسي ! آه .

أيها الرغبة من أجل الرغبة ! أوه . أيها الجوع المزجر وسط فيضٍ من الشبع !
انهم يأخذون مني ولكن هل أنا أس صميم نفوسهم ؟ ! ان بين الأخذ
والعطاء هوةٌ سحيقة وأضيق مكان فيها هو آخر ما يمكن عبوره ! !

لقد نبت الجوع من بهاء جمالي . حتى ليسرني الآن ان أوقع بمن أنيرهم
بل يسرني أن أسرق من أمتهم عطايي . وهكذا صرت جوعاناً الى الشر !

ها أنا أقبض يدي في الوقت الذي تمتد فيه يدٌ تلمس العطاء !

متريئاً كما يفعل ماء الشلال هنيهة قبل ان ينحدر

هكذا أشعر بالجوع الى الشر ! !

ان ثرائي ليفكر في هذا النوع من الانتقام . وهذا البغض

قد نبع من حالك وحدتي

لقد أمت المنح نشوة المنح في نفسي وأصبحت فضيلتي وقد أنكها فرط السخاء !

ان من يعطي لهُو في خطر يهددهُ بفقدان مياه حياته !

ومن يجعل دأبه توزيع الاحسان لا بد ان يصاب قلبه بالقسوة ويدهُ بالغلظ

ليس من شيء الا من دوام توزيع الاحسان .

ان عيني لم تعد تفيض بالعطف على السائلين . ويدي أصبحت جامدة

لا تحسّ ارتعاش الايدي المفعمة بالعطايا .

أين ذهبت دموع عيني ؟ ! بل أين رقة قلبي ؟ ! آه

ما أشد وحشة من يمنحون . وما أفسى صمت من يثرون !

ان كثيراً من الشمس تدور في الفلك

وانها لتخاطب كل صقعٍ مظلم بلغته من النور

ولكنها عندي ليست الا صامتة ! !

آه ان هذه عداوة النور لكل شيء ينير
 يسير في طريقه مجرداً من كل شفقة
 جأراً على كل شيء يضيء ! غير مكترث للشموس .
 وكذلك تسير كل شمس !
 الشمس تسير في أفلاكها كالعاصفة — تلك مساراتها
 انها تتبع مشيتها الجائحة — لا ينبض فيها شعور !
 آه . أنت أيتها الكائنات المظلمة ! أنت وحدك ياكائنات الليل
 تمصين الحرارة من الكائنات المضيئة
 وانك وحدك التي تشربين اللبن فتعشين نفسك من ضرع الضياء !!
 كفى ! ها هو الجليد قد أحاطني . وان يدي لتحترق وهي تلمسه .
 كفى ! ان ظمأ أحسسه في صميمي وما هو الا تشوق الى ظمأك
 انه الليل . كفى . فوجب ان أكون النور والظلمة لكل ما في الظلام .
 وان أكون الوحدة !
 انه الليل . والآن قد انبثقت رغبتى كينبوع متدفق . اني أرغب في الكلام !
 انه الليل وها هي الينابيع الفوارة قد علت أصواتها
 وما روحي غير ينبوع فوار !
 انه الليل وفي هذا السكون تستيقظ أناشيد المحبين
 وما روحي غير أنشودة محب !!
 هكذا قال زرادشت



بَابُ الْإِسْخَارِ الْعَلِيَّةِ

« صدمة الانسولين » فر تسمى من الجنون

فلما عولج المصاب باضافة السكر الى دمه من « صدمة الانسولين » ظهرت عليه دلائل التحسن في حالته العقلية

وهذا طبعاً يذكرنا بما تم لفاجز يورج في فينا ايضاً عندما اكتشف فعل الملاريا في شفاء الشلل العام أو الشلل الجنوني الناشئ عن الاصابة بالحلقي (السفليس)

فلما تبين الدكتور ساكل ذلك في هذا المريض عالج المصابين بالاضطراب العقلي من جراء ادمانهم المخدرات بالانسولين مع اهم لم يكونوا مصابين بالبول السكري فأعطاهم جرعات كبيرة منه ليصابوا بحالة « الصدمة » فتحسنت حالتهم العقلية تحسناً يظهر الآن انه ليس بالوقتي

وقد أيد فريق من اطباء اميركا رواية الدكتور ساكل . فقد تحسنت احوال ٣٠ في المائة الى ٥٠ في المائة من المصابين الذين عالجهم الاطباء الاميريكيون تحسناً يظن انه دائم وانما لا يمكن القطع الآن في هذه الناحية لان حداثة العهد بهذا العلاج لم تتح للأطباء مدة كافية لتتبع احوال الذين ظهرت عليهم اعراض التحسن وانما يعرف ان هذا التحسن دام في بعض الذين عولجوا ثلاث سنوات حتى الآن

ووجه الخطر في هذا العلاج ان استعمال جرع كبيرة من الانسولين لاحداث « الصدمة »

اصبح اسم « الانسولين » اشهر من ان يعرف . فهو خلاصة الغدة الحلوة (البنكرياس) التي تخفف اعراض البول السكري وتطيل حياة المصابين به . وقد أحرز بانتفع مكتشفه جائزة نوبل الطبية جزاء له على اكتشافه ومنحه ملك الانكليز رتبة فارس ولقب « سر »

وقد اثبتت المباحث الطبية الحديثة ان « الانسولين » قد يكون سبيلاً الى انقاذ المصابين بضرب من الجنون أو الحبل (شيروفرينا) من خبلهم وجنونهم علاوة على فائدته العظيمة في حالات البول السكري

وفق الدكتور مانفرد ساكل احداطباء فينا الى هذا الاكتشاف اتفاقاً على ما روى لجمعية الطب النفسي الاميركية . ذلك ان احد مدمني المورفين كان يعالج في احد مستشفيات فينا وكان مصاباً بالبول السكري فأعطي الانسولين لتحفيف اعراض هذه الاصابة فأصيب بما يعرف عند الاطباء بصدمة الانسولين وهي حالة مناقضة لحالة الديابيطس (البول السكري) . ففي حالة الديابيطس يتجمع السكر في الدم والجسم عاجز عن استهلاك ما يحتاج اليه منه . أما في حالة « صدمة الانسولين » فيكثر ما يستهلكه الجسم من السكر الذي في الدم حتى يقل مقداره عن المقدار السوي اللازم

قد يفضي الى اصابة الذي يتجرعها بحالة خطيرة
 تعرف باسم « هيو جليسيما » أي هبوط مستوى
 السكر في الدم وقد تقضي هذه الحالة بسرعة الى
 الوفاة الا اذا عولجت حالاً بحقن محلول سكري
 مناسب في العروق على الغالب او باعطاء محلول
 السكر شرباً والاوّل اسرع فعلاً بحكم الطبع

غاز الهليوم لا يلتهب

كشفت أولاً في الشمس وتكاد أميركا الشمالية تحتكره

بعض المعادن المشعة باحتمالاً. ثم ظهر ان هناك
 مقادير غير يسيرة منه في الغازات المنطلقة من
 ينابيع المياه الحارة وفي الغاز الخلفي أو الطبيعي
 الخارج من بعض الاماكن في قشرة الارض
 ولم يجز ذكر استعماله للبلونات الا سنة
 ١٩١٤ عند ما اقترح السررتشرّد ترلفول
 ذلك على مجلس المخترعات في وزارة البحرية
 البريطانية بانياً اقتراحه على ما هو معروف عن
 الهليوم من خفة الوزن وعدم القابلية للالتهاب
 وعهد حينئذٍ للاستاذ مكائن الكندي على ما
 نذكر في البحث في وضع طريقة لاستخراجه
 من الغازات الطبيعية

ومعظم ما يعرف عن مصادر هذا الغاز
 الغني بالهليوم موجود في الولايات المتحدة
 الاميركية وكندا وكانت طريقة استخراجه
 عسيرة كبيرة النفقة فكان ثمنه غالياً ولما كان ذا
 قيمة كبيرة في المواصلات الجوية وفي الشؤون
 الحربية التي تستعمل لها البلونات حضرت اميركا
 اولاً تصدير الهليوم من بلادها حتى للاجتماعات
 اولاً ثم لما اتقنت وسائل استخراجه واكتشف
 مصادر كثيرة للغاز الذي يحتويه رخص ثمنه
 وقيل حديثاً انها قد تباع منه لالمانيا ما تحتاج اليه
 ملء البالون الجديد الذي يحل محل الهندنرج

ذكرت فاجعة المنطاد هندنرج ان غاز الهليوم
 الذي يقول الدكتور اكثر انه لا يستغنى عنه في
 المواصلات الجوية بالبلونات لم يكشف اولاً على
 الارض بل كشف اولاً في جو الشمس. والشمس
 كما لا يخفى تبعد عنه ٩٣ مليوناً من الاميال ونبوها
 في سنة ١٨٦٨ لاحظ باحثان انكليزيان كان
 احدهما لو كير محرر مجلة نايتشر المشهور وهو
 من اشتهر بعد ذلك باسم السر نورمن لو كير
 ان طيف الضوء الواصل الى الارض من اكليل
 الشمس يبدو فيه خط لامع لا نظير له في خطوط
 الطيف المعروفة على الارض ثم ثبت ان هذا
 الخط يظهر في طيوف الاضواء الواصلة اليها من
 نجوم كثيرة فقال لو كير حينئذٍ - وكان علم الحل
 الطيفي لا يزال في مهده - ان منشأ هذه الخطوط
 الطيفية عنصر لم يكشف على الارض بعد واقترح
 اطلاق اسم هليوم عليه واصل هليوم هليوس أي
 الشمس وظل هذا العنصر غير معروف على الارض
 حتى اواخر القرن التاسع عشر وكشفه السر
 وليم رمزي الكيمياء البريطاني في غازات الهواء
 النادرة اذ كان يبحث عن غاز يدعى كربتون
 ومقدار الهليوم في الهواء قليل جداً
 فهو لا يزيد على جزء من ١٨٥ الف جزء وكان
 معظم المستعمل منه للبحث العلمي يستخرج من

البروتيلين يسقى مرضاً اجتماعياً

من بضعة أشهر سمع الدكتور برن لونج أحد علماء جامعة جوز هيكنز بتجاربه تجرب في لندن بهذه المادة فذهب إليها ليطلع بنفسه عليها وعند عودته شرع في تجربتها في المصابين بتسمم الدم. وكان يساعده في تجاربه هذه الدكتورة اليانور بلس. ثم اتجها الى تجربة تأثير البروتيلين في « المنيجو كوكوس » وهو الميكروب الذي يسبب التهاب الدماغ السحائي. ولما كان « الجونوكوكس » مسبب السيلان قريباً من « المنيجو كوكس » سبب التهاب الدماغ السحائي ولما كان الدكتور لونج مشغولاً بتجربة تأثير « البروتيلين » في هذا الميكروب الاخير اقترح على الدكتور كولستون تجربة « البروتيلين » في المصابين بالسيلان فاشترك كولستون مع طبيين آخرين في هذه التجارب فتوصلوا الى النتيجة المتقدمة. انما يخشى الدكتور كولستون ومساعداه ان تباع حبوب البروتيلين من دون ضابط لانها قد تغري المصاب بأخذ جرعة منها اكبر مما يجب مدفوعاً الى ذلك برغبته في الشفاء ورخص ثمنها. فاذا كانت الجرعة اكبر مما يجب أفضى تجمع البنزين والكبريت — وهما قوامها — في الدم الى فقر الدم (الانيميا) فالوفاة ولا يعلم حتى الآن ما تأثير هذه المادة في منع السيلان. وهذا الكلام ملخص عن مجلة « نيم » ولم نر حتى كتابة هذه السطور بسطاً للاكتشاف في مجلة علمية او طبية

من أعجب المكتشفات الطبية الحديثة ان ست عشرة حبة من دواء جديد يعرف باسم بروتيلين تشفي المرض الزهري الذي سببه ميكروب « الجونوكوك » وهو مرض كثير الانتشار في معظم البلدان ويصاب به في الولايات المتحدة الاميركية نحو مليوني مصاب بين رجل وسيدة كل سنة ويفضي الى اضطرابات واصابات أخرى متنوعة في النساء والرجال والاطفال

فقد عرف قراء المقتطف ان « البروتوزيل » و « البروتيلين » مادتان متقاربتان جداً في التركيب الكيميائي اولاهما صنع أحمر والثاني مسحوق أبيض. والاول يمكن الجسم من التغلب على ميكروبات « الستربتوكوكس » التي تسبب تسمم الدم وحصى النفاس وغيرها. ولكن الدكتور جون كولستون المتوفر على دراسة أمراض المسالك البولية في جامعة جوز هيكنز الاميركية المشهورة في العالم أجمع بكليتها الطبية جرب الثاني بالاشتراك مع فريق من علماء تلك الكلية في معالجة « السيلان » باعطاء المصابين أربع حبات كل يوم مدى أربعة أيام فشفي ٨٥ في المائة من الذين عولجوا كذلك

وتمن هذه الحبات يبلغ ثمانية قروش صاغ والبروتيلين هذا اسم تجاري لصنع يعرف عند الاطباء باسم « سلفاناميد » واسمها الكيميائي (بارا — أمينو — بنزين — سلفوناميد)

معالجة النزلة الرئوية (النومونيا)

بأحد مركبات الكينا

يعود البحث عن مركب من مركبات الكينا لمعالجة النزلة الرئوية الى مشاهدات احد العلماء الالمان سنة ١٩١١ ذلك انه لاحظ أن احد مركبات الكينا المعروف باسم (ايل هيدروكوبرين) او (أوتوكين) فعال في قتل مكروب النزلة فلما جرب في بعض المصابين بها اصيب بعض الذين عولجوا بعنى وقتي فشرع الباحثون في المانيا واليابان واميركا ولاسيما في معهد ملون الاميركي في البحث عن مركب من مركبات الكينا يكون له هذا الفعل ولكنه لايسبب حالة العنى الوقتي وقد جربت المركبات التي استتبعت في معهد ملون الاميركي وعددها ستة وسبعون مركباً في ٢٠ الف فارة خلال اربع سنوات قبل الفوز بهذا المركب وقد ثبت من تجربته في البشر انه لا يحدث اي اضطراب بصري

ولم يظهر حتى الآن اي دليل على ان هذا الدواء يتنافر مع المصول المستعملة في بعض حالات النزلة الرئوية وسهولة تناوله تمكن الطبيب الممارس من استعماله في المراتب الاولى من اصابة الرئتين بالميكروب (النوموكوكس) ومن الملاحظات الجديرة بالذكر ان فائدة هذا المركب تكون على أتمها اذا شرع في استعماله في اليوم الثالث من الاصابة لا في اليوم الاول ولا في اليوم الثاني ولم يعرف سبب ذلك بعد

صرح الدكتور ما كلاكلن ساعور اطباء مستشفى الرحمة بمدينة بتسبرج الاميركية بان مركباً جديداً من المركبات المستخرجة من الكينا صنع بالتركيب الكيميائي في معهد ملون وجرب في معالجة حالات النزلة الرئوية الحادة فظهرت فائدته

هذا المركب يدعى « هيدروكسي ائلايوكوبرين » وقد جرب اولاً في الفيران والارانب والكلاب قبل تجربته في البشر وقد انقضت سنتان والدكتور ما كلاكلن يجرب هذا المركب الكيميائي الجديد في حالات النزلة الرئوية الحادة فكان معدل الوفيات في مائة حالة عالجها في الشتاء الماضي ٢٧ في المائة مع ان المعدل المألوف في مثل هذه الحالات في مستشفيات بتسبرج ٤٥ في المائة

ولكن الدكتور ما كلاكلن حذر في حكمه شأن العالم المحقق فقال ان هذه المادة مركب من مستخرج من الكينا وقد ظهرت فائدته في النزلة الرئوية ولكن استعماله السريري لا يمكن ان يحقق قبل ان يدرس الاطباء في مختلف الارزاء فعله في طائفة كبيرة من الحالات وتناول هذه المادة سهل جداً فانها تؤخذ حبوباً كأنها كينا وقد يتناول المريض جرعات كبيرة منها تبلغ ٤٠٠ الى ٨٠٠ قححة او اكثر من ذلك في اسبوع وتبلغ الجرعة العادية للبالغين ١٢٠ قححة في اليوم

ضرب هيربر من دقائق المادة في الاشعة الكونية

ان هذا البحث كان أعقد وأصعب بحث طبيعي
تولاه حتى الآن
هذه الدقائق الجديدة تحمل شحنة
كهربائية من رتبة الشحنة الكهربائية التي على
الالكترون والبروتون. فمنها ما هو موجب
ومنها ما هو سالب وكل دقيقة منها اقل وزناً
من الالكترون ولكنها اخف من البروتون.
والراجح ان مدى كيانها على الارض قصير
لانها لا توجد الا في الاشعة الكونية
وقد استنتجت جميع هذه الخواص استنتاجاً
من دراسة الاشعة الكونية
ومن غرائبها انها تخترق الواح البلاطين
من دون ان تفقد طاقتها وكثافة البلاطين تفوق
كثافة الماء عشرين ضعفاً وكثافة الرصاص ضعفين

في أنباء اميركا العلمية ان ضرباً جديداً من
دقائق المادة قد كشفه العالمان فدرماير واندرسن
وثانها حاز جائزة نوبل الطبيعية لسنة ١٩٣٦
هذا النوع الجديد من المادة لم يطلق عليه
أي اسم بعد ولا هو يتفق مع سائر ما يعرف
عن دقائق المادة المختلفة كالبروتون والالكترون
والنوترون

ففي أثناء تجارب كان هذان العالمان يجربانها
ظهرت لهما ظاهرات لا يمكن تفسيرها بأي
دقيقة من دقائق المادة المعروفة. وكان لا بد
من فرض وجود دقائق اخرى لتفسيرها. ولكن
الصفات العجيبة التي يجب ان تصنف بها هذه
الدقائق لتفسر مآراء حملتها على التريث قبل اعلان
النتيجة. ويقال على لسان الدكتور اندرسن

انسولين هيربر باضافة الزنك اليه

بعد تجارب وافية واسعة النطاق في المصابين
بالبول السكري حتى يستطيع الحكم النهائي عليه

وقد نشأت فكرة اضافة الزنك الى
الانسولين من اكتشاف دنماركي وهو ان
اضافة مادة « بروتامين » من سبرمات بعض
السمك تطيل مدى فعل الانسولين وقد وصف
السرفردريك بانتنغ هذا الاكتشاف الدنماركي
بقوله انه اكبر خطوة في معالجة البول
السكري بعد اكتشاف الانسولين

قال السرفردريك بانتنغ مكتشف
الانسولين ان التجارب تجرب الآن بأنسولين
جديد قد تقضي الى اثبات تفوقه على الانسولين
المستعمل في علاج البول السكري. فقد
اضيف الى الانسولين المألوف قليل من الزنك
وجربت به التجارب فظهر ان فعله بعد اضافة
الزنك اليه في تقليل مقدار السكر في الدم
اطول كثيراً من فعل الانسولين الذي
لا زنك فيه
ولكن هذا الانسولين الجديد لم يجرب

بين العقل والجنون

مشاهدات غريبة

وسط الماء رافعاً يديه كتاباً الى أعلى خوفاً من ان تبلله الامواج وقضى مدة في قراءة هذا الكتاب وقد ثنى رقبته الى الخلف ليتسنى له ذلك ولما خرج من البحر استلقى على بطنه فوق الرمال وهو يلعب برجليه ويديه كالطفل حديث الطفل

أصيب طفل بالحملى التيفودية وهو في السابعة من عمره فأثرت في قواه العقلية وأخذت تنتابه نوبات صرع . وأغرب ما حدث له انه أصبح يكرر ما يريد ان يقوله مرتين . فاذا أمرته ان يأكل الطعام أجابك مثلاً «أنا شعبان . أنا شعبان . وهكذا

تصيد البراغيث

انها سيدة تصيد البراغيث بشغف وتوثق ارجلها بحيط واحد على بعد سنتيمترين البرغوث والبرغوث واخيراً تحمل الحيط رأسياً وتشعل النار من طرف الحيط الاسفل وتتلذذ برؤية ضحاياها وهي تحترق

ذكر الدكتور محمد حسين ولاية الطبيب بصحة بلدية الاسكندرية وعضو جماعة نشر الثقافة في كتاب صدر له من عهد قريب بالعنوان المتقدم بعض مشاهدات في الاصابات العقلية والعصبية اخترنا منها ما يلي :

أين مركز الكون ؟

لا ريب أنك ستحار في الاجابة عن هذا السؤال ولكن امرأة من زيلات احدى مستشفيات الامراض العقلية تؤكد ان الشامة التي على خدها الجميل هي مركز الكون . فما رأي علماء الفلك ؟ يقرأ ساجحاً

يشرف منزلي على شاطئ البحر في محطة سمور تتج . . . وقد استوقف نظري مراراً رجل بدين يقضي الساعات الطويلة في الصباح والمساء في زمهرير الشتاء ساجحاً في البحر كما نما خلق ليعيش في الماء وقد رأيت في حركاته وسكناته ما رايت في امر عقله فكنت أراقبه باهتمام ولشد ما كانت دهشتي عند ما رأيته يوماً

عيناؤه وأذنيه وفم

في ذيل ضفدع

فما نسيج العين في الذيل نمواً سريعاً وكأنه أثر في نسيج الذيل النامي فصنع للعين عدسة بل كان نسيج العين الاصلي يحمل في طياته حوافز تحفز النسيج الذي حوله الى تكوين اذنين وفم فتكون في الذيل فعلاً بداءة اذنين وفم

وصف الدكتور اوسكار شوتيه احد اساتذة كلية امهرست الاميركية تجربة عجيبه جربها بصغار الضفادع اذ قطع ذيل احداها فلما شرع الذيل ينمو ثانية زرع فيه الخلايا التي تؤلف اصول العينين في صغار الضفادع

الصفوف الصناعية

من كاسيين اللبن

في خطبة القاها الدكتور هارولد يوري حاز جائزة نوبل الكيمياء لكشفه الايدروجين الثقيل والماء الثقيل قال ان استخراج صوف صناعي من كاسيين اللبن «وهو المادة الحبيبة فيه» مستطاع وان علماء ايطاليا قد صنعوا هذا الصوف وان رجال فرقتين من الجيش الايطالي يرتدون ملابس مصنوعة منه

وقال الدكتور يوري ان منسوجات من هذا القليل يمكن ان تصنع من قطع اللحم التي لا يسهل مضغها فيحول بعض ما فيها من المواد الى نسيج يرتديه الغواني في الربيع او الرجال في السهرات

تعبارة في المائة

نشر الدكتور جيارمن في المجلة الطبية الاميركية كلمة عن حالة غريبة قال : حضر لعيادته في ٧ يوليو سنة ١٩٣١ مريض اعزب عمره ٤٠ سنة يشكو منذ خمس عشرة سنة ألماً في المثانة وتعبيراً في البول مع تكراره وقلة البول فيه وأنه ادخل من يومين ثعباناً صغيراً الى المثانة على امل ان يشفيه من العلة المزمنة فيها وقد دل بحث البول على وجود كريات حديدية بكثرة فيه وأظهر فحص الاشعة والمنظار وجود الثعبان في المثانة وبعد محاولات عديدة تمكن من القبض عليه بكلاليب المنظار واخراجه منها

وبلغ طول الثعبان نحو ١٨ بوصة و٤٥،٧ سنتيمتر وشفي المريض

امضاء غريب

يزيد عدد سكان الولايات المتحدة الاميركية واحداً كل ٣٥ ثانية ذلك ان ولادة تقع كل ١٤ ثانية ووفاة كل ٢٢ ثانية ويدخل اميركا من الخارج مهاجر اليها كل ١٤ دقيقة ويغادرها مغادر كل ١٤ دقيقة ونصف دقيقة

غاز النيترون في بعض الصرم

غاز النيترون مشهور في عصرنا لانه يستعمل في الاعلانات التجارية على المخازن اذا يتألق بضوء أحمر عند ما يوضع في أنابيب معينة ثم يخترقها تيار كهربائي . ولكنه نادر على الارض . الا ان الدكتور « منزل » أحد علماء مرصد جامعة هارفرد أثبت انه كثير في عالم النجم وان مقدار في ما بعض السدم الغازية التي داخل مجرتنا يساوي مقدار الأوكسجين فيها

انقلاب الجنس في الضفادع

شاهد انقلاب الجنس في كثير من الحيوانات المائية الارضية (البرمسية أو القواذب) كالضفادع وغيرها . وقد جمع كرو سنة ١٩٢١ عدداً كبيراً من الضفادع انقلبت من اناث الى ذكور وعلل ذلك بحصول انحلال في نسيج المبيض فتم نسيج مولد للبرمات بدلاً منه وروى العالم المشار اليه ان بعض هذه الضفادع عملت فعلاً عمل الذكور وامكنها ان تلقح وتخصب الاناث وكان النسل الناتج كله اناثاً وهو بالضبط ما يتوقع (لسبب علمي يتعلق بأساليب الوراثة لا محل لبسطه هنا)

مكتبة المقتطف

بحث نفسي اجتماعي في

عالم السرد والقيود

تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد

سواء أكان السجن معهداً للعقاب أو الانتقام، أم داراً للاستشفاء، أم مدرسة للتهذيب والاصلاح، وسواء أزعج الحكام والمتشرعون أنه خلوة يختلي به المذنب ليحاسب ضميره عما اقترف، أم وسيلة توقظ العوامل الانسانية الكامنة في النفس عن طريق الحجر، أم مطهرًا يتطهر به الضمير بنار التبيكت، سواء اجعل السجن لهذه الاغراض أم لسواها، فإنه يبقى جحيم عذاب يتقلب على حجرها مخلوق فرضت عليه القوانين الوضعية القصاص ولا يسلم من حروقها الا رجل سمى به ثقافته وارتقت به روحه الى مصاف الكمال

رواد السجن واحد من ثلاثة، شرير مفطور على الاجرام لا يصلحه التعذيب ولا الانتقام، ومدفوع اليد زلت به القدم فهو فان قدرته له النجاة فاما ينجو بنفس محطمة واعصاب متخاذلة، ورجل جارت عليه الاحكام فكان الجور مدعاة الى استفزاز همته واثارة نخوته وتصلبه في عقيدته كفت احسب السجن تشم روادها بوشم الحقد الذي يتمدد مع تهادى السنين ويبرز اثره كلما اوغل المرء في الاندماج بالاوساط الاجتماعية، حسبت ذلك حقيقة ثابتة في النفس البشرية وقد قدر لي ان اسهل حياتي السياسية بالايقاع الى السجن ثم الافلات من جبل المشقة، وكنت كلما جال السجن بخاطري او عرضت حالات المسجونين امامي، اشعر بالوجع من ذيك العذاب القديم وأحس بالغصة الدافعة الى الانتقام من اولئك الاشرار الذين سعوا الى الزج بي في هاتيك الغيابات، وكنت اتناسى ما افادني حياة السجن من تعلم الالتفات الى حياة المسجونين، ومراقبة احوالهم، ودرس نفسياتهم، والاعتبار بأدوائهم ونوازلم وما علمتني ايضاً من الثقة بالنفس والاعتماد عليها وحدها، ومن إباء الانقياد لارادة الفرد او السخرة للجماعة المتحيزة. فاعتماداً على هذا الحسبان، قرأت كتاب «عالم السدود والقيود» وفي نفسي توق ملح الى دغدغة اجدها فيه تسكن في نفسي المأزماً ووجيعه من اناس ضلوا شباناً كثيرين غيري لم ينبج اكثرهم من اعداء المشائق، غير اني لم الق في الكتاب شيئاً مريراً من ذلك، ولم يشعرنا مؤلفه الفاضل بوطأة الالم على نفسه وجثوم كابوسه على صدره، ولا تحفزه الى الانتقام والتشفي من الحكام او السجنان أو القادة او غيرهم، فما سبب ذلك يا ترى والاستاذ العقاد كما يعرفه كل الناس، أبي النفس، مرهف الحس، دقيق الشعور الى أبعد الحدود؟

قد أقرب من الحقيقة اذا أعدت ذلك الى ثلاثة أسباب :

الاول : ان مقام الاساذ العقاد في السياسة مقام الملهم لا المستلهم ، والقائد لا المقود ، وستان بين رجل صاحب رسالة وعقيدة في الحرية والاستقلال يثبها في الناس ، وبين آخر يستوحي اصحاب العقائد ليساعدهم في اذاعة رسالتهم سواء في الحرية والاستقلال او في سواها
والثاني : هو تسامي روح العقاد عن هفات المجتمع ووضاعته ، وترفعه عن أخذه بنجيزته ، ودأبه في تسديد خطاه وتوجيهه صوب قبة الحياة

والثالث : هو المقدرة على التحول من جهة الى جهة مع اكسة مع المعرفة ما بين الجهتين من تقارب وتباعد هوذا ما أحسبها أسباباً لتنجي المؤلف عن النقر على الاوتار الالينة في حياة السجن ، وقد يكون هناك أسباب دافعة لم يذكرها المؤلف او تخاشى ذكرها ، وقد تكون كبرياء منه على الالم واحتقاراً له ، وقد تكون معاملة طيبة من السجنائين خصّوه بها فألنسته وطاة القيود وثقل الحجر ، وسواء أكان هذا ام ذاك ، فان الذي لا شك فيه ان لتسامي الروح المقام المقدم في هذا الكتاب . ويجدر بي قبل استعراض أبرز خصائص هذا المؤلف الثمين أو أروي الحادثة التالية حدثني أحد المزورين من سياسة الاساذ العقاد قال : ان عجبت من تحير هذا الرجل الخوف الذي لا يعرف الملاينة ولا الانحراف حتى عن سبيل العاصفة الهوجاء ، والذي تم قسما وجهه ونظرات عينيه على العنجهية والكبرياء ، والذي تسمعك كل كلمة من كلماته رجع صدى القوة الصارمة والحق الصريح ، فاني أعجب لروح الانسانية يشيع في فصول كتابه كلها ، وروح النكتة اللطيفة ، والفكاهة الظريفة ، والسخرية اللاذعة يفيض به ، وسألني لتعليل ذلك ، فابتسمت وأجبت : ان هذا الذي ذكرت يا صاح ليس سوى مظهر بسيط من مظاهر العبقريّة التي تجمع بين طرفي الأمر الواحد بسهولة وعدم تكلف . فالعقاد العنيف الجبار هو بعينه العقاد اللين السلس ، والعقاد الانوف المتكبر هو هو الحنون المتواضع ، وحسبه رفعة وسمواً أحده على المجتمع المريض فيواسبه تارة برفق ولين وتارة أخرى بالبلضع والمنشار تحده في الحالين نفس مفطورة على الحب . وحسبه أنه دخل السجن وخرج منه بروح واحد لم يتقلقل او يتبدد اما أضاف الى ذخيرة معرفته بالحياة معرفة طائفة من الناس بعيدة عن الناس تأوي بقعة في الارض جدياء قاحلة من الرحمة والرافة

تكفل للقارئ صفحات كتاب «عالم السدود والقيود» بان يستعرض عالم السجن كما استعرضه المؤلف دون ان يقيم مثله فيه تسعة شهور ، ويقرأ فيها خلاصة ما رأى السجين واحسّ وفكر ، كما يقرأ قصة الذهاب به الى سجن « قره ميدان » ورحلته الى هذا المكان الواحد الذي « كأنه العالم بأسره بارضه وسمايه ، والذي كأنه العالم الخارجي جزء لاحق مضاف اليه »

« والذي هو شط والدنيا كلها شط آخر يتقابلان ويتناظران » يقرأ فصولاً مستقلاً أحدها عن الآخر استقلالاً تاماً ومرتبكاً في الوقت ذاته باخوته ارتباطاً فنياً عجيباً ، وهي بين هذا الاستقلال والارتباط كأعضاء الجسد الانساني الذي يشيع فيها الروح الالهي

قلت أبرز خصائص الكتاب « الروح الانساني » وهو شائع في فصوله يربطها بعضها ببعض كما تربط نغمات الموسيقى الوترية الهادئة وذبذباتها الناعمة ، نغمات الموسيقى النحاسية أو تجل من تعدد اصوات الآلات وحدة كاملة ، وقد احدث شيوع هذا الروح في فصول الكتاب قصة منسجمة متلاحمة محبوكة معقودة ببراعة المؤلف القصصي ، لذلك اقر بالعجز عن التذليل المادي عن خصائص الروح بالذات لأنها تدرك بالزكاة والفطنة . اما الدلالات على روح النكتة والفكاهة والسخرية فمركزة في كل فصل ، اسمع ملخص الواقعة التالية

ضبط السجنان سجينين زيفاً ثمانى عشرة قطعة من ذات القرشين في معمل السجن وانقنا صنعها جد الاتقان ، مع السرعة وقلة الادوات وشدة الحذر من الرقباء ، فتوها ان جزاء التزييف خمس سنوات ، فالتفت احدهما الى زميلها العقاد السجين سائلاً « اصحيح ان الحكاية فيها خمس سنوات » قال الاستاذ : « طاب لي ان اداغب مهارة هذين الشيطانين ، واخذت اشرح لهما ما اعتقد الفارق بين التزييف في الخارج والتزييف في داخل السجن وقلت لهما ان المزيف في الخارج يخلص حق الحكومة وحق الناس ولكن المزيف هنا يخلص ما هو مختلس بطبيعته ومستحق للمصادرة عند ضبطه وليس على هذا عقوبة اكثر من عشرين او ثلاثين جلدة فانطلق احدهما يدعو لي بالطمانينة وارتقاء المراتب والصحة والعافية وكل شيء » قلت هداك الله يا صاح ، ولكن هذه الدعوات الصالحات هل تراها « عملة صحيحة » عند صيارفة السماء ؟

قصة ثانية « ان الاطباء قرروا بعد ايام من دخولي السجن وجوب وضعي في مستشفى ومعاملتي في اختيار الطعام والفرش واوقات الرياضة معاملة المرضى » ولكن ماذا حدث بعد هذا القرار ؟ هل نقلت الى المستشفى كما يقضي العقل والنظام ؟ كلا ! اما الذي حدث انهم اعتبروا الحجره التي انا فيها ملحقه بالمستشفى وانقضى الاشكال !!!

قصة ثالثة « واحتلنا على صاحبنا حتى باح لنا بذلك القسم ، فاذا هو آيات يكررها القائل ثلاث مرات وهو متوضىء فتحصل المعجزة وقد رأيناها فعلاً يحز للنمل خطاً على الحائط ويتلو القسم فيرجع النمل عن الخط او يسقط دونه ، وجربنا نحن القسم فصحت التجربة وايقنا برهه اننا نملك سرّاً من اسرار السحر المتصرف في خلق من خلائق الله حتى خطر لنا يوماً ان نرسم الخط ولا نتلو القسم . فما راعنا الا ان تصح التجربة بغير تلاوة كما صحت بالوضوء والتلاوة ، فعرفنا السر ولكننا اسفنا على السحر الذي فقدناه »

السائد في اذهان بعض الناس ان الذكاء طبيعة في طوائف النبل ، فجراً على هذا التخمين وامتحاناً لتجربة النمل السالفة طاب للاستاذ العقاد ان يتمتع بهذا الذكاء ولكن بغير وضوء وآيات لقد ساعدته اسرار النمل وطوائفها القاطنة في شقوق غرفته في السجن على اتيان التجربة التي اسفرت ، على ان هذه المخلوقات الموصوفة بالذكاء انما تعمل بغير « تفكير » لكنها من الادميين قصة رابعة : حضر الواعظ ليعظ السجناء المسيحيين ، وكان يروق الاستاذ العقاد ان يشهد هذه الحلقات ويسمع الوعظ ، « فيطيب لي ان ارى التوراة منقولة الى عالم الخيال الفطري ، والتصوير الشعري ، والتمثيل الفني الذي لا تكلف فيه » « وكان من عادة الواعظ اذا فرغ من شرحه ووعظه ان يطلب الى احد السجناء ان ينهض للصلاة والدعاء ويجهر بما يحيش في نفسه ونفوس زملائه » « ولا احسب احداً منهم — اي السجناء — كان يجيد الكلام في دعائه وصلاته كما كان يحبده رجل من اضرامهم بالشر واولاهم بالعقاب واسوئهم سيرة بين السجناء ، وان نهضوا له بالبراعة والذكاء وهو تاجر مخدرات مشهور » « سمعته مرة يصلي ويذكر خطايا الخاطئين وآثام بني الانسان ... فسألت عنه فقيل لي هذا فلان صاحب الحيل المعروفة في ترويح المخدرات وكنت سمعت عنه وعن قضاياه واحبيله في ايقاع صرعاة ، واغرائهم بتناول السموم وادمانها ، فقلت لو كان هذا المصلي الخاشع يدعو الله ليستجاب دعاؤه لما دخل السجن ولا قام مقامه هذا للصلاة فيه ! ولكنها حيلة جديدة من حيله الكثيرة ، ولعلها ايضاً من حيل التخدير » !! وقس على ذلك في التهمك والسخرية والنكتة وما اليها الشيء الكثير ، اما دقة الملاحظة ، وقوة الاستماع والبراعة في الاستقراء ، والحصافة في الحكم فاكثر من ان تحصى اقتصر على اقتباس بعضها « في معظم السجناء عاطفة مصرية لاحضانها في جميع المصريين على تباعد الطبقات والاقاليم ونفسي بها » عاطفة العائلة « وما يتفرع عليها من رعاية الارحام والاسنان »

مر سجين من العائدين في جريمة السرقة بطفل واقف في فناء السجن ينتظر ترحيله الى سجن الاحداث « فرفع الطفل رأسه وناداه بلهجة المسكنة التي يستشعرها الصغير في غيبة أهله وقال له « جوعان » فتمهل اللص العائد هنيهة ثم قال له « ماذا أصنع لك يا ابني وانصرف ... » ثم عاد بعد دقائق ومعه رغيف سرقة من الخبز فقسمه نصفين وأعطى الطفل نصفه ... »

مثل ثان : تلاحي شيخ فان وفقى عارم مشهور بالشر والعردة ... فسبى الشيخ سبباً لا يطيقه فنى من سنه ... فما صنع الفتى المسبوب الا ان بدا عليه الدهش والتردد ثم هز رأسه وقال لمن معه « انظروا الى الرجل الشايب يعيب ولا ينجل » وقال للرجل الشايب « لو غيرك قالها لقتلته »

« وهذه على التحقيق ظاهرة اجتماعية ملحوظة في اخلاق الامة المصرية بأسرها ، سببها فيما أرى قدم العهد في هذه الامة بحياة الأسرة والحياة الاجتماعية واليمنية على اجمالها »

على هذا الضرب البارع من الاستقراء والاستنتاج يقيم الحجة على ان السجون تبدل الاذهان وتعمي البصائر ولا تقال النفوس بهذيب او اصلاح ، ويقص قصته فتى قتل اخته استدرجه رفاقه الى شرح الواقعة فيسردها بالتفصيل فيقول الاستاذ العقاد عنه « فلو انه كان يتكلم عن ذبح شاة او دجاجة لما اختلف الامر ولا تباينت اللهجة ، ولا كان أقل من ذلك مبالاة بما يقول واسترسالاً في النكات والمزاح كلما عبث به اصحابه وتعبدوا احراجهم واستفزاز طبعه وليس هذا كله من الغيرة على العرض والنخوة للكرامة ، فان الغيرة على العرض تثير الغضب والنفقة ولا تخلق البلادة ولا تعمي الانسان عما صنع بعد فوات الثورة وسكون الهياج ويقظة النفس للذكرى والاستعداد والاستعانة بالأسف على ما كان من سبب القتل والاضطراب اليه »

يستدل الاستاذ مؤلف كتاب «عالم السدود والقيود» على طبيعة المسجونين من الفكاهات التي يتفكحون بها والغناء الذي يغنونهُ فيتخذها مقياساً لمعرفة الخير والمحبة الانسانية في تقوسهم ، فيأتي بالبيئات على ان اهل الخير فيهم قليل « وهذا القليل الموجود يشف — في أغلبه واعمه — عن معدن وضع او معدن مشوب ، وان لم يحجز لنا ان نقول ان الخير فيهم معدوم ، وان صلاحهم ميؤوس منه » يضيق بي المجال اذا تناولت فصول الكتاب جميعها ، ففصول « الطعام ومطالب الجسد » و « بعض الشخصيات » و « الجريمة والعقاب » و « بعض الاصلاح » خليفة بالدرس العميق ، جدير بالرجال المتصدرين للاصلاح الاجتماعي سواء اكانوا كتباً ام نواباً ، قضاة ام حاكين ان ينعموا نظرهم ويطيّلوا تبصرهم فيها لانها خير منارة يهتدون بنورها الى انقضاء عشرات الآلاف من المسجونين تضيئ السجون ونظمها الى امراضهم الطبيعية ادواء خلقية لا خلاص لهم منها ولا رجاء من شفائهم من عللها الطبيعية والاكتسابية

بودي ان لا اهيب فقط بكل اديب وأديبة قراءة كتاب «عالم السدود والقيود» بل كنت اتحنى — لو في وسعي — فرضه على طلاب الادب فرضاً فيتطعمون بالروح الانساني المحض ويتذوقون الادب العالي الرفيع . ولا يفوتني هنا ان انوه بالكتاب العظيم الذي وضعه الاستاذ العقاد في « سعد زغلول » لاني اعتقد ان فصوله الاولى من اربع وأتمتع وأسمى ما كتب كاتب في الدروس الوطنية وفي تحليل الشخصية المصرية ، وانه في مجموعه ككتاب في ترجمة الزعيم سعد زغلول يبرز اكثر الكتب من نوعه التي وضعها اميل لدويج وأندريه مورو وواوكتاف ابري ويساوي كتب استفان سفايج عميد كتاب التراجم في هذا العصر في عمق الدرس ودقة التحليل التنويه وحده بقيمة كتاب « سعد زغلول » اثم ، والاشادة باقداره الادبية والاجتماعية فرض على كل كاتب ، وعندني ان الانصاب والتماثيل مع روعتها لا تمثل عظمة زغلول الرجل كما يصورها على حقيقتها الطبيعية الحية كتاب « سعد زغلول » حبيب زحلاوي

المتنبي أيضاً

كتاب المعهد الفرنسي بدمشق

انها لسنة المتنبي . سنة ظفر فيها الشعر بفضل أمير من أمرائه بالمكانة اللائقة به في هذا العالم، تلك المكانة الآخذة بالانحلال لسطوة المادة على الأنفس وقد عرض المقتطف بالنقد لجل ما ألفت في المتنبي أخيراً سوائه في اللغة العربية أو اللغات الأفرنجية . وهذا مؤلف جديد باللغة الفرنسية يخرج المعهد الفرنسي في دمشق ^(١) رغبة منه في ان يشارك أبناء العربية في أحيائهم لذكرى المتنبي واشادتهم بفضلهم

يفطوي المؤلف على ست مقالات لطائفة من المستشرقين نسوق زبدتها لقراء العربية : بطلع علينا الاستاذ ماسينيون Massignon في المقال الأول بآراء عجيبة أول الأمر مستقيمة النواحي في الحقيقة ، ومجمل قوله ان المتنبي المولود في البيئة الألمانية في الكوفة نشأ في هذه المدينة وفي البادية في جو قرمطي محض وان هذا القرمطي نزع لم يرعو كل الارعواء وان غلب على أمره . ثم انه لم يرض كل الرضا بشيعة أمراء الشام الحمدانية فاضطر ان يتجر بمنظوماته في ائقة وفتحة خاصيتين بمذهب الاسماعيلية

ذلك الرأي الذي أتى به المؤلف وانطلق يؤيده بالشواهد المختلفة فدل على قرمطية المتنبي بألفاظه وصوره واعتقاداته وتهكمه حتى يئنه . وهنا نرى ان الاستاذ ماسينيون ذهب في الاستشهاد ببيان المتنبي مذهباً فيه شيء من الغلو ، فاستشهاده مثلاً بهذا المصراع

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

على ان المتنبي كان يعتمد الى الطباقي المعنوي على الطريقة القرمطية، مسألة فيها نظر . ذلك ان قراء الشعر العربي القديم انما يرون في هذا المصراع تركيباً لفظياً اتباعياً متعارفاً وصفوة القول ان مقالة الاستاذ ماسينيون غاية في اللباقة ، ولا يفوتنا ان نذكر ان الدكتور طه حسين بك انتفع بها في تأليف كتابه الاخير « مع المتنبي » (مصر ١٩٣٦ ، راجع ص ٥٣ ، ٦٤ ، ١٥٤ ، ١٦٩)

وفي المقال الثاني يصف لنا الاستاذ سوفاجيه Sauvaget مدينة حلب ايام سيف الدولة . فيخبرنا أنها لم تكن على جانب عظيم من الاتساع ولا المدنية لتمزق نواحي الشام وعدم

استقرارها وقلة اطمئنان اهليها . ولم تكن التجارة لترفع من شأن تلك النواحي لانها كانت في ذلك العهد محتضرة بسبب النضال الذي بين المسلمين والنصارى . فحلب المحبوسة بين التخوم البيزنطية والممتلكات الاخشيديّة ومسالك البدو لم تقو على صرف متجاتها الا الى جانب من الشام الشمالية . واما المدينة نفسها فكانت على الحال التي كانت عليها قبل الفتح الاسلامي ايام ملك الروم . ولم يضاف اليها سوى الجامع وقصر سيف الدولة

والمقال الثالث موقوف على عروبة المتنبي . وفيه يدل الاستاذ ليسرف Lecerf على ان المتنبي وقف للشعوبية وقفة الحازم الفاتك واعلن ان الارومة العربية ولا سيما اليمانية لا تعدلها ارومة . وان الامم انما يضخم شأنها بنبيلها الوراثي وكرمها الطبيعي وشجاعتها وفتوتها ، والامة العربية تجمع هذه الخلال الى حد بعيد جداً . ثم اعلن ان هذه الامة يفسدها ويسقط هممتها عبيد من العجم يتحكمون فيها . فللمتنبي بهذا وضع الحجر الاساسي للعروبة الفعالة التي تعتمد على الماضي الزاهر لتشد من ازرها في الحاضر . وهي حال نلمسها اليوم في البلاد العربية

واما المقال الرابع فقد اجهل فيه صاحبه الاستاذ بلاشير Blachère الكتاب الذي افقه في المتنبي في اللغة الفرنسية وهو الذي اشرنا اليه في فصل مؤلفات المستشرقين بهذا الباب في مقطف ابريل من هذه السنة وفي المقال الخامس سرد الاستاذ جود فروى دوماميين Gaudet-Demombynes اسباب مجد المتنبي . ففي رأيه ان شاعرنا بلغ القمة بثلاثة اشياء . اما الاول فعريته وعروبه إذ ارتد الى المقدمين من الشعراء الاولين في اسلوبه ولغته وغلوم في النضال عن القوم والارومة وفي « حماسه » وفي مدحه للشجاعة والبسالة وفي انتصاره للعرب ووقوعه في الاعاجم . وأما الثاني فحياته المضطربة « الرومانتيكية » التي كثر فيها الطعن والضرب فردته بطلاً من ابطال الشعر العربي كأجداده وفي مقدمتهم عنتره وعمر بن كاثوم . وأما الشيء الثالث فبلاغته اذ في شعره من الجزالة والروعة ما لا يصيبه الناس الا عند الفحول من الشعراء الاقدمين . فضلاً عن ان المتنبي عرف كيف يضمن هذا الشعر القديم الاخاذ افكاراً جسيمة فجاءت طائفة من آياته آيات الشعر المحكم الرصين

بقي المقال السادس . ويبحث صاحبه الاستاذ كانار Canard في اتصال شعر المتنبي بالحرب التي كانت قائمة بين بزنطة والعرب . وخلاصة البحث أن ما قاله المتنبي في حوادث تلك الحرب بعيد عن ان يكون مستنداً تاريخياً للفلو الذي فيه ارضاء لسيف الدولة . وانما على المؤرخ ان يراجع هذا الشعر ليفهم الزمن الذي وقعت فيه الحرب وليجعل للحوادث الواقعة حقاً اطاراً قفياً جذاباً

القانون الدولي الخاص المصري

تأليف حامد زكي — الطبعة الاولى ١٩٣٦ — ٧٥٢ ص من قطع المقتطف

« آفة التأليف الاسراع فيه ، وخير التأليف ما جاء ثمرة بحث وتفكير طويلين . تلك حقيقة ناصعة لا يجحدها الا المسكرون ويؤلمني ان أقرر هنا ان جانباً كبيراً من المؤلفين المصريين قد أهمل المبادئ السليمة السابقة . فهم من حاول القفز الى القمة مباشرة متعامياً عن جميع العقبات الماثلة في طريقه . . . » بهذه الكلمات صدر الاستاذ حامد زكي مؤلفه . وكما أصاب في تصديره إذ ان في مصر طائفة من الكتبة يظنون التأليف سواء كان أدبياً او علمياً واقفاً بالباب منقاداً للقلم ودلالة على ما صدر به مؤلفه اخرج الاستاذ حامد زكي الدكتور في العلوم القانونية والاقتصادية والسياسية من جامعة باريس وأستاذ القانون المدني والقانون الدولي الخاص بكلية الحقوق في مصر كتاباً جمع بين البحث والدقة وبين الروية والتقصي . والكتاب ينطوي على خمسة فصول مطولة : الأول في موضوع القانون الدولي الخاص وتعريفه ، والثاني في تنازع القوانين ، والثالث في تنازع الاختصاص ، والرابع في الجنسية المصرية والموطن والدين ، والخامس في حالة الاجانب (المقيمين بمصر) . وتحت كل فصل من هذه الفصول تدرج ابواب عدة لكل منها مكاتبه ، ولا يسعنا هنا ان نعرض لها بالجملة . والتحقيق ان كتاباً مثل هذا خليف بأن يقرأ من ألفه الى يائه اذ فوائده حجة ومناحيه غفيرة

الا أنه لا بد من ان نشير الى ميزات ثلاث يختص بها كتاب الدكتور حامد زكي . اما الميزة الاولى فتجلى الروح المصرية فيه ، اذ ترى المؤلف ينتصر للقضاء المصري والعدالة المصرية ويندد بسطوا الاجانب ويدفع اقوالهم الواهمة ثم ينظر الى القانون الدولي الخاص على انه قانون وطني مصري لا على انه قانون دولي عام او مقارن . واما الميزة الثانية فسهولة مطلب الكتاب من حيث وضوح مسأله واستقامة مناهجه وتلاحق فقره ، وفي هذا لطلبة كلية الحقوق خير عظيم . واما الميزة الثالثة فاستقلال ذهن المؤلف وجرأته على قول ما يبدو له حقاً وصحيحاً . ولكن مثلنا على هذا ما ذهب اليه المؤلف عند الكلام على قانون الاحوال الشخصية للمصريين عامة (ص ٦١١) من « ان الاصول هو الاخذ جملة واحدة باحكام تشريع وضعي حديث كالتشريع السويسري مثلاً منعجاً بما يلائم عادات اهل البلاد والغالب المتعارف على معتقداتهم ، وذلك اسوة بما حصل في تركيا الحديثة حتى بشأن الاحوال الشخصية الخاصة بالمسلمين »^(١)

ب . ف .

(١) جل ما يؤخذ على هذا الكتاب النفيس مادة اغلاط مطبعية معدودة وقعت في الالفاظ الاعجمية (مثلاً ص ١٤٦ ، ١٨٨ حاشية ٤٨٣ ، ٤٩٧ حاشية ، واخرى لغوية) مثلاً ص ٥ آخر سطر ، ص ٩٩ ص ١٧ ، ص ٨٨ ، ص ٦١ ، ص ٤٨٤ ، ص ٦٧ ، ص ٤٩٩ ، ص ٢)

ديوان حافظ إبراهيم

ضبطه وصححه وشرحه ورثته الاساتذة أحمد أمين واحمد الزين و ابراهيم الاياري طبع في جزأين :
الاول في ٣١٨ صفحة والثاني في ٢٦٢ صفحة قطع المقتطف — طبعة دار الكتب المصرية

حافظ شاعر عبقرى دوت نغمات نايه في آفاق الأقطار العربية ، ورن صدى ألحان قناره
في العالم الاسلامي ، نيفاً وثلاث قرن ، في حلاوة جرس ، وطلاوة لفظ ، وحسن تأليف ، وجمال
تنسيق ، بز في ذلك جميع شعراء عصره سوى شوقي كما يقول هو :

لم أخش من أحد في الشعر يسبقني إلا فتى ماله في السبق إلآه
ذاك الذي حكمت فينا يراعتهُ وأكرم الله والعباس مثواه

ولست بسبيل التعريف بحافظ الشاعر وقد عرفه الناس وأنا ما ازال في المهد صبيّاً ، غير
اني لا اجد مندوحة عن ان ألم بأطراف حياته في اسطر : فلقد قضى شطر حياته الاول فقيراً
معدماً ، يضطرب في نواحي الحياة فلا يصحبه سوى الفشل والملل ، متصعكاً لا يجد ما يقوم
بأوده فيستشعر الالم والحسرة في نفسه ، ويطلب العلا فيخفق مرة بعد مرة . . . وفي الشطر
الثاني يجد الرزق والاطمئنان في وظيفة في دار الكتب . وحرى به ، وقد ذاق مرارة العيش
ولذع الفقر ، ألا يفرط فيها فيهوي الى قرارة البؤس مرة اخرى . وحالت الوظيفة — كما هي
دائماً — بينه وبين ان ينفث عن نفسه بعض ما يتأجج فيها من آلامه وآلام وطنه وآمالها ،
فانطوى على ألم يتغلغل في صميم فؤاده ، فكف كثيراً عما كنا نصبو اليه من حماسة مشتعلة ووطنية
متسعة . ولقد وجد له الاستاذ احمد امين عذراً نقره نحن عليه . . . وحافظ لم يخرج في مدرسة
سوى تلك التي خلقها لنفسه من عباقرة الجيل وأفذاذه من العلماء والادباء والسياسيين ، فلم
يدرس دراسة منظمة ، ولم يقرأ قراءة مرتبة ، ولم يبحث بحثاً فيه الاستقراء والاستنتاج ولكنه
كان كالنحلة تمتص رحيق الزهرة التي تقع عليها لتستله . وكان حافظ يقول الشعر في مناسبات
— شأنه في ذلك شأن سلفه — ينشره حيناً او يدسه على هون إن خشي كيد الكائدين ، حرصاً
منه على رزقه ، وإشفافاً على نفسه ان تذوق الهوان والذلة . وكان رحمه الله — مهاناً مهمل ،
لا يأخذ نفسه بنظام ولا يعني بترتيب ، فانتثر شعره وتمزق ، ولفته الايام في ملاءة النسيان ، ألا
ما نشرته الصحف او ما حفظه أصدقاؤه ، ولو اننا ندبنا حافظاً نفسه ليجمع ما تبعثر من شعره للقي
عناء وجهداً دونه كل عناء وكل جهد ، ولأصابه الكلال والملل ، فما بال الذين قاموا عليه !

وها هو ديوان حافظ في طبعته الجديدة الانيقة المرتبة يجذب النفس ويستهوى القلب ويغري
بالمطالعة والامعان فيها ، ثم هو في ضبطه وترقيمه يفيد الطالب والمناذب معاً كما يعين الاديب على
بغيته ويوقر عليه مشقة البحث والتقصي ، وهذه منة اخرى للاستاذة . ولقد نظرت في الديوان
نظرة عجلى فراغني ان يفلت من بين ايدي الاستاذة بعض اخطاء أضرب مثلاً منها : ففي صفحة

٩ من المقدمة في الجزء الاول ذكر اليت الاتي ضمن ايات كان حافظ يندب فيها سوء حظه
وضيعة أمه وهو ما يزال صبيًا لم يطرَّ شاربهُ بعد ، وهو : —
وللموت ، مالي قد أراه مُبعداً وجُلّ مرادي أن أوسد جالاً « (بالجيم لا بالحاء المهملة)
ولعل صحة المصراع الاخير هو « وجُلّ مرادي أن أوسد جالاً » (بالجيم لا بالحاء المهملة)
والجال جانب القبر والبرّ وما جرى مجراها وفي هذا المعنى يقول النمر بن تولب
غدتْ وغدا ربّ سواه يقودها وبُدّل أحجاراً وجالّ قلب
والمعنى بهذا أدق وأرق وأفصح وأقرب للمعنى المراد من الايات ، وهذه التفاتة سريعة
زرجو من الاساتذة ألا يغفلوها . وليست هذه الاخطاء ، وان كنت لا اظنها إلاّ بعض سهو
الانسان ، مما يضع من قيمة الجهود الفذّة او مما يحط من قدره

ولقد ظهر ديوان حافظ في ثوبه القشيب ودياجته الرقيقة ليشعرنا ويشعر العالم العربي
أن كرم وزارة المعارف العمومية المصرية لم ينقطع فيضه عن حافظ في مماته ولا هو انقطع عنه
في حياته ، فلقد عطف عليه المرحوم احمد حشمت باشا وهو ناظر للمعارف فعينه في دار الكتب
في سنة ١٩١١ فاستقرّ بعد اضطراب وهدأ بعد تقلقل ثم . . . ثم خلفه صاحب العالي علي زكي
العراي باشا فأمر — وهو وزير المعارف أيضاً — فجمع شعره في سنة ١٩٣٦ ليكون ديواناً
كاملاً أنيقاً يغني الادباء عن التخطّط وينزع عنهم الشك ، فكان وزارة المعارف قد طوقت جيد شاعر
النيل بمن لن ينساها الجيل الحاضر ولا الا جيل من بعده ما دامت العربية السمجاء . ولا يسعنا
— نحن أسرة المقتطف جميعاً — إلاّ ان نشكر لوزير المعارف فضله على الناطقين بالضاد في هذه الباكورة
الأدبية وللإساتذة الذين اشرفوا على اخراج الديوان . وانا لتتوجه الى الوزارة طالين ملحين ألاّ
تقطع سيلها الفياض في هذه الناحية ولها من الله حسن الجزاء
كامل محمود حبيب

الفارابي

تأليف الحوري الياس فرح . جوينه (لبنان ١٩٣٧) ١١٤ ص من قطع المقتطف
اذا تلمست في هذه الرسالة رأياً طريفاً او بحثاً مستفيضاً عميقاً خرجت من قراءته قليل
الخط مما تلمست . ذلك انها رسالة تبذل اشياء عن الفارابي دون ان تذهب في العرض والاستدلال
والاستخلاص مذهباً اتسعت نواحيه وعلت طرقه . فيزة هذه الرسالة — على تواضعها — انها
تسوق الى القارئ العربي جانباً فاخراً من جوانب الفلسفة الاسلامية العربية . إذ فيها معالجة
استقصاء لشؤون المعلم الثاني بطريقة سهلة وافية . ويغلب على المؤلف طريقة المدرس فترى قلمه
يجري مجرى المعلم الذي لا يخطو خطوة الا وقد احكم الأولى . وعسى ان يواصل الحوري الياس
فرح استاذ الفلسفة العربية في معهد الفرير بجوينه التصنيف في الفلسفة العربية فيخرج مثل هذه الرسائل
المفيدة التي بها يستطيع القارئ العربي العادي ان يتفطن الى تراث اجداده في عالم الفكر والتأمل . ب .

من حديث الشرق والغرب

تأليف الدكتور محمد عوض محمد طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

لقيت الدكتور محمد عوض أول ما لقيت في عالم الفكر قبل أن ألقاه في عالم الحبس. وكان ذلك من زمن بعيد عرفته فيه قوي البناء في أسلوبه العربي. ثم تابعت الأعوام وأذا بي في النادي المصري في لندن منذ ثلاثة أعوام أقدم الى مصري طويل القامة أسمر اللون اسمه الدكتور محمد عوض . . .

ومنذ شهرين وقع في يدي كتاب اسمه (من حديث الشرق والغرب) لصاحبنا الدكتور عوض فقرأت منه ما مكنتني الظروف أن أقرأ . . وطويته على أن أعود إليه في فرصة مواتية وظرف قريب. واليوم اذا برئيس تحرير المقتطف الفاضل يكلفني الكتابة عن هذا الكتاب فأراي لا أجد سبيلاً الى عصيان أمره مع ان الكتابة عن الكتب من أشق الاشياء على الكاتب الذي يتجرى الصدق في كتابته لأنها قد تغضب الناس منه وتيرهم عليه. الا أن الأدب الحق لا يعني بمثل هذا الغضب ما دام ذلك في سبيل الأدب

اما من ناحية أسلوب الكتاب الفني فالدكتور غني عن أن أزكيه بكلمة. فقد عرف عنه نقاء الأسلوب واشراقه حتى فيما يتعرض له من مباحث العلم ومسالك البحث. وكتابه « سكان هذا الكوكب » شاهد على ما أقول. أما الفكرة في الكتاب فقد كنت أتوقع من الدكتور الفاضل أن يكون أعمق بحثاً في بعضها مما كان. ويخيل اليّ أن المؤلف راعى في كتابه جانب العبارة أكثر مما راعى جانب المعنى فلم يصل بنا الى أعماق من الفكر وكان كما حدثنا هو صادقاً عن الناس في موضوع « في طريق البقال » حيث يقول (ونحن ذوو أحلام ضحلة. لا نجد في البحث العميق الأعناء ونصباً وسنبقى مدى الدهر قانعين بالظواهر نتحدثنا وتقتنا)

خذ مثلاً مقالته (مناظرة بين بحر ونهر) فهي لم تعد أن تكون موضوعاً انشائياً يفرح طلبة المدارس باستظهاره. وكان المؤلف الفاضل أحسن أن المقال ماهو الا نوع من المناظرات التافهة التي كان يكتبها الحلبي في كتابه (نسيم الصبا) والتي زخرت بها كتب الانشاء حيناً فكتب على هامش المقال كلمة لا تحليه من عذر

والكتاب مزيج من قصص ومشاهدات وخطرات. أما القصة فقد كان المؤلف الفاضل بعيداً عن التوفيق فيها. و (عبث القضاء) شاهدنا على ذلك فهي لم تعد أن تكون حكاية عن شاب هندي تعلم في إنجلترا وأحب فتاة روسية في فرنسا ومات قبل أن ترف اليه من أحب. أما ما تستلزمه القصة من درس أو مفاجأة طريفة أو تحليل نفسي أو تصوير خلقي فلم يكن (لعبث القضاء) من ذلك نصيب

اما مشاهدات الكتاب ففيها كثير من صدق النظر واتساع المراثيات ولعل ذلك راجع الى ولع الدكتور بالسفر واهتمامه بالرحلة . فهو يتخذ من صغير المشاهدات عظيم الحكم وكبير المواعظ . وموضوع (في طريق البغال) يؤيد ما نقول . فقد خطر لي خاطرة وأنا اصعد في جبال الالب او اتسلق جبال منطقة البحيرات في شمال انجلترا وجنوب اسكتلندة وذكرت حينذاك قول الشاعر

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها تنال الا على جسر من التعب
بقى عليّ أن أقول كلمة في تشبيهات المؤلف فقد أغرم بها غراماً . وأصبح مألوفاً أن ترى في كتابه مثل هذا (وأوضحت كأمل البائس لا تزداد على المدى الا بعداً) والبحيرة (تشبه الحسناء حين تستيقظ من النعاس) . والمصاييح (كأنها أشباح اليقين وسط دياجير الشك) . وقديماً أغرم ابن المعتز الشاعر الخليفة بالتشبيهات فأبدع فيها . فاذا كان الدكتور عوض اغرم بالتشبيهات فهل لنا أن نتنظر منه الابداع ؟

اما وصفه للبحر فهو ما لم يتعرض له كاتب عربي بهذا البيان الجميل ولعله اذا سار على الضرب كان لنا منه كاتب عربي وصاف للبحر يعادل « كوزاد » الانكليزي مؤلف رواية Youth وغيرها من قصص البحر الرائعة محمد عبد الغني حسن

الحكيم وليلى

تأليف توفيق حسن الشرتوني — مطبعة صادر بيروت — صفحاته ١٥٩ قطع المقتطف بنط ٢٤ ايضاً
هذا كتاب اجتماعي يبحث في أسلوب قصصي — ولا نقول انه قصة بالمعنى الفني المتواضع عليه بين نقاد الأدب — المعضلات الزوجية وما يلابسها من مشكلات الاجتماع الحديث كالحروج الى المراقص والملاهي والحفلات والمغالات في معاقرة المشروبات الروحية فيها والتبذل في الرقص والنزوة والفسق وما الى ذلك من النواحي الادبية في الاجتماع المصري كالتربية وتنشئة الاولاد وغيرها والبحث مسوق في قالب حوادث تدور حول سيدة تدعى ليلي تمثل في حياتها وحياة من تعاشرهم المشكلات التي تقدم ذكرها . أما تأمل المؤلف فيها فأجراه على لسان الحكيم ، وهو على الغالب تأمل سمته الحكمة وقالبه الارشاد الروحي ، ولولا نزعة قوية في المؤلف الى الوقوف موقف الواعظ او الخطيب على المنبر والى التعميم في معظم الاوصاف التي يوردها لكان الكتاب من حيث هو عرض قصصي لموضوع اجتماعي أقرب الى الاصول الفنية المتبعة في مثل هذه الاحوال . ثم اتقانا ندرى ما الباعث القاهر على رسم صورة لمصابة في عقلها اقل ما يقال فيها انها تطوي على تلميح في غير محله ولو حذف من الكتاب لما سقط معناه ولا اضطرب سياقه

كتاباه نفيسانه في التربية

١ - طرق التدريس المثلثي ٢ - التربية على طريقة دالتن

التربية في معناها الاسمي ، ثقافة واختبار . لاغنى لاحدهما عن الآخر . فاذا قصرهما على الثقافة ، فقد تخرج من المدرسة الى ميدان الحياة شاباً وشابات ، اصبح لصوامع النساء وأدارة الراهبات . والاختبار اذا لم يقيم على فهم صحيح لحقائق الطبيعة والحياة والنفس والاجتماع ، فقد تلتوي نتائجه . ذلك ان التربية عمل اجتماعي ، وليس بعمل ذهني صرف . والهدف الذي تنفق في سبيله مئات الملايين من الجنيهات في مختلف الامم ليس صقل الذهن فحسب ، بل تنشئة «الرجل» كما نفعه و« المرأة » كما يزيدا . ولا بد لتحقيق هذا الغرض العالي ، من تدريب الملكات العقلية والخلقية معاً ، وهو التدريب الذي يؤهل الرجل والمرأة للفهم والتعاون

فالتربية بهذا المعنى ، اقل ما تكون اتصالاً ببرنامج التعليم وحده . واشد ما تكون اتصالاً بشخصية المعلم . واذا صدق على القضاء ما قيل من ان القانون الناقص اذا طبقه قضاة ذوو كفاية كان اصالح للامة من قانون كامل يطبقه قضاة غير جديرين بالثقة ، فمثل هذا الحكم على التعليم اصدق ، لان التعليم ليس مجرد تطبيق قواعد ونصوص ، وانما هو قبل كل شيء تفاعل حيوي بين شخصية المعلم وشخصية المتعلم » (مقدمة التربية على طريقة دالتن للاستاذ القباني صفحة ز)

فاذا استقرت في الذهن هذه الفلسفة « الكلية » للتربية ، أدركنا الفائدة العظيمة التي يجنيها المشتغلون بها والمهتمون على مقدراتها من كتب وضعها اعلام المربين في هذا الموضوع وتولى نشرها فريق من اعلام المربين عندنا

ان « كتاب طرق التدريس المثلثي » من تأليف البروفسور بحلي وقد تولى نقله وشرحه الاستاذ احمد سامح الخالدي مدير الكلية العربية بالقدس وأستاذ التربية فيها . والمؤلف ليس مجهولاً عند عامة المعلمين فهو أستاذ مشهور بأرائه العلمية ومن مؤلفاته (ادارة الصفوف « الفصول ») الذي أخرجه الاستاذ الخالدي من بضع سنوات فلاقى رواجاً كبيراً في الاوساط التهذيبية في الشرق العربي ولا يزال مرجعاً هاماً في هذا البحث

أما الكتاب الحالي فيختصر وهو يحتوي على ارشادات وأوامر ونواهي لفائدة المعلمين والمتعلمين ولكن اختصاره لا يعيبه فقد اشتملت بحوثه على مقاييس عامة شاملة في جميع نواحي التدريس يجدر بالمعلمين والمعلمات ان يعوها ويفقذوها ولكن بعد تأمل عميق واختبار وبحرير . وفي الكتاب اشارة الى الطرق الاصولية المعروفة في التربية وبعض الطرق الحديثة ، كطريقة المشروع ومنهاج الحركة ، ونظام دالتن ونظام وونتكا ، وتسميع الجماعة وتوجيه الدراسة كل فقرة من فقرات هذا الكتاب ، تنطوي على درة غالية من درر الارشاد العملي والتوجيه النفسي للمعلمين في مختلف الاحوال والحالات

وإذا كان كتاب « طرق التدريس المثلى » كتاباً عاماً شاملاً لنواح مختلفة ، من دون ان يخل شموله واختصاره بدقته وحصيف ارشاده ، فان كتاب « التربية على طريقة دالتن » ، يتناول بالبحث المفصل طريقة من طرق التعليم الحديثة ، استحدثتها هيلين باركرست وقاعدتها ان اجتماع الطلاب فصولاً كبيرة ، لا يقيم وزناً للفروق الذهنية والنفسية بينهم ، واذن فيجب ان يأخذ المعلم بعين الاعتبار قدرة كل طالب على حدة ، وتعيين عمل له خاص به ، يتفق ومقدرته الذهنية وجلده على العمل ، لان هذه الطريقة تمكن الطالب من النمو نمواً صحيحاً ، لا يعيقه سبقه سائر الطلاب فيستبين ، ولا تخلفه عنهم فيتطرق الى نفسه الهمة والخوف

واضعة هذا الكتاب هيلين باركرست مبتكرة الطريقة ، وناقله الى العربية زكريا ميخائيل خريج معهد التربية والمشرق على اصداره الاستاذ اسماعيل القباني احد اساتذة معهد التربية بمصر . قال الاستاذ اسماعيل في مقدمته « وقد اخترنا البدء بهذه الطريقة لاسباب عدة . فاما السبب الاول فهو ان مبتكرة الطريقة ومؤلفة الكتاب كانت عندما شرعت تفكر فيها معلمة عادية في مدرسة ريفية باميركا . وقد واجهتها ظروف خاصة فأعملت الفكر لتنظيم مدرستها على وجه يلائم تلك الظروف ، مسترشدة في ذلك بنتائج اطلاعها ومشاهداتها ، فتوصلت الى طريقها هذه ووجدت من تشجيع السلطات المشرفة على مدرستها ما مكنها من تطبيقها . وما زالت تعدلها وتكملها في ضوء التجارب ، وتستقصي نتائجها العملية ، وتوضح اسسها البيداغوجية حتى اقنعت بفائدتها رجال التربية كافة . واصبحت هذه الطريقة الان في طليعة طرق التربية المعدودة في العالم

ولسنا في حاجة الى القول بان مكتبة المعلم في مصر وسائر بلدان الشرق العربي لا تستغني عن هذين الكتابين النفيسين

حول العالم

بقلم نزيه مسعد — صفحاته ٢٨٥ صفحة كبيرة

سلسلة مقالات نشرها كاتبها في « المقطم » يصف بهارحله في سنة ١٩٣٦ الى اميركا بلاد العجائب وايطاليا الفاشستية فوصف بدقة وأمانة كل ما شاهده في البلاد الاميركية من معالمها وولاياتها ومتاحفها ودورها وصحافتها وخص الجزء الاكبر بالولايات المتحدة ومحادثته مع رئيس جمهوريتها ووزرائها كما افرد فصلاً خاصاً بعاصمة الصور المتحركة هوليوود وقال ان في هوليوود وضواحيها نحو ٥٣ شركة للصور المتحركة لكل منها « ستوديواتها » وافرد عدة صفحات لوصف ايطاليا الفاشستية وما شاهده فيها والنظام التعاوني الحكومي ولخص العقيدة الفاشستية من عدة وجوه وتكلم عن التربية الفاشستية ومقابلته لقداسة البابا وعن عظمة مدينة الفاتيكان فالكتاب وصف صحفي مشوق لما تحويه هذه البلدان من طرائف وعجائب وغرائب

مكتبة مصرية كبيرة

مذكورة بحياتها ومبراتها - لعقوب عبد الوهاب بك - دار المطبوعات الراقية

تعودنا ان نمجد اعمال الغرب والغربيين في مجال التحديث بالمبرات والهبات التي تنفق على الاعمال الخيرية وتشجيع العلم واغاثة البائسين لان ارباء اميركا وأوروبا ضربوا المثل في هذا الباب الخيري العظيم على مقدار ثرواتهم وما تدره اموالهم من خير عظيم ولقد اعتاد عطاء الشرق ولا سيما كرام المسلمين منهم على وقف الاوقاف ورصد ريعها للاعمال الخيرية وخصص بعضهم اوقافه لاستمرار الاقبال على العلم في الازهر الشريف ومساجد مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف وجامع الزيتونة في المغرب مما جعل سير العلم متواصلاً في تلك المساجد وسيظل ما دامت الاوقاف تدر خيراتها متضوّعة بمسك احاديث واقفيها وفي يوم ٢٣ من ربيع الاول سنة ١٣٥٥ توفيت الى رحمة الله سيدة بارة تقيّة محسنة هي السيدة حفيظة هانم رستم حلمي الالفي حرم المرحوم يوسف بك نجيب فتحدثت الصحف بأعمالها الخيرية ومبراتها العظيمة وانتهزت الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم بالقاهرة فرصة هذه الذكرى فأقامت لها حفلة حافلة في دار جمعية الشبان المسلمين في يوم الاربعاء ٢٣ من ربيع الاول سنة ١٣٥٦ الموافق ٢ من شهر يونيه سنة ١٩٣٧ حضرها جمع حافل من اهل العلم والفضل وما يصح ذكره والتنويه به هنا ليكون اُحدوث طيبة للفقيدة العظيمة انها انفقت في حياتها جميع ما تملك من مال ومجوهرات وعقار في القاهرة والاسكندرية على الجمعيات الخيرية ويقدر ذلك بنحو مائة ألف جنيه مقسمة على النسبة الآتية : — ١٦ قيراطاً للجمعية الخيرية الاسلامية ينفق ريعها على مستشفى الجمعية المنشأ بمحطة العجوزة بالحيزة بمصر واشترطت ان يكون انفاقه على المعالجة بالراديو. وجعلت هذه الجمعية ناضرة على املاكها . وخصصت ٤ قرايط للجمعية المحافظة على القرآن الكريم وقراطين للاتفاق على الطلبة الغرباء الذين يفدون على الازهر الشريف من الصين واليابان والحبشة وقراطين للجمعية الاسعاف العمومية بالقاهرة وهذا علاوة على انشائها مسجداً فخماً في مصر الجديدة بلغت نفقاته نحو تسعة آلاف جنيه وألحقت به مكتبة دينية وخصصت فيه مكاناً للسيدات ووقفت عليه اوقافاً خاصة لاستمرار الاتفاق عليه وأهدت الى جمعية الاسعاف بالقاهرة سيارة فخمة صنعت خصيصاً في مصانع رينو المشهورة كاملة المعدات وهي بحوب القاهرة وعليها قطعة نحاس سجل اليها اسم المحسنة الكريمة ووقفت منزلين كبيرين بشارع الهرم ثمنهما عشرة آلاف جنيه على الاعمال الخيرية وأهدت الى دار الكتب المصرية خزانة من صناعة شرقية قديمة وفيها مختارات من الكتب والتحف وأوصت بأثاث غرفتي نوم واستقبال كبيرتين من الصناعة الشرقية النادرة المثال من صنع المدرسة

الاهامية لوضعها في معرض النماذج التابع لوزارة الصناعة والتجارة ليستفيد منها الصناع في الاعمال الدقيقة استفادة عملية وتاريخية وقد وضعت فعلاً في المعرض الدائم هذا عدا مبراتها على الجمعيات الخيرية الاخرى والعائلات والافراد وعدا تبرعاتها في الحجاز في كل عام حجت فيه وكانت تفقد المحتاجين وتفقد عليهم خيراتها ومبراتها وان نظرة سريعة على توزيع املاكها تبين لنا مقدار الحكمة في رصد أموالها فن علاج للمرضى بأحدث وسائل العلاج الراديو الذي لا يتيسر العلاج به الاً للاغنياء الى المساعدة على استمرار مدارس المحافظة على القرآن الى التوسيع على الطلاب الشرقيين في اثناء مكثهم في مصر واغترافهم من مناهل العلم بالازهر الشريف الى مساعدة وسائل الاسعاف بتزويد جمعية الاسعاف بسيارة نفخة ورصد حظ من المال عليها كل ذلك يدل على حكمة وبعد نظر في عمل الخير وهذا الامر يعود النصيب الوافر فيه الى مشورة مستشارها الامين وشقيق قريبها الحاج يعقوب عبد الوهاب بك ومن رجع اليهم في الرأي كعمالي جعفر ولي باشا. واذ نحن ذكرنا في هذه الكلمة مختصراً بما قامت به المغفور لها من الاعمال الخيرية نجد واجباً علينا ان نشير الى ما قام به المغفور له قريبها المرحوم يوسف بك نجيب عبد الوهاب المتوفي في ٢٠ شوال سنة ١٣٥١ — ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٢ فقد خص رحمه الله وقفه على الجمعيات الآتية: — جمعية العروة الوثقى ب — جمعية ملجأ ابناء السبيل ج — جمعية المؤاساة الاسلامية بالقاهرة د — جمعية المؤاساة الاسلامية بالاسكندرية ه — جمعية المؤاساة الاسلامية بالسويس و — جمعية الاسعاف العمومية بالقاهرة ز — جمعية الاسعاف العمومية بالاسكندرية فنستطير شايب الرحمة على جدث هذه المحسنة الكبيرة وزوجها الكريم وزوجان يكونا قدوة طيبة للقادرين من الاغنياء في الشرق عامة ومصر خاصة

م. ر.

اليابان — بهار الشمس المشرقة

وطد الاستاذ محمد عبد القادر صبيح العزم على اصدار كتاب في كل شهر يسميه كتاب الشهر والكتاب الذي بين ايدينا هو ثالث مؤلف يضعه المؤلف وصف به اليابان او بلاد الشمس المشرقة وقال ان كلمة اليابان غريبة عن مسامع من تطلق عليهم لان لهم عند انفسهم اسماً آخر هو داي نيبون وهو مشتق من لفظة صينية تنطق جي بن ومعناها ارض الشمس المشرقة. ثم ذكر كيف جاءت كلمة اليابان وان امبراطور اليابان يسمى الآن تو بدلاً من ميكادو ونفوذه مستمد من قوة الحب الذي نشأ بينه وبين شعبه وان القوم يقدسون امبراطورهم حتى لا يجوز لياباني ان يحدق فيه واذا مر في الطريق انحنى القوم سراعاً واغلقت النوافذ والابواب. وجميع ابواب الكتاب مكتوبة بقالب ممتع يلذ القارى مطالعتها فوصف عادات اهلها والزلازل الخيف الذي حدث سنة ١٩٣٢ ودمر العاصمة وكيف جددت واستبدلت معالم القدم آيات الفن الهندسي في البناء. وتكلم عن الحكومة والتعليم والصحافة وخص المرأة اليابانية ونهضتها

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الحادي والتسعين

- ١٢٩ عقل الانسان بين الكيمياء والكهرباء
- ١٣٥ أنصير من أجل الرقي غباراً؟ (قصيدة) للمرحوم الدكتور يعقوب صروف
- ١٣٧ المنسوجات الأثرية: للمسيو جاستون فيت. نقله محمد عبد العزيز
- ١٤٥ فولتير: للكاتب اميل لدفيج. نقلها كامل محمود حبيب
- ١٥٣ الفكر واللغة: لجورجي شاهين عطية
- ١٦١ حشرة سان يوزي: للدكتور محمد منير بهجت
- ١٦٧ كيمياء الفيتامينات
- ١٧٢ المدرسة والطالب والوطن: للدكتور تشارلس وطسن
- ١٧٨ ازاحة الستار عن تمثال الدكتور صروف في جامعة بيروت الاميركية
- ١٨٥ الفعل الرابعي: لآنيس فريجة
- ١٩٢ رحلة جغرافية عمرانية: لوصفي زكريا
- ٢٠٢ نواح عسكرية في عصر اسماعيل: لعبد الرحمن زكي
- ٢٠٩ سير الزمان * خواطر حول زول الملك ادورد الثامن عن العرش. نظرات ومقابلات في العصر: لسليم خياطة. فلسفة المعارضة في نظام الحكم الديمقراطي
- ٢٢٥ حديقة المقتطف * الشاعر والالم: للشاعر الفرنسي الفحل الفريد دو موسيه
- نقلها احمد أبو الخضر منسي. امين تقي الدين: بقلم الياس أبو شبكة. أغنية الليل. مترجمة عن نيتشه. نقلها محمد فهمي
-
- ٢٣٣ باب الاخبار العلمية * «صدمة الانسولين» قد تشفي من الجنون. غاز الهليوم لا يلتهب. البروتيلين يشفي مرضاً اجتماعياً. معالجة النزلة الرئوية (النومونيا). ضرب جديد من دقائق المادة. أنسولين جديد باضافة الزنك اليه. بين العقل والجنون. عينان وأذانان وفم في ذيل ضفدع. الصوف الصناعي. تعبان في الثالثة. احصاء غريب. غاز النيون في بعض السدم. انقلاب الجنس في الضفادع
- ٢٤٠ مكتبة المقتطف * عالم السود والنيود. المتني أيضاً! . القانون الدولي الخاص المصري. ديوان حافظ ابراهيم. الباراني. من حديث الشرق والغرب. الحسكيم وليلى. كتابان نفيسان في التربية. حول العالم. محسنة مصرية كبيرة. اليابان بلاد الشمس المشرقة